
ساحر الكتب
وهج البنفسج
٢
أسامة المسلم

وهج البنفسج ٢

الروائي
أسامة المسلم
@OsamahAlmuslim
@OsamhAlmuslim
komontage

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

همسة قبل أن نبدأ..

نتيه الكثير من الخطوات المتجهة نحو السعادة كهدف..

في حين يمشي ملكًا من يصنع سعادته في كل خطوة..

فالمتعلقون على أطراف الأمل والباحثون باستماتة عن أسبابٍ تجعلهم أكثر تعلقًا بالحياة هم في الغالب واهمون.. نعم واهمون.. مع وعي خفيٍّ يخبرهم مع كل لحظة أملٍ أنَّ مرادهم مستحيل.. وذلك بمجرد أن يجدوا أمامهم أولئك السعداء بالفطرة والذين تعلقت بهم الحياة واستماتت هي في البحث عنهم.. فبهجتهم نبعٌ أصيلٌ وجزيلُ عطائهم لا ينضب.

والسؤال الذي يجول دائمًا في عقولنا هو: هل للسعادة أسباب؟

وإن كان فهل تؤخذ عنوة أم تُمنَح حظوة؟

أم أنها مسببات يفتعلها الفرد ليكون بذاته سعيدًا دون خضوعه لسطوة تعكر مزاجه أو لتقلبات الجو غير المتوقعة؟

اكتشفت بعد سنوات أن السعادة والراحة المتأتية منها ليست غنيمة نغنمها بعد بحث طويل، بل محصول نحصده بعد عمل وانتظار أطول..

لو كان حبُّك كلمة . . لقلتها

لو كانَ تضحيةً . . لقدَّمتُها

لكنَّه حلمٌ.. أخشى الاستيقاظ منه

تحت شجرة التوت

أشرقت شمس الصباح على سوق قرية صغيرة متواضعة، وبدأت العربات المحملة بمنتجات المزارع القريبة من فاكهة وخضار بالانتشار فيه بالإضافة لبعض الدكاكين التي فتحت أبوابها لعرض اللحوم والدواجن والمنتجات الحيوانية الطازجة وبعض البضائع المختلفة الأخرى من إنتاج أهل القرية. خباز القرية هو أول من بدأ نشاطه قبل بزوغ الشمس، تبعه البقية تباعًا حتى دبّت الحياة في السوق بأكمله واكتظّ بالمتسوقين، لم يكن جميع روّاد السوق من أهل القرية فقد كان أهالي القرى المجاورة يأتون إليه لأنه الأشهر في المنطقة بسبب ما يعرض فيه من منتجات تعدُّ الأجودَ والأرخص مقارنة بغيره.

المدنية الحديثة لم تُلوِّث تلك القرية لذا بقي أهلها على فطرتهم النقية في تعامل بعضهم مع بعض ومع من يزورهم من خارجها سواء للعمل أو التسوق، أو حتى للاستجمام والسياحة التي كانت إلى حدٍّ ما نشطة في القرية خاصة بعد افتتاح نُزُل في قمة هضبة قريبة منها استقبل السيّاح ووفر لهم مكانًا ملائمًا للإقامة.

في أوج نشاط السوق ذلك الصباح تجوّل شاب في مقتبل العشرين من أهالي القرية بين المحلات والدكاكين.. رحب به صاحب كل محلٍّ مر به لأنه كان معروفًا ومحبوبًا لدى أهالي القرية.. توقف الشاب عند بائع البوظة وقال باسمًا: «كيف حالك اليوم يا عم؟»

بادله بائع البوظة الابتسام وبنبرة مرحّبة قال: أنت لا تتأخر عن بوظتك اليومية أبدًا!

(الشاب) واضعًا كفَّه خلف رأسه ضاحكًا: لا أستطيع مقاومتها وخصوصًا تلك التي من صنع يديك.

(بائع البوظة) وهو يغرف من علبة حديدية مطمورة في وسط الثلج: وهل هناك أحدٌ غيري يصنعها في قريتنا؟

(الشاب): حتى وإن حاول غيرك فأنا واثق من أنه لا أحدَ سيجيد إعدادها مثلك في المنطقة بأسرها.

مدَّ البائع للشاب كرة البوظة البيضاء المقلّمة باللون الزهري الغامق بعد ما وضعها في إناءٍ خشبي وغرس في قلبها ملعقة معدنية صغيرة قائلًا:



«لا تجزم قبل أن تجرِّب.. أنت حتى لم تجرِّب النكهات الأخرى التي أعدّها.. تكتفي ببوظة التوت فقط»

بدأ الشاب بتناول البوظة قائلًا: أنا مكتفٍ بالسعادة التي بين يديّ فلمَ أبحث عن شيءٍ آخر؟

تحدث صوت أنثوي من خلف الشاب وخاطبه قائلًا: «لأن الحياة تحمل أشياء أكثر جمالًا من بوظة التوت..»

التفت الشاب لمصدر الصوت وقليل من البوظة الذائبة قد سال من جانبَيْ شفتيه ورأى سيدةً في الثلاثين من العمر تقريبًا تتبسم له، ولفت انتباهه شعرها الأسود الطويل المُسدَل الذي تجاوز في طوله خاصرتها. عيناها تلونتا بلون العسل، واسعتان مكتحلتان ناعستان. سارت السيدة بخطواتٍ متغنّجة وهي تقترب منه بابتسامة عريضة، علم الشاب أنها لم تكن من أهل القرية فلباسها وهيئتها لم يوحيا بذلك بالإضافة إلى أن معظم أهالي تلك القرية الصغيرة يعرف بعضهم بعضًا جيدًا ويمكنهم تحديد الغرباء بسهولة، أعاد الشاب نظره للأمام واستأنف تناول البوظة بخجل وعلى عجالة وكأنه يريد الانتهاء بسرعة كي يرحل قبل أن تصل إليه. لم يلحق الشاب إنهاء

بوظته فقد وقفت السيدة بجواره وهو لايزال منهمكًا في تناولها وأخذت تحدِّق به باسمة وتراقبه بصمت وتتأمله وهو يتناول البوظة بتوتر، فقال البائع لها: «هل تريدين بعض البوظة الطازجة يا سيدتي؟»

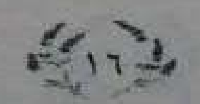
(السيدة) دون أن تحيد بنظرها عن الشاب أو تذبل ابتسامتها: «لا.. سأكتفي بالمشاهدة فقط..»

لم يكمل الشاب محتوى الإناء الخشبي الصغير ومدَّ ما تبقى من البوظة الذائبة جزئيًّا للبائع وهو يقول بتوتر وعجلة للرحيل: «شكرًا يا عمي...!»

أخذ البائع الإناء وقال مستغربًا: ما بك؟ أنت لم تنهها! ألم تعجبك؟

مسح الشاب فمه بكمِّه وقال قبل أن يهمَّ بالرحيل: بلى بلى لكني تذكرت أمرًا هامًّا يجبِ أن أنجزه! أراك لاحقًا!

ما أن وضع البائع الإناء جانبًا حتى أدار الشاب ظهره راحلًا بخطوات متسارعة متوجهًا لوسط السوق تاركًا خلفه السيدة تراقبه مبتسمة..



بعد مسيرة دقائق توقف الشاب عند بائعة الخضار، سيدة ممتلئة الجسم تتقلد أقراطًا ذهبيَّةً كبيرة تربط رأسها بوشاحٍ قماشي أصفر وعلى وجنتها شامة كبيرة نبتت منها شعرة سوداء طويلة، قال لها الشاب بعد ما فرغت من خدمة بعض الزبائن: صباح الخير..

(بائعة الخضار) بتجهم وهي تعيد ترتيب الخضروات التي قلّبها الزبائن خلال تفحصهم لها: ليس لدي اليوم بطوله.. ماذا تريد؟

أجاب الشاب بنبرة متوترة بسبب استقبالها المشحون بالحنق وقال:

«أمي تقول لكِ بأن الطماطم التي أعطيتِني إياها بالأمس كانت فاسدة..»

(بائعة الخضار) تقلب بعض حزم الفجل دون أن توجه نظرها للشاب: وهل أجبرتُك على شرائها؟

(الشاب): لا ولكن كان يجب أن تقدّمي لي منتجًا جديدًا!

(بائعة الخضار) ترش بعض الماء بيدها على الخضار المعروضة: لقد كان ذلك من محصول الأمس وأنا لم أخدعك.

(الشاب) متجاهلًا تبريراتها: أمي تريد عوضًا عنها..

(بائعة الخضار) ببرود: ها هي أمامك انتقِ منها ما يعجبك والثمن كما هو لم يتغير

(الشاب) وقد بدأ يتجهم: أي ثمن؟! يجب أن تستبدلي الفاسدة!

(بائعة الخضار): أين هي؟ لِمَ لم تحضرها معك إذًا؟

(الشاب): أُحضر من؟ أمي؟

صوت ضحكة أنثوية يأتي من خلف الشاب..

التفت الشاب على مصدر الضحكات ليرى السيدة نفسها التي كانت عند محل البوظة ممسكة بإناءٍ خشبي من البوظة تتناوله وهي تراقبه مبتسمة.

اقشعر الشابُ لرؤيتها وقبل أن يرحل هاربًا مرة أخرى أشار لبائعة الخضار بسبابته قائلًا: «سأعود لاحقًا لأخذ الطماطم!»

(بائعة الخضار) وهي تراقبه يرحل وبتهكم: لا تنسَ أن تحضر أمك معك!

بعد ابتعاده مسافة كافية هدّأ الشاب من هرولته ثم أدار نظره للخلف بشكلٍ خاطف ليتحقق من أن تلك المرأة لم تتبعه فرأى

أنها بقيت عند محل الخضار تتحدث مع البائعة، فأعاد نظره أمامه واستمرّ بالسير حتى اقترب من نهاية الطرف الآخر للسوق حيث كان خبّاز القرية، وبعد أن وقف أمام مدخل الفرن قال: «صباح الخير يا عم!»

(الخباز العجوز) بصوت مرَحِّب وبعض الطحين يغطي جبينه وكفوفه: أهلًا بأوسم شابٍّ في القرية!

(الشاب) بإحباط: هذا لأنّي الشابُّ الوحيد في القرية.. الجميع هنا إما أطفالٌ أو كهول

(الخباز العجوز) ضاحكًا: صحيح نحن الشبّان نادرون بهذه القرية!

(الشاب) مبتسمًا بحزن: نعم معك حق..

(الخباز العجوز): لمَ لم تلتحق بالجامعة في المدينة مثل بقية شبّان القرية؟

(الشاب) محاولًا تغيير الموضوع: هل خبز أمي جاهز؟

(الخباز العجوز) يمد لفافة قماشية بها بعض الأرغفة: ما بك؟ لا تبدو على طبيعتك اليوم؟

(الشاب) وهو يأخذ اللفافة: كيف أكون على طبيعتي وأنا مطارد؟

(الخباز العجوز) باندهاش: مطارد؟ من قبل من؟

(الشاب) يمد قيمة الخبز قائلًا: سيدة غريبة الأطوار تلاحقني منذ أن دخلت السوق

(الخباز العجوز) متجاهلًا المبلغ الممدود له ومطلًّا برأسه خارج الفرن: أين؟

(الشاب) واضعًا القطع النقدية فوق منضدة فرد العجين قبل أن يرحل: «لا تنظر إليها كي لا تلتصق بك أنت أيضًا»..

(الخباز العجوز) وهو لا يزال يبحث بنظره في الأفق: ستكون أفضل من الطحين والعجين الملتصق بي.

تبسم الشاب للخباز قبل أن يستأنف سيره خارجًا من السوق حاملًا أرغفة الخبز بين ذراعيه متوجهًا نحو منزله الصغير الذي يقيم فيه مع أمه وأبيه، فقد كان الابن الوحيد لهما وعلاقته بهما وطيدة جدًّا ويعتمدان عليه كثيرًا في أمور حياتهما. وصل الشاب ودخل ليجد أباه جالسًا على كرسيٍّ خشبي يدخن غليونًا بهدوء فقال له: أين أمي؟



(الأب) وهو ينفخ سحابة من دخان الغليون: تسرق أجنّة الدجاجات كما اعتادت كل صباح.

ابتسم الشاب وعلم أنّ أباه يقصد أنّ أمّه كانت تجمع البيض من العشّة في الحظيرة خلف المنزل، فأبوه من النوع الذي يحب التحذلق في الكلام والتعامل مع الحياة بروح مرحة دومًا، بعكس والدته التي تحاول أن تكون جادة وحاملة للمسؤولية للعناية بطفليها الكبير والصغير على حد قولها. وضع الشاب الخبز فوق الطاولة وخرج متوجهًا للزريبة وبالفعل وبعد ما دفع درفة بابها وكما أخبره أبوه وجد أمه تحمل سلّة من القش امتلأ نصفها بالبيض الأبيض والأسمر ويدها ممتدة تحت إحدى الدجاجات وهي تقول: سوف آخذ واحدة ويمكنك الاحتفاظ بالبقية لتفقس يا (أم قنزعة).

(الشاب) من خلف أمّه باسمًا: لا أعرف أحدًا يسمي الدجاج غيرك يا أمي!

(الأم) تضع البيضة في السلة دون أن تلتفت إلى ابنها: فقط لأني أحبهنّ يحظَين بأسماء خاصة بهنّ.

(الشاب) بتهكم ضاحكًا: وهل تكرهين بعضَهن؟



(الأم) ماسحة على ظهر الدجاجة الراقدة: هل أحضرت الخبز والطماطم؟

(الشاب): الخبز نعم لكن الطماطم..

(الأم) ملتفة إلى ابنها: لكن ماذا؟ هل رفضت تلك المحتالة استبدال منتجاتها الفاسدة؟!

(الشاب) بحذر خشية إثارة سخط أمه: لا.. لا.. كانت ستستبدلها لكن.. كان خطئي أنا.. لقد رحلت قبل أن تفعل.. سأعود لأخذها منها الآن.

(الأم): تعود إلى أين؟! سوق الخضار يُغلق باكرًا ولن تراها حتى صباح الغد!

(الشاب): ما زال الوقت مبكرًا يا أمي يمكنني الجري بسرعة واللحاق بها!

(الأم) تهم بالخروج من حظيرة الدجاج: لا.. أريدك أن تساعدني في أمرٍ آخر

(الشاب): أعرف.. أن أحضر الماء من البئر.

(الأم): نعم لكن قبل ذلك أريدك أن تقطع بعض الأخشاب فالحطب أوشك على النفاد

(الشاب): حاضر يا أمي..

مسحت الأم على وجنة ابنها خلال خروجها من الحظيرة وقالت: أغلق الباب يا حبيبي كي لا تهرب الفتيات!

أغلق الشاب باب حظيرة الدجاج بعد خروج أمه وقال مبتسمًا: لا نريد ذلك أن يحدث..

حياة تلك العائلة كانت بسيطة جدًّا فمنذ أن رزقا بابنهما الوحيد كرّسا حياتهما لأجله ولتربيته، وعلاقتهما وتعلقهما به كان أقوى من تلك التي تربطهما بعضهما ببعض. الشاب تربى بين منزلهم الحجري الصغير وبين الحقول والسوق فقط، لم يخرج من حدودهم أبدًا. حتى المدرسة التي ارتادها أغلب الصبية في القرية لم يلتحق بها إلا للسنة الأولى فقط قبل أن تسحبه أمه منها وتقرر تعليمه في المنزل بمعاونة أبيه خشية من أن يكتسب أخلاقًا سيئة بمخالطة الصبية الآخرين كما أخبرت كل من تساءل عن سبب قيامها بذلك.

سار الشاب لوسط الغابة الكثيفة القريبة منهم بعد ما تجاوز حقل

القمح المحيط بمنزلهم الحجري الصغير وهو يحمل بيده الفأس التي اعتاد الاحتطاب بها، ولمّا وصل عند شجرة صالحة للاحتطاب بدأ يطرق جذعها بعدة طرقات متتابعة. كانت الشجرة ميتة وجافة لذا لم تصمد طويلًا أمام ضربات الفأس وأوشكت على السقوط فرفع الشاب الفأس فوق رأسه في نية لتوجيه ضربة قوية أخيرة للجذع المتهالك، وقبل أن يفعل سمع صوتًا من خلفه يقول: «لمَ هربت مني؟»

توقف الشاب وفأسه فوقه وأدار نظره نحو مصدر الصوت ليرى تلك السيدة التي طاردته في السوق تقف عاقدة ذراعيها تنظر إليه مبتسمة وقلادة فضية تتدلى من عنقها لمع فصُّها في وجهه وهي تحرك كتفيها يمينًا وشمالًا بهدوء. تسمَّر الشاب مكانه ولم يجب عليها، وقبل أن يقوم بأي ردة فعل جرت السيدة نحوه مسرعة وهجمت عليه وقفزت محتضنة صدره ليسقط الفأس من قبضته بعد ما طرحته أرضًا واستقرت فوقه. بقي الشاب يتنفس بثقل وهو مستلقٍ على ظهره متعجبًا، فرفعت السيدة رأسها من على صدره وهي تقول: آسفة لكن كانت الشـ..



قبل أن تكمل جملتها سقطت الشجرة حيث كان الشاب يقف..

استأنفت السيدة حديثها وهي تحدق بعينيه قائلة: كانت الشجرة ستقع عليك..

(الشاب) بارتباك: حسنًا.. شكرًا.. يمكنك أن تنهضي من عليّ الآن!

(السيدة) تقف ماسحة ملابسها بكفيها: هل أنت بخير؟ هل تعرضت للأذى؟

نهض الشاب وهو ينفض الأوراق الجافة التي التصقت به قائلًا: لن يكون أسوأ من الأذى الذي كنت سأتعرض له لو لم تدفعيني جانبًا!

(السيدة) بابتسامة رضا: تعجبني نظرتك للحياة.

(الشاب) وهو يلتقط الفأس: أي نظرة؟

(السيدة): رؤيتك لمحاسن الأمور في أسوأ الظروف.

(الشاب): أنت لا تعرفينني كي تصدري مثل هذا الحكم عليّ!

(السيدة): لا أحتاج سنين أو أشهرًا لأعرف أنك صاحب قلب نقي فقد رأيت ما يكفي لأعرف أنك نادر.

شعر الشاب بالارتياب من نظراتها خلال حديثها معه ولم يستمر بالحديث معها وسار نحو الجذع وبدأ يحتطب منه..

وقفت السيدة خلفه تداعب فص قلادتها الفضية بإبهامها وسبابتها وتتأمله وهو يمارس عمله ثم قالت: هل تحتاج مساعدة في نقل الحطب؟

(الشاب) حاملًا بعض قطع الحطب بين ذراعيه: لا، شكرًا.

(السيدة): سوف تعود بالمزيد لو سمحت لي بمعاونتك..

رمى الشاب ما جمعه على الأرض والتفت إليها بوجه متجهم وقال بغضب: ماذا تريدين مني؟! كفّي عن المراوغة فأنا لست أحمق! لا أملك مالًا لتسرقيه أو وقتًا لأضيعه في تسليتك!

تحوّلت ابتسامتها لخليط من التعابير الجادة وقالت: ليس مالك هو ما أرغب في سرقته..

(الشاب) نافضًا ملابسه بأطراف أصابعه صارخًا فيها: لا أملك سوى ملابسي! خذيها وارحلي عني!

أنزلت السيدة رأسها بوجه مشبع بالخيبة ولم تقل شيئًا آخر..

شعر الشاب بالسوء لانفعاله وقال بصوت هادئ متقطع: أنا.. أنا أعتذر عما قلت!



(السيدة) ونظرها عند قدميها: لا بأس.. أنت لم تقترف أي خطأ..
أنا المخطئة.

بحكم طبيعة الشاب وطريقة تفكيره لم تخفف كلماتها من شعوره بالضيق تجاه ما قام به فسار إليها وأمسك بيدها وقال: أرجوكِ سامحيني فأنا لا أستطيع تحمل هذا الذنب الذي اقترفته.

رفعت السيدة رأسها ونظرت بعينين دامعتين للشاب ولم تجبه..

(الشاب) وتوتره يزداد: يا إلهي ماذا فعلت؟

في لحظة ارتباك شد الشاب معصم السيدة وسار بها وسط الغابة وهي بدورها لم تقاومه وتبعته حتى وصلا لشجرة توت كبيرة محملة ببعض الثمار المختلفة الألوان وعند استقراره أسفل منها أفلت الشاب يدها وقال: عندما أشعر بالضيق آتي إلى هنا وأجلس تحت هذه الشجرة حتى تزول كلُّ همومي.

(السيدة): وما هي همومك؟

(الشاب) بتوتر: همّي الآن هو ألا تكوني غاضبة مني.

(السيدة) مبتسمة من خلف دموعها: شجرتك عجيبة.. فأنا لم أعد غاضبة منك!

(الشاب) مبتهجًا: حقًّا؟

(السيدة): نعم..

قبض الشاب قبضتيه وهزّهما فرحًا أمام وجهه، ضحكا وبدأ يرقص بسعادة وكأنه طفل يحتفل بقدوم العيد..

بقيت السيدة تتأمله وهو يتراقص بسعادة أمامها محدّثة نفسها في عقلها قائلة: «لم أكن غاضبة منك كي أصفح عنك..»

انقطع تأملها به بعد ما توقف عن الرقص فجأة وأمسك معصميها بيديه وقال بحماس: هل تحبين التوت مثلي؟!

(السيدة) باسمة بخليط من التعجب والسعادة: التوت؟ نعم.. ومن لا يحب التوت؟

مدَّ الشاب ذراعه خلفها وقطف بعض الثمار المتدلية وجمعها في كفه اليسرى ثم التقط واحدة بسبّابته وإبهامه ورفعها عند شفتيها وقال: تذوقي هذه..

تناولت السيدة ثمرة التوت الناضجة بينما تناول هو الآخر واحدة وقال: ما رأيك بها؟

(السيدة): لذيذة جدًا..

جلس الشاب على الأرض وظهره لشجرة التوت الكبيرة وأشار باسمًا للسيدة بالجلوس بجانبه ففعلت.. استأنف الفتى تناول حبات التوت وهي تراقبه مبتسمة بصمت حتى أكل جميع الثمرات، تنبه الشاب والتفت إليها وبفم ملطخ بعصير التوت الأحمر قال: لقد نسيت نفسي ولم أعطِكِ أخرى..

(السيدة): لا عليك.. استمتع بها أنت.

(الشاب) وهو يهم بالنهوض: لا لا.. سوف أقطف لكِ المزيد.

قبل أن يقف الشاب وضع كفه على رقبته وتغيرت ملامح وجهه..

(السيدة) بقلق: ما بك؟

(الشاب) بصوت متحشرج: حلقي يؤلمني.. أعتقد أنه بسبب أكلي البوظة على عجالة اليوم.

ضحكت السيدة قائلة: هذا جزاؤك لمحاولة الهرب مني!

أسند الشاب خدّه على كفه موجّهًا نظره إليها وقال: لم تخبريني.. لمَ كنت تطاردينني؟

قطفت السيدة ثمرة توت خضراء ووضعتها في فمها..

(الشاب) بتعجب: لماذا تناولتِها؟ طعمها مقيت لأنها لم تنضج بعد..

الناضجة أكثر حلاوة!

ابتلعت السيدة الثمرة الخضراء بعد ما لاكتها وقالت: كنت أظن

ذلك مثلك قبل أن أجرب واكتشفت الحقيقة..

(الشاب): أي حقيقة؟

(السيدة): أنّ ألف نصيحة من غيرك لا تعادل تجربة واحدة

بنفسك.. اكتشفت أني أستمتع بلسعات الحموضة على لساني أكثر

من مداعبة الحلاوة لها.. حقيقة لم أكن سأصل إليها لو أنصتُّ للناس

وما يؤمنون به.

(الشاب): لا أعرف.. فوجود من نستفيد من خبرتهم في الحياة مهم

كي نجتاز حياتنا الخاصة.

بقيت السيدة تراقبه بصمت دون أن ترد عليه..

(الشاب) بخجل مبتسمًا: لماذا تحدقين بي هكذا؟

(السيدة): لا أعرف.. تشعُّ منك براءة مريحة لنفسي.

(الشاب) مديرًا نظره للأمام: البراءة للأطفال.

(السيدة): وما العيب في أن نعود أطفالًا؟

(الشاب): لا أرى عيبًا في ذلك لكن.. الطفولة بعد أن نتجاوزها تصبح وسيلة للسخرية والهمز واللمز.. يعيّر بها الناس بعضهم بعضًا وكأنها عار.

(السيدة): هل عيّرك أحد من قبل بأنك «طفل»؟

أنزل الشاب رأسه ولم يرد..

خلعت السيدة قلادتها الفضية ووضعتها حول عنق الشاب وهي تقول: لا تنصت لهؤلاء الحمقى.. الطفولة حلم.. حلم جميل.. نكبر منه لكن يجب ألا نتكبر عليه.. ولأننا لا نستطيع استعادة تلك المشاعر الطاهرة نتعامل معها بفوقية وننبذ من لا يزال يملكها وتتملكه.. خذ حذرك من هؤلاء الحمقى الذين يحاولون تسطيح رأيك أو الاستخفاف بذوقك، فهم لا يملكون في حياتهم شيئًا يستحق الفخر لذا يلجؤون لتحقير خيارات غيرهم.. عش حياتك كما تشاء وتحب..

(الشاب): نعم.. معكِ حق

(السيدة) باسمة: أعرف

(الشاب) متحمسًا فصَّ القلادة: لمَ أعطيتِني إياها؟

(السيدة): شكلها عليك أجمل

(الشاب) بخجل: شكرًا

(السيدة) ضاحكة: وأنت لست بطفل!

(الشاب): أمّي تقول بأنها لم تعش طفولتها مرة أخرى إلا بعد ما دخلت حياتها..

(السيدة): ماذا عنك؟ هل عشت طفولتك؟

(الشاب) مبتسمًا: أعتقد أني ما زلت أعيشها وهذا ما جعلني مصدرًا لتندر بعض الناس.

(السيدة): لمَ لم تترك القرية؟

(الشاب): ولمَ أتركها؟

(السيدة): لترى الحياة.. لتجرب أشياء جديدة..

(الشاب) مخفيًا فص القلادة في قميصه: لا رغبة لي في ذلك.. أنا مكتفٍ وسعيدٌ بحياتي

(السيدة): أعرف أن الحياة هنا هادئة وجميلة، لكن لا شك أنها مع الوقت ستصبح مملّة خاصّة لشاب في مثل عمرك.

(الشاب): لم أشعر بالملل يومًا

(السيدة): مستحيل! لا بد وأنّ الملل يغزو حياتك من وقت لآخر.

(الشاب): الملل الذي أشعر به هو من حديثك هذا..

(السيدة) مبتسمة: حسنًا.. سأتوقف عن الكلام..

(الشاب) بخيبة: لم أقصد.. كنت.. كالعادة أفسد الأشياء دون قصد!

(السيدة): ما فعلته دون قصد اليوم هو إدخال السعادة لقلبي.. فالحزن تسيَّد حياتي لعدة أشهر وهذا أحد أسباب قدومي لقريتكم الجميلة..

(الشاب): ولماذا أنت حزينة؟

أخرجت السيدة ورقة من جيبها ومدَّتها للشاب: خذ اقرأ هذه..

أخذ الورقة ونظر إليها قليلًا ثم وجه نظره للسيدة التي قالت: اقرأها!

قرأ الشاب الورقة ثم أعادها لها وقال: نعم، جميل..

(السيدة) ضاحكة: ما الجميل فيما قرأت؟

(الشاب) بتوتر: لا شيء لا شيء..

(السيدة) مبتسمة: لقد اتخذتُ قرارًا!

(الشاب): ما هو؟

(السيدة): سآتي معك..

(الشاب): تأتين معي إلى اين؟

(السيدة): إلى منزلك.. أريد رؤية حياتك الشيّقة هذه التي لا يتخللها الملل أبدًا!

(الشاب): أنت امرأة غريبة بحق

(السيدة): لماذا؟ لأني أريد التعرف عليك أكثر

(الشاب): نعم.. لا.. أقصد لأنكِ أنت من يبدو عليكِ الملل وتريدين التسلية بي

(السيدة): لا، أبدًا.. أقسم لك أنَّ هذا ليس هدفي.

(الشاب): عدنا لسؤالي الذي تحاشيتِ الإجابة عليه.. ما هدفك من ملاحقتي؟

(السيدة): لقد أجبتك..

(الشاب): لا لم تجيبيني.. اصدقيني القول كي أتيقن من صفاء نيتك تجاهي.. لماذا لحقتِ بي؟

(السيدة): بصراحة، لم أر شخصًا نقيًّا مثلك في حياتي من قبل.. ولا شعوريًّا اجتاحتني رغبةٌ عارمة في التقرُّب منك ومعرفتك أكثر..

(الشاب): أنت لم تقابليني ولم تتحدثي معي إلا اليوم فكيف..

(السيدة) مقاطعة: طريقتك في أكل البوظة..

(الشاب) بتعجب: طريقة أكلي للبوظة؟ ما بها...؟

(السيدة): هل ستصدقني لو أخبرتك بأني كنت أغبطك وقتها؟

(الشاب): كان يمكنك شراء واحدة خاصة بك بدل أن تنظري في طبقي!

وضعت السيدة كفَّها على خد الفتى وقالت: ما أجملك..

أبعد الشاب يدها عن وجهه بحركة سريعة ووقف متوترًا وهرب



من المكان دون أن يقول شيئًا، واكتفت هي بمراقبته وهو يجري مبتعدًا عنها. بعد جري غير منقطع وصل الشاب عند باب منزله وتوقف لالتقاط أنفاسه قبل أن يدخل على أبويه وما أن رأته أمه حتى قالت: «أين الحطب يا (رازي)؟»

(رازي) بتوتر: أنا.. أنا..

(الأب) وهو جالس على كرسيه الخشبي: وأين الفأس؟

(رازي) ماسحًا العرق الذي تصبب من جبينه: نسيته.

(الأم): ما الأمر؟ لمَ أنت مشوَّشٌ هكذا؟ هل تعرضت لهجوم ما؟

(رازي): سأعود لأحضر الحطب والفأس.

(الأم): لا!.. ابقَ هنا.. أبوك سيذهب لإحضارها.

(الأب) ناهضًا من مكانه: نعم يا بنيّ.. ابقَ هنا وأنا..

(رازي) مقاطعًا قبل أن يجري خارجًا مرة أخرى: سأذهب أنا!

(الأم): انتظر!

لم يستجب الفتى لأمه وعاد جريًا نحو الغابة..

(الأم) لزوجها بغضب بعد ما عاد للجلوس: ماذا تفعل؟ الحق به!



(الأب) مشعلًا غليونه ببرود: ابننا لم يعد طفلًا.. اتركيه وشأنه

(الأم) ألم ترَ وجهه كيف كان؟ لقد كان مرعوبًا من أمر ما!

(الأب) نافخًا بعض الدخان: لم يرعبه سوى طريقة سؤالك.. لو كان هناك مصدر رعب لهذا الفتى في حياته فهو أنتِ.

(الأم) متجهمة: ماذا تقصد؟!

(الأب) يهز الكرسي للأمام والخلف سارحًا في الباب المفتوح: لا أقصد شيئًا.. دعي الصَبي وشأنه.

أمسكت الأم وشاحًا معلقًا على الجدار ووضعته فوق رأسها وشدته بعقدة وسارت نحو الباب تتمتم متذمرة: ولم أطلب منك شيئًا من الأساس؟! أنت رجل بلا فائدة! اختنق بتبغك فهذا العمل الوحيد الذي تجيده!

أغلقت الأم الباب خلفها بقوة بعد خروجها تاركة زوجها يدخّن ويقول بهدوء: الاختناق بالتبغ خياري على الأقل..

وصل (رازي) للمكان الذي احتطب فيه ولم يرَ الفأس حيث تركه فبحث بين قطع الحطب المتناثرة وخلف الأشجار حوله لكن دون

جدوى. لم يَثنِه ذلك عن الاستمرار فجثا على ركبتيه أرضًا متحسسًا الأرض بكفّيه بين الأعشاب الطويلة آملًا أن يجده وخلال قيامه بذلك نادت عليه أمه من خلفه: ماذا تفعل؟!

نهض (رازي) مفزوعًا ماسحًا كفَّيه من التراب بعضهما ببعض قائلًا: أبحث عن الفأس

(الأم): ما الذي حدث معك اليوم في السوق؟

(رازي) بتوتر: لم يحدث شيء..

(الأم): أنا أحفظك عن ظهر قلب وما رأيته اليوم على وجهك حكى لي الكثير.. أخبرني الآن ما بك؟

(رازي) وهو يلتقط قطع الحطب التي قطعها سابقًا: صدقيني يا أمي لا يوجد شيء يستحق قلقك.

(الأم): وهي ترقب ابنها يجمع الحطب: لمَ أنت مرعوبٌ هكذا؟

(رازي) واضعًا القطعة الأخيرة على ساعده: لست مرعوبًا يا أمي.. لا تضخمي الموضوع.. هيا لنعُد..

(الأم): عد أنت.. أنا سأبقى هنا قليلًا

(رازي): لماذا؟ هل ستجمعين مزيدًا من الحطب؟ يمكنني العودة و..

(الأم) مقاطعة ونظرها لشجرة كبيرة قريبة منهما: فقط ارحل يا بني.. سألحق بك

(رازي): حاضر

رحل الشاب تاركًا أمّه واقفة وحدها وبعد ابتعاده تمامًا قالت: يمكنك الخروج..

لم يجبها أحد ولم يكن يحيط بها سوى صوت زقزقات عصافير الغابة..

(الأم) ونظرها مرتكز على تلك الشجرة الكبيرة: لا جدوى من الاختباء.. لقد رأيتك.. اخرج.

خرجت السيدة من وراء الشجرة والفأس بيدها وقالت وهي تبتسم بنبرة ممازحة: كنت أظن أني تواريت عن الأنظار بشكل جيد.

(الأم) بتجهم: من أنتِ؟ هل أنت من هاجم ابني وأفزعه؟

رمت السيدة الفأس جانبًا وأخذت بضع خطواتٍ نحو الأم حتى أصبحت أمامها ثم مدت كفها لمصافحتها قائلة: أنا (مريم)..

لم تبادلها الأم المصافحة بل اكتفت بالنظر لكفّها الممدودة بعبوس لثوانٍ ثم قالت: ماذا تريدين من ابني؟ لمَ تضايقينه؟

(مريم) قابضة كفّها الممدودة: أنا لم أضايقه أو أتعرض له بشيء.

(الأم): أنا لست صغيرة مثل ابني وأستطيع معرفة كل ما يدور من حولي.. أنتِ لستِ من أهل القرية..

(مريم): نعم.. أنا أقيم في النزل فوق التلة.. وصلت لقريتكم الجميلة منذ عدة أيام..

(الأم): إن كنتِ تبحثين عن التسلية فلن تجديها هنا يا غريبة.

(مريم): هل يمكن أن تعطيني فرصة للحديث كي أشرح لكِ كل شيء؟

(الأم): أنا واقفة أمامكِ ولن أرحل حتى أتحقق من أنّكِ ستتركين ابني وشأنه.. تكلمي أنا منصتة.

في تلك الأثناء وفي المنزل الحجري الصغير دخل (رازي) ورمى بالحطب على الأرض بالقرب من الموقد ثم خلع القلادة الفضية ووضعها فوق طاولة خشبية صغيرة توسّطت المكان ثم همّ بالتوجه

لغرفته قبل أن يستوقفه الأب قائلًا: أين أمك؟

(رازي): قالت بأنها ستلحق بي.

(الأب): هل كل شيء على ما يرام؟

(رازي): نعم.. لمَ جميعكم تكرِّرُون هذا السؤال؟

(الأب): أنت لست على طبيعتك اليوم يا بني وهذا سبب تساؤلاتنا.

(رازي) بنبرة مهمومة: هل وصلت لطريق مسدود في حياتي؟

(الأب): ماذا تقصد؟

(رازي): أين ستسير حياتي؟ هل سأبقى هنا للأبد؟ هل سأقضي بقية عمري بين السوق والمنزل؟ أليس هناك شيءٌ أكبر مقدرٌ لي؟

(الأب): حياتك ستسير حسب رغبتك أنت.. ماذا تريد؟

(رازي): هنا تكمن المشكلة.. أنا لا أعرف ماذا أريد وأين يجب أن أسير.. أشعر بأنّ عمري يُسرق مني وأنا أقف مكتوف الأيدي عاجزًا عن فعل شيء حيال ذلك..

(الأب): كل ما أستطيع تقديمه لك هو أنّي لن أقف في طريقك عندما تختار شريطة أن يكون ذلك الطريق صحيحًا.

زفر (رازي) ولم يقل شيئًا واكتفى بالوقوف صامتًا محدقًا بباب غرفته بوجه مكتئب وحزين جدًا وتعابير وجهه توشك على البكاء..

نهض الأب من مكانه وسار نحو ابنه وعانقه هامسًا في أذنه: أخبرني ماذا يمكنني أن أقوم به للتخفيف عنك وسأفعله.

(رازي): شكرًا يا أبي.. أرغب في النوم فقط.

(الأب) يفك عناق ابنه ثم يقبل رأسه قائلًا: كل همٍّ سينجلي ويزول أعدك بذلك يا بني..

أمسك (رازي) بمقبض الباب لكنه انتفض متنبهًا وكأن نارًا لسعته وقال: لقد نسيت إحضار الماء من البئر!

(الأب) واضعًا كفَّه على كتف ابنه: لا تقلق.. سأذهب أنا.. اخلد للنوم أنت.

تبسم (رازي) ودخل غرفته وأغلق الباب خلفه..

توجه الأب للطاولة ورفع القلادة الفضية ووضعها في جيبه ثم عاد بخطوات بطيئة نحو كرسيِّه وجلس عليه مخرجًا غليونه من جيبه ومن الجيب الآخر علبة التبغ المعدنية وبدأ بحشو الغليون

بإبهامه وبعد ما انتهى أعاد العلبة لجيبه مخرجًا علبة الثقاب مشعلًا رأس الغليون آخذًا بعض الأنفاس المتتابعة، تراقصت معها شعلة متوهجة في رأس الغليون لينفخ بعدها سحابة كبيرة أمامه انقشعت كاشفة عن دخول الأم من الباب والتي وقفت سارحة في زوجها ممسكة الفأس بيدها ثم قالت بهدوء غير مألوف عليها: هل عاد (رازي)؟

(الأب) والغليون يتدلى من فمه: نعم.. إنه في غرفته.

همّت الأم بالتوجه لغرفة ابنها وهي تقول: يجب أن أتحدث معه..

نهض الأب من مكانه وقال: نحن من يجب أن نتحدث.

(الأم) مستمرة بالسير نحو غرفة (رازي): يمكننا التحدث لاحقًا.

(الأب) بنبرة حازمة: ستتحدث الآن!

وقفت الأم مكانها متأملة ملامح زوجها الجادة ثم قالت بعد ما علّقت الفأس على الجدار: حسنًا.. ربما من الأفضل أن أناقش الموضوع معك قبلها كي تعاونني عندما نخبره

(الأب): نخبره بماذا؟

(الأم) وهي تسير نحو الطاولة الخشبية: تعال واجلس..

جلس الاثنان إلى الطاولة وبعد صمت لم يدم طويلًا قالت الأم: هيا تحدث أنا منصتة.

(الأب) مجددًا شعلة غليونه: سأترك لكِ المجال قبلي فحديثي قد يطول.

(الأم): حسنًا.. هناك امرأة تطارد ابننا ويجب أن نحذره منها!

(الأب): ماذا تعنين بـ «تطارده»؟

(الأم): تلاحقه.. تحاول اقتحام حياته عنوة وقد تحدثت معها للتو وهي عاقدة العزم على أخذه منا.. هذه المرأة مختلة ويجب أن نحميه منها!

(الأب) باستغراب شديد: عن ماذا تتحدثين؟ كلامكِ غريب جدًّا!

(الأم): لذلك لم أرغب بالحديث معك.. أريد التحدث مع (رازي) مباشرة فهو يفهمني أكثر منك!

(الأب): لن تتحدثي معه قبل أن أفهم ما يحدث فهو ابني كما هو ابنك.

(الأم): سأخبرك بكل شيء قالته لي تلك المجنونة، لكن حاول أن تفهم كي تساعدني في حماية ابننا منها!

(الأب) واضعًا الغليون في فمه: أنا منصت...

روت الأم لزوجها أنَّ تلك السيدة التي التقت بها في الغابة أخبرتها بأنها ثرية وتملك الكثير من الأعمال في المدينة وقد أتت لقريتهم لأخذ وقت مستقطع من حياتها المزدحمة ولتصفية ذهنها من مسؤولياتها المتراكمة، وكانت منذ وقت طويل تبحث عن شخص «أمين» تستطيع الوثوق به ليعاونها في إدارة تلك الأعمال وقد رأت في (رازي) الصفات التي كانت تبحث عنها لشغل تلك الوظيفة، وأنها سوف توفر له جميع وسائل العيش المريحة وتقدم له كل إمكانياتها لينجح في مهمته.

(الأب) ممسكًا برأس الغليون براحة يده: هل أخبرتِها بأنه لا يحسن القراءة والكتابة بشكل جيد؟

(الأم): نعم.

(الأب): وماذا قالت؟

(الأم): قالت أعرف، وهذا لا يغير من الأمر شيئًا.. سوف تقوم بتعليمه!

(الأب) مسندًا ظهره للكرسي سارحًا أمامه: غريب!

(الأم): ليس غريبًا إذا كان في نيتها أمرٌ آخر.

(الأب): ما معنى هذا الكلام؟

(الأم): هذه المرأة خبيثة وتضمر الشرَّ لابني.

(الأب): ابنك ليس صغيرًا ولا يمكنكِ حمايته للأبد

(الأم): ماذا تقصد؟

(الأب): أقصد لا ضير في رؤية ما يمكن أن تقدمه هذه الغريبة له.

(الأم) ضاربة على سطح الطاولة بكفيها: مستحيل!.. لن أسمح لها بأخذه مني!

(الأب) بهدوء: هو ليس إحدى دجاجاتك كي تمنعيه من الرحيل.. هل تنوين إبقاءه بجانبك للأبد؟

(الأم) تتنفس بثقل وبنبرة مشحونة: لا، ولكن لن يكون رحيله مع هذه الحرباء! سوف أبتاع له منزلًا وأزوِّجه ويبقى هنا في القرية!

(الأب): هذا قراره وليس قرارك.

(الأم) بعصبية: أنت بصفّي أم بصفّها؟!

(الأب) بهدوء: أنا بصفِّ ابني.. لقد وقفت صامتًا لسنوات طويلة وأنتِ تسلبينه كلَّ مقومات الرجولة.. حرمتِه من المدرسة بحجة الخوف عليه.. حرمتِه الاختلاط بأقرانه للسبب نفسه.. ويومًا بعد يومٍ سخرتِه لإشباع عواطفك ومشاعرك متجاهلة مشاعره هو.. هذا الأمر ينتهي اليوم.. ابني أصبح عند مفترق طرق في حياته وهو تائه ولا يجد من يرشده للطريق الصحيح وأنتِ في هذه المرحلة من عمره لن تقوديه إلا لمزيد من الضياع.

وقفت الأم وصرخت فيه غاضبة: لن يأخذ أحد ابني! لا أنت ولا هي ولا غيرها! هل تفهم؟!

يُفتح الباب الرئيس للنُّزل الوحيد في القرية مساءً وتدخل امرأة بدت على ملامحها السعادة والبهجة وخطواتها كانت متناغمة كفرس تخبّ على الرمال وما أن رآها موظف الاستقبال حتى قال مُرحّبًا: أهلًا سيدة (مريم).. كيف كان يومك في قريتنا الجميلة؟

(مريم): كان جميلًا جدًّا! أجمل مما توقعت!

(موظف الاستقبال) مبتسمًا: سعيد لسماع ذلك.

(مريم): لكن سعادتي لم تكتمل بعد.. بقي أمر ما أنتظره بفارغ الصبر.

(موظف الاستقبال): هل هو شيء يمكنني مساعدتكِ فيه؟

(مريم): دعاؤك فقط.

(موظف الاستقبال) باسمًا: أتمنى أن تتحقق كل أمانيك.

(مريم) تبادله الابتسام قائلة: شكرًا.

همّت السيدة بالصعود لغرفتها لكن الموظف استذكر أمرًا ما فاستوقفها قائلًا: عفوًا يا سيدتي نسيت أن أخبرك..

توقفت (مريم) وبوجه متسائل قالت: ماذا؟

(موظف الاستقبال) مخرجًا ورقة من درج الطاولة أمامه وهو يقول: لقد تلقَّيتِ اتصالًا خلال غيابك.

(مريم): ممّن؟

(موظف الاستقبال) وهو يمعن النظر في محتوى الورقة: من السيد (نجيب)..

(مريم) باستغراب: لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.. هل ذكر شيئًا آخر عن فحوى اتصاله؟

(موظف الاستقبال): لا شيء سوى أنّه يريد مقابلتك وسوف يأتي إلى هنا غدًا صباحًا.

(مريم) بخليط من الحيرة والتعجب: هنا؟ حسنًا..

(موظف الاستقبال) باسمًا: يمكنك استقبال ضيوفك في مقهى النزل بالخلف.. إطلالته جميلة وقائمة الطعام شهية.

(مريم) تصعد لغرفتها: ممتنة لذلك..

استيقظت (مريم) باكرًا وأخذت حمامًا دافئًا كما اعتادت كل صباح وبعد خروجها من دورة المياه جلست على طرف السرير تجفف شعرها بمنشفة قطنية بيضاء وخلال ذلك انتبهت لورقة أسفل باب الغرفة فنهضت من مكانها وسارت نحوها وحملتها وقرأت محتواها:

«صباح الخير سيدة مريم.. ضيفك بانتظارك في المقهى»

إدارة النزل..

طوت (مريم) الورقة واضعةً طرفها عند شفتها متفكرة لثوانٍ قبل أن تبدّل ملابسها وتنزل للطابق السفلي حيث كان موظف الاستقبال في استقبالها مرحّبًا كعادته وقال: صباح الخير.. كيف كانت ليلتك؟

(مريم): جميلة كالعادة شكرًا لسؤالك.

(موظف الاستقبال) باسمًا: يسعدنا سماع ذلك.

(مريم): أين الطريق للمقهى الخاص بالنزل؟

(موظف الاستقبال) حانيًا ظهره مشيرًا بكفه لباب بجانب مكتب

الاستقبال: من هنا يا سيدتي.. ضيفك بانتظارك منذ ساعة.

(مريم): منذ ساعة؟ لم لم توقظوني حينها؟

(موظف الاستقبال) منتصبًا: هو طلب منا ذلك فاكتفينا بإبلاغك برسالة خطية كي لا نزعجك.

(مريم) تسير نحو الباب المؤدي للمقهى: حسنًا شكرًا لك.

خرجت (مريم) من بهو النزل الصغير من خلال ذلك الباب الخشبي لترى مجموعة من الطاولات المنتشرة فوق شرفة كبيرة تطلُّ على مروج خضراء امتدت في الأفق ولمحت في أقصى المكان الخالي من الناس رجلًا يجلس إلى إحدى الطاولات مديرًا ظهره لها فسارت إليه حتى استقرت أمامه وقالت: «صباح الخير..»

وقف الرجل الذي كان متقدّمًا في العمر ومد يده باسمًا لمصافحتها قائلًا: السيدة (مريم) على ما أظن

(مريم) وهي تصافحه: نعم.. الأستاذ (نجيب)؟

(نجيب) ممازحًا: (نجيب) فقط بدون أستاذ.

(مريم): تشرفنا يا (نجيب)..

(نجيب): وأنا كذلك يا (مريم).

(مريم) تجلس على الكرسي أمامه: تفضل.. ما الأمر الذي ترغب في الحديث به معي؟

(نجيب) عائدًا لمقعده: في الحقيقة الموضوع يخصّكِ أكثر مما يخصني.

(مريم): أنا لا أعرفك كي يكون بيننا موضوعات تخصّك أو تخصّني.

أخرج (نجيب) غليونًا من جيبه ورفعه أمامها قائلًا: هل تمانعين لو دخنت؟

(مريم): لا أبدًا تفضل

أشعل (نجيب) عود ثقاب وقبل أن يقرِّبه من رأس غليونه قال: ما حقيقة نواياك تجاه (رازي)؟

(مريم) باستنكار: (رازي) من؟

(نجيب) مشعلًا غليونه آخذًا بعض الأنفاس منه: أنت حتى لا تعرفين اسمه.. شيء مثير للاهتمام

(مريم): أرجوك يا سيد (نجيب) تحدث بوضوح.. (رازي) من هذا الذي تسألني عنه؟

أخرج (نجيب) القلادة الفضية من جيبه ووضعها على سطح الطاولة أمامها قائلًا: ابني.. الفتى الذي أخبرتني أمه بأنّكِ تريدينه أن يعمل عندك في المدينة.

تغيرت ملامح (مريم) وقبل أن تجيب قاطعهما النادل قائلًا: مرحبًا بكما في مقهانا المتواضع.. هل ترغبان في تناول شيء؟

(نجيب): قهوة سوداء بلا سكر..

(النادل) لـ(مريم) السارحة في (نجيب): وأنتِ يا سيدتي؟

(مريم) وسرحانها ينقطع: ماذا؟

(النادل) مبتسمًا: هل ترغبين بتناول شيء؟

(مريم): بعض الشاي محلّى بالعسل إذا أمكن..

(النادل) حانيًا رأسه: بالطبع

رحل النادل تاركًا السيدة المشوشة التي لم تستطع نطق كلمة وبدا عليها الارتباك فبادرها (نجيب) قائلاً: لا تقلقي أنا لست هنا لأوبخكِ مثل زوجتي.. أفترض أنها لم تكن مسرورة مما سمعته منك.. أليس كذلك؟

هزت (مريم) رأسها بالموافقة..

(نجيب): وهذا سبب قدومي اليوم.. أريد أن أصل معكِ لاتفاق.

(مريم): اتفاق؟ اتفاق من أي نوع؟

(نجيب): مما سمعته من زوجتي ورأيته الآن أدركت أنكِ امرأة تسعين للحصول على ما تريدين بأي وسيلة ولا يردعك شيء بسهولة، وأنا لا أريد أن يتحول الأمر لصراع يكون ضحيته ابني الوحيد..

(مريم): أنا لا أملك أي نوايا سيئة تجاه ابنك.. أنا فقط أريد..

(نجيب): تريدين ماذا؟

(مريم) منزلة رأسها: لا يوجد طريقة أخبرك بها عن حقيقة ما في قلبي دون أن تفهمني بشكل خاطئ.

(نجيب): ما أريد التيقن منه هو أنَّكِ لا تريدين إلحاق الأذى به.

(مريم) بخليط من الحماس والانفعال: لا أبدًا مستحيل!

(نجيب): ماذا إذًا؟ ابني شاب ريفي بسيط لا يعرف شيئًا في هذه الدنيا سوى حياته البسيطة في القرية ولا يملك أي مقومات تؤهله

لأن يكون ملائمًا للعمل الذي تعرضينه عليه هل تعرفين أنه لا يجيد القراءة والكتابة بشكل جيد؟

(مريم): نعم أعرف.

(نجيب): وهذا مصدر كافٍ لقلقي.. ماذا تريد امرأة ميسورة وجميلة مثلك من شاب مثله؟

(مريم) ناظرة بكل ثبات وثقة في عينَيْ (نجيب): أريد أن أتزوجه..

قوطع حديثهما مرة أخرى عندما وضع النادل كوب القهوة أمام (نجيب) قائلًا: تفضل يا سيدي.. قهوة سوداء بدون سكر.

استمر (نجيب) بتدخين غليونه بصمت ممعنًا النظر بعيني (مريم) المرتجفتين والمحدقتين به..

وضع النادل كوب الشاي أمام السيدة وقال: وهذا هو الشاي المحلّى بالعسل.. هل يمكن أن أخدمكما بشيء آخر؟

لم تجب (مريم) التي كانت لا تزال تحدق في (نجيب) وكأنها تنتظر إجابته والذي بدوره قال للنادل: شكرًا.. سنكتفي بهذا.

(النادل) مبتسمًا بعد ما حنى رأسه: استمتعا..

حمل (نجيب) الكوب وأخذ رشفة من قهوته ثم أعاد الكوب لمكانه وأخرج عود ثقاب وجدد شعلة غليونه مديرًا نظره للمروج الخضراء في الأفق على جانبه وقال: المنظر جميل أليس كذلك؟

(مريم) واضعة كفَّيها حول كأس الشاي الساخن دون أن تحمله لكنّها اكتفت بالنظر لمحتواه: بلى..

(نجيب) وهو لايزال سارحًا في الأفق: أنا مقدرٌ لصراحتك وهذا دليل على أنكِ لا تضمرين شرًّا لابني لكني أحتاج سببًا مقنعًا لطلبك.. لمَ هو بالذات؟ ما الذي ترينه فيه كي يقع اختيارك عليه؟

(مريم): من الغريب أن تكون أنت من بين الناس من يسأل هذا السؤال! هل حقًّا لا ترى جماله؟ أنا لا أتحدث عن جمال الشكل أو القوام.. (رازي) يملك طهرًا لم أر له مثيلًا من قبل.. نقاءً أفتقده في حياتي.. خلال وجودي معه لساعات محدودة أدخل في قلبي سعادة كنت قد نسيت شكلها وطعمها.. مشاعر لم تداعبني منذ صغري.. منذ أن كنت طفلة لا تفقه شيئًا من سواد الحياة.. سواد أحلك من تلك القهوة التي تحتسيها.. قد أكون مندفعة أو متسرعة في قراري نعم لكني لا أملك وقتًا إضافيًّا أضيّعه من عمري المتناقص.. إن

كنت تعلمت شيئًا من حياتي فهو أن السعادة لا تطرق أبواب المنتظرين بل نحن من يجب أن نقتحم أسوارها ونمسكها بأيدينا ونأخذها عنوة.

(نجيب) محتسيًا القهوة: و(رازي) هو تلك السعادة التي تريدين أخذها عنوة؟

(مريم): لن يكون ذلك بلا مقابل.

(نجيب): ابني ليس للبيع يا سيدة (مريم).

(مريم): المقابل الذي سأقدِّمه ليس لك ولا لأمه ولن يكون مالًا، فـ (رازي) ليس سلعة لأشتريها وإلا لمَ كنا نجلس نتحدث الآن؟

(نجيب) يطرق رأس غليونه على سطح الطاولة مفرِّغًا محتواه من الرماد والتبغ المحروق: ماذا يكون إذاً إن لم يكن سلعة للبيع؟

(مريم): هبة.. هبة أريدك أن تهبها لي وأعدك بأنّي سأقدِّم له كل شيء، بما فيه قلبي وروحي..

(نجيب) واضعًا غليونه في جيبه: أنا موافق..

(مريم) ووجهها يتفجر سعادة وبهجة: حقًّا؟!



(نجيب): لكن بشروطي وطريقتي أنا.

(مريم) والحماس طاغٍ عليها: اطلب ما تشاء يمكنني أن..

(نجيب) مقاطعًا: أنصتي فقط لما سأقول..

وضعت (مريم) كفّها على فمها الباسم وهزت رأسها بالموافقة..

(نجيب): سوف يسافر (رازي) معكِ للمدينة.. ليس كزوج بل كموظَّف عندك وستوفّرين له الإمكانيات ليكمل تعليمه الذي لم يبدأ من الأساس بسبب أمه.

(مريم) وملامح الفرح تذوب من على محياها: لكن..

(نجيب): دعيني أكمل..

(مريم): حاضر.. تفضل

(نجيب): علاقتك معه ستكون في حدود العمل فقط ولن تعبري له عن حبّك أبدًا قبل أن يفعل هو ذلك لو أراد، وزواجك به كذلك مرهون فقط بأمر واحد وهو أن يبادر هو بطلب الزّواج منكِ وليس العكس.. هل كلامي واضح يا سيدة (مريم)؟

(مريم): أنت تطلب المستحيل.. أنا واقعة في حبّه منذ أن وقعت عيني عليه فكيف تطلب مني ألا أخبره بذلك؟

(نجيب): هذا هو شرطي لقبول رحيله معكِ.. لا تظنّي أن فراقه سيكون سهلًا علينا وخصوصًا أمه، لكنّي أريد أن أمنحه فرصة تجربة حياة جديدة ولا أريد أن تقدمي سعادتك على حساب خوضه هذه التجربة.. لو اختار هو أن تكوني شريكة له في تلك الحياة فهذا قراره لكن لا يحقُّ لكِ أن تفرضي نفسك عليه.. هل نحن متفقان يا سيدة (مريم)؟

لم تستطع (مريم) منع دموعها الصامتة من الانهيار لكنها ومع ذلك أومأت برأسها بالموافقة..

(نجيب): جيد..

(مريم) ماسحة دموعها بظهر يدها وبصوت متحشرج من الحزن: وماذا عن أمه؟

(نجيب): اتركي هذا الأمر لي.. متى تنوين الرحيل للمدينة؟

(مريم): بعد حديثك هذا؟ بأسرع وقت ممكن.. الآن لو استطعت!

(نجيب): أحتاج بقية اليوم على الأقل لتهيئة كل شيء.

(مريم) وهي لا تزال تمسح دموعها التي لا تتوقف: حسنًا.. غدًا صباحًا سأكون عند محطة القطار وستكون تذكرة (رازي) معي.

(نجيب) يهم بالنهوض: وأنا وابني سنكون هناك في الموعد.. تشرفت بالحديث معك يا سيدة (مريم).

(مريم): هل لي بسؤال قبل أن ترحل؟

(نجيب) وهو واقف أمامها: بالطبع تفضلي؟

(مريم): لو سألتك ما هو أكثر شيء يسعد (رازي) في هذه الدنيا فبماذا ستجيب؟

(نجيب): لو كنت أعرف الإجابة على هذا السؤال ما أتيت اليوم لمقابلتك.. أتمنى لك يومًا سعيدًا سيدة (مريم).

رحل (نجيب) تاركًا (مريم) تحتضن بكفيها كوبها الذي لم يمَسّ وتحدق بالقلادة الفضية على سطح الطاولة..

عاد لمنزله حيث كانت زوجته تنتظره في الخارج بعد ما بحثت عنه في كل مكان فهي لم تعتد منه الخروج إلا نادرًا جدًّا، وكانت تنتظر منه إخبارها عن سبب خروجه الذي يكون غالبًا لشراء التبغ من السوق أو قضاء حاجة تخصّها هي، لذا كان استقبالها له مشحونًا بالغضب والتساؤل عند دخوله وقالت: أين كنت؟!

(نجيب) باسمًا: هل اشتقتِ لي يا مهجة قلبي؟

(الأم) بتجهم: لن تخدعني ببعض الكلمات.. أجبني.. أين كنت؟!

(نجيب) وهو يدير مقبض الباب ويهم بالدخول للمنزل: في السوق.

(الأم) تدخل خلفه وبنبرة غاضبة: لا أرى معك شيئًا! أخبرني بالحقيقة!

جلس (نجيب) على كرسيه الخشبي وأخرج غليونه وقال متجاهلًا غضب زوجته: أين (رازي)؟

(الأم) وسخطها يتفاقم: دعك منه الآن وأخبرني بالحقيقة!

(نجيب) مشعلًا غليونه: الحقيقة هي أنّي تزوجت عليكِ ومنذ اليوم سوف أقيم يومًا هنا ويومًا في منزل زوجتي الجديدة.

(الأم): حسنًا لا تجب على سؤالي لكني سأعرف الحقيقة بطريقة أو بأخرى

(نجيب) نافخًا سحابة من الدخان: لقد أخبرتكِ بها للتو!

لم تكمل الزوجة حديثها معه وخرجت من المنزل صافعة درفة الباب خلفها تاركة (نجيب) يقهقه ضاحكًا..

فُتح باب غرفة (رازي) ليخرج منها وعلى وجهه علامات التعجب قائلًا: ما الأمر؟ لمَ تصرخ أمي؟ هل هي غاضبة لأني لم أذهب للسوق اليوم؟

(نجيب): لو كانت تريدك أن تذهب لأيقظتك.

(رازي) يسير نحو أبيه بوجه متعب: لقد نمت طويلًا.. لمَ لم توقظني أمي كالعادة؟

(نجيب): لعلها أرادت أن تمنحك بعض الراحة أو تحميك.

(رازي) وهو يجلس على أحد كراسي الطاولة الخشبية الصغير مسندًا كفَّه لخده والكسل في حديثه: تحميني من ماذا؟ أنا لا أخشى بائعة الخضار تلك

(نجيب) مبتسمًا: ماذا عن السيدة ذات الشعر الأسود؟

(رازي) معتدلًا في جلسته وبنبرة متوترة: هل جاءت إلى هنا تبحث عني؟! هل هذا سبب صراخ أمي؟

(نجيب): لا.. أنا من ذهب إليها.

(رازي): ذهبت إليها؟! هل تسببت بمشكلة؟!

(نجيب): اسمع يا بني.. سوف أشرح لك كل شيء وما سأقوله سيبقى خيارًا وليس إجبارًا لكن لو اخترت الموافقة فيجب أن يكون ذلك بملء إرادتك دون أن تفكر برأيي أنا أو رأي أمك.

(رازي): ما الأمر يا أبي لقد أقلقتني..

حكى (نجيب) تفاصيل رغبة السيدة (مريم) في أخذه معها للمدينة ليعمل عندها ولكنه أخفى عليه تفاصيل إعجابها به ورغبتها بالزواج منه وصوَّر الأمر له على أنه فرصة تستحق التجربة، كان (رازي) متخوفًا من نواياها لكنَّ أباه طمأنه بأنها لا تضمر له أي شر وقد خانها تعبيرها خلال حديثها معه أول مرة والحقيقة هي أنها تبحث عن شخص أمين تستطيع الوثوق به، رغم ذلك ظلَّ (رازي) مترددًا في قبول ذلك العرض وقال: «ماذا عن أمي؟»

(نجيب): ما بها؟

(رازي): هل هي موافقة؟

(نجيب): أخبرتك بأن القرار لك وليس لنا!

(رازي): لا أظنها ستسمح لي بالرحيل.

(نجيب): ماذا لو أخبرتك بأنها موافقة؟ هل سيغير ذلك من رأيك؟

(رازي): رأيك يهمني أيضًا.

(نجيب): تحلَّ بالشجاعة وخذ القرار بنفسك أيًا كان يا بني.

(رازي): لا أعرف.. ما الذي سأجنيه لو وافقت؟

(نجيب): وما الذي ستخسره؟

(رازي): فراقكما ليس بالأمر السهل عليّ يا أبي.

(نجيب): ولا علينا، لكن يجب أن تدرك أننا لن نبقى معك للأبد ولا بد أن تشق طريقك في هذه الحياة.. كنت أظن أن تلك هي رغبتك..

(رازي): نعم.. لكن.. قلبي وعقلي يختصمان..

(نجيب): القلب غمامة العقل والعاطفة آفة الحكمة.. تجرد من عواطفك وقدم عقلك

(رازي): لا أستطيع..

(نجيب): سترحل.. سترحل معها يا بني.

(رازي) بتعجب: كنت أظنك تريد مني اتخاذ قراري بنفسي!

(نجيب): بعض الطيور لا تترك العش إلا عندما يدفعهم آباؤهم للخارج عنوة وهذا ما سأفعله.

(رازي): كما تشاء يا أبي.

(نجيب): جهّز نفسك لنتوجه لمحطة القطار صباح الغد.

(رازي): بهذه السرعة؟ أحتاج أن..

(نجيب) مقاطعًا: أنت لا تحتاج شيئًا سوى البدء في حياتك الجديدة.. اجمع ما تريد في حقيبتك واحرص ألا تعرف أمك شيئًا عن مشوارنا هذا.

(رازي): كنت أظن أن أمي تعرف بالأمر.. لقد قلت بأنها موافقة!

(نجيب): لا يوجد أم ترفض سعادة ابنها لكن قلبها سيعميها عن منحك الفرصة لإيجادها.. أمك ستعرف كل شيء بعد تحرك القطار وسوف أتحمل تبعات سخطها حتى تتقبل الأمر.

(رازي): لا أشعر بالارتياح للرحيل بهذه الطريقة.

(نجيب): ليس مطلوبًا منك أن تشعر بالراحة.. أنا لم أقل بأن الأمر سيكون سهلًا لكن هذا لمصلحتك.

لم يجب (رازي) واكتفى بالصمت بوجه حزين..

(نجيب): افرد جناحيك وحلّق ولا تخشَ السقوط أبدًا.

(رازي): سأحاول يا أبي..

(نجيب): ولا أريد منك سوى المحاولة.

قطار العمر

نزل الأب مع ابنه من عربة أقلتهما لمحطة القطار القريبة من القرية والتي يستخدمها معظم أهالي القرى المجاورة للذهاب للمدينة الكبيرة، وبعد أن دفع (نجيب) قيمة مشوارهما مد يده لحمل حقيبة ابنه لكنه سبقه وأمسك بمقبضها قائلًا: «لا تتعب نفسك يا أبي إنها ثقيلة..»

(نجيب): أخشى أن تسقطها كما فعلت اليوم عندما كنا نتسلل خلال نوم أمك.. كدت توقظها بتلك الجلبة التي أحدثتها.

(رازي): كنت متوترًا.. وفي الحقيقة ما زلت.

(نجيب) واضعًا كفه على كتف ابنه: هذا أمر طبيعي لكن لو كنت سأقدم لك نصيحة تتمسك بها في رحلتك هذه فهي ألّا تفعل شيئًا رغمًا عنك أبدًا مهما كانت الضغوط.. حكّم قلبك وعقلك ولا تنطق بشيء قبل أن تردده برأسك.. هل تفهمني يا بني؟

(رازي) يهز رأسه بالموافقة وهو قابض بيديه على حقيبته الثقيلة:

أمرك يا أبي.

(نجيب) مبتسمًا: هيا بنا إذًا كي لا يفوتك القطار.

دخلا بعدها المحطة المزدحمة بالمسافرين وتوقفا في منتصف ذلك الزحام لدقائق قبل أن يلمح (نجيب) السيدة (مريم) تجلس عند إحدى منصات الانتظار الخاصة بالسكة (٤) فقال لابنه وهو يشير إليها بسبّابته: ربة عملك هناك بانتظارك.

وجه (رازي) نظره حيث أشار أبوه وشاهد (مريم) تجلس وأمامها حقيبة صغيرة وهي تلبس فستانًا أبيض طويلًا وعلى رأسها قبعة قش كبيرة والهواء يداعب شعر غرتها برفق. بلع ريقه ووقف متسمرًا إلى أن وكزه أبوه بكوعه وقال: هيا ما بك؟ تحرك!

مشى الاثنان حتى وصلا حيث جلست السيدة التي ما أن رأتهما حتى أمسكت بطرف قبعتها ووقفت باسمة وقالت للأب وعينها على (رازي): أهلًا سيد (نجيب).

(نجيب) مشيرًا لابنه الذي وضع حقيبته الثقيلة أرضًا: ابني جاهز.



(مريم): ممتنة.. لن تندم على قرارك.

(نجيب): لم يكن قراري أنا.. لقد أتى بملء إرادته.. أليس كذلك يا (رازي)؟

(رازي) بنبرة متقطعة بسبب تحديق السيدة به: نــ.. نعم يا أبي..

(نجيب): انتهى دوري الآن.. أتمنى لكما رحلة سعيدة.

(رازي) بقلق: إلى أين يا أبي؟

(نجيب): سأرحل بالطبع..

(رازي): انتظر قليلًا حتى يصل القطار..

(نجيب) ممازحًا: يجب أن أعود قبل أن تفقد أمك عقلها فهي الآن بلا شك قد استيقظت ومستشيطة غضبًا لعدم وجودنا في المنزل.

أنزل (رازي) رأسه وقد بدا عليه الحزن الشديد..

أمسك (نجيب) بيده وقال للسيدة: سوف أستعيره منكِ لبضع دقائق فقط.

(مريم) باسمة: خذ كل الوقت الذي تحتاجه.

سحب الأب ابنه من معصمه وسار به لمسافة بعيدة عن مسامع السيدة ثم قال له: أريد أن أخبرك بشيء أخير.



(رازي) وهو يحاول حبس دموعه: ما هو يا أبي؟

وضع (نجيب) ذراعه حول رقبة ابنه وقربه منه وعانقه عناقًا طويلًا وقبل أن يفك ذلك العناق قال: فقط بأني أحبك..

شد (رازي) من عناق أبيه ولم يستطع حبس دموعه أكثر لتنهمر على كتفه..

أنهى الاثنان ذلك العناق الطويل وكلاهما غارق في دموعه والسيدة تراقبهما من بعيد لكنها لا تستطيع سماع الحوار الذي يدور بينهما..

(رازي) ماسحًا دموعه باسمًا: لا أذكر آخر مرة أخبرتني بأنك تحبني!

(نجيب) وغصّة في حلقه: هذا لأني لم أقلها لك من قبل لكن عنيتها كلَّ يوم.. سوف نفتقدك كثيرًا لكن لن نجعل حبنا لك يكون عائقًا أمامك لتصبح رجلًا أفضل نفتخر به.. ارحل وعد لي رجلًا أباهي به الناس.. ثق بنفسك بالقدر الذي يدفعك للتحرك والتقدم إلى الأمام لكن لا تبالغ بتلك الثقة للدرجة التي تعمي بصيرتك عن الاصطدام بجدار الواقع.. هذه هي النصيحة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها لك..

(نجيب): لن أخذلك.. أعدك بذلك.

(نجيب) يربت على كتف ابنه باسمًا من وراء دموعه: هيا.. لا تترك سيدتك تنتظر وحدها.

بدأ (رازي) بالسير نحو (مريم) الجالسة والتي نظرت للأب الحزين ووضعت كفها على صدرها في إشارة منها بأنها ستعتني بابنه.

حنى (نجيب) رأسه لها ثم رحل ولم يلتفت خلفه..

وصل (رازي) عند المقاعد التي جلست عليها (مريم) ولم يجلس بجانبها بل بقي واقفًا عند حقيبته واضعًا كفّيه على بطنه سارحًا يتأمل الناس السائرين..

(مريم): ما بك؟

(رازي) وسرحانه ينقطع: لا شيء.. أنتظر القطار.

(مريم) تربت على المقعد الخالي بجانبها: اجلس.. قطارنا لم يصل بعد.

(رازي): أخشى ألّا نراه عندما يصل.

(مريم) ضاحكة: هل ركبت قطارًا من قبل؟



(رازي) بتحرج: في الحقيقة لا.. لكني أشاهده دومًا عندما يعبر بجوار القرية.

(مريم) باسمة: توقعت ذلك.. لا تقلق سوف نراه حال وصوله.. اجلس الآن.

جلس (رازي) بجانبها وضم ركبتيه بيديه وبقي يحدّق بالسكة الحديدية أمامه صامتًا لكن وجهه حكى الكثير من خلال الحزن الذي تجلى في عينه بالرغم من أنه كان يتصنع الابتسام..

(مريم): هل أنت سعيد أم حزين؟

(رازي) دون أن يحيد بنظره عن السكة الحديدية: لا هذا ولا ذاك..

(مريم): صف لي شعورك الآن.

(رازي): شعور جديد لم أجربه من قبل لذا لا أستطيع أن أصفه

(مريم): ابتداءً من اليوم ستجرب أشياء جديدة كثيرة.

(رازي) ملتفتًا إليها: وهل جميعها تؤلم القلب هكذا؟

(مريم): لا.. سأحرص أن يكون معظمها عكس ذلك تمامًا.

(رازي) معيدًا نظره أمامه: أبي أخبرني بأنه يحبني قبل أن يرحل..



(مريم) باسمة: شيء جميل

(رازي): بل غريب

(مريم) بتعجب: غريب.. لمَ تقول ذلك؟

(رازي) وهو يأخذ نفسًا عميقًا ويزفره ببطء: أمي بالرغم من معاملتها الصارمة لي إلا أنها لم تفوت يومًا دون أن تقولها لي بشكل أو آخر ولا أذكر أني قلتها لها سوى مرات معدودة طيلة حياتي مع أني أحبها حبًّا جمًّا.

(مريم): لم أفهم قصدك

(رازي): أعتقد أن الرجال لا يعبرون عن حبهم بسهولة حتى وإن كانت قلوبهم تفيض به، وأن الأمر يتطلب الكثير كي ينطقوا بتلك الكلمة، وقد لا ينطقون بها أبدًا مهما كانت مشاعرهم مثل ما حدث مع أبي قبل قليل.

(مريم): تقصد كلمة «أحبك»؟

(رازي): نعم..

أنزلت السيدة رأسها وتعابير وجهها مشبعة بالحزن والخيبة..

صمت الاثنان لعدة دقائق بادر بعدها (رازي) بالحديث وقال: هل تحبين ركوب القطار؟

(مريم): لِمَ تسأل؟

(رازي) يهز كتفيه وعيناه على السكة: لا أعرف.. مجرد سؤال خطر ببالي.

(مريم) تشاركه النظر للسكة الحديدية: أنا أعشق ركوب القطار.. منذ صغري وأنا متيّمة به.. أجمل ذكرياتي مع أبي كانت عليه..

(رازي): وأي منها كان الأجمل؟

(مريم) باسمة مستذكرة خلال سرحانها: عندما أخبرني مرة بأني سوف ألتقي بفارس أحلامي على القطار لكثرة حبّي له..

(رازي) بعفوية: الفرسان يركبون الخيول لا القطارات.. أليس كذلك؟

(مريم) منزلة رأسها: ربّما..

(رازي): هل تظنين أني مخطئ؟

(مريم) بعينين راجفتين محدّثة نفسها: أتمنى ذلك..



صوت نفير بوق قوي يصدح في الأفق..

(رازي) بارتباك: صوت مرعب.. لم أتوقع أن صوته مخيفٌ هكذا عن قرب!

(مريم) موجهة نظرها يمينها: أعتقد أنه قطارنا.

بدأ (رازي) ينفخ بعض الهواء من فمه بشكل سريع ومتتابع.

(مريم) باستغراب: ما بك؟

ظهر القطار في الأفق صاحبه صوت نفير بوقه الذي ازداد قوة مع اقترابه..

أخذ الناس بالتجمهر عند المنصات المعدّة للصعود و(رازي) مستمر بمراقبة القطار المقترب وينفخ عدة نفخات متتابعة..

(مريم) مبتسمة: هل أنت متوتر؟

هزّ (رازي) رأسه بالموافقة وهو مستمر بالتحديق والنفخ..

(مريم) تحمل حقيبتها وبنبرة مطمئنة: لا تقلق! الرحلة بالقطار ممتعة جدًّا.

وقف (رازي) ورفع حقيبته الثقيلة وقال: ماذا عليّ أن أفعل؟

(مريم) ضاحكة: لا شيء فقط ابق بجانبي!

اقترب (رازي) منها حاملًا حقيبته الثقيلة وعيناه لا تزالان مركّزتين على القطار الذي وصل لذا لم يشعر بنفسه عندما ارتطم كتفه بكتفها وبقي ملتصقًا بها وتعابير وجهه تتفجر رهبة وحماسًا وهو يراقب الناس يتناوبون للصعود. همّت (مريم) بالتقدم بعد ما صعد معظم الناس وقبل أن تتحرك مد (رازي) يده وقال: ناوليني حقيبتك.

(مريم): لا بأس، يمكنني حملها ثم إن حقيبتك تبدو ثقيلة ولا أريد أن أثقل عليك أكثر.

(رازي) ممسكًا بمقبض حقيبتها من قبضتها باسمًا: لا عليك هذا واجبي.

تبسمت (مريم) ولم تمانع..

صعد الاثنان على متن إحدى العربات المكتظّة بالناس، وسارت السيدة بينهم و(رازي) من خلفها يلتفت يمينًا ويسارًا يتفحص وجوه الركاب من نساء وأطفال ورجال وشيئًا فشيئًا تحول توتره لراحة وحماس. استأنفت (مريم) سيرها للعربة الثانية ثم الثالثة

وبالرغم من أنهما مرّا بعدة مقاعد خالية إلا أنها لم تتوقف مما دفع (رازي) لسؤالها: لمَ لم نجلس حتى الآن؟

(مريم) مستمرة بالسير: لأن مقاعدنا ليست هنا.

(رازي): أين إذًا؟

بعد دخولهما العربة الرابعة تغير شكل المكان ليصبح ممرًّا توزعت فيه ثلاثة أبواب على اليسار وكأنها غرف صغيرة فتوقفت السيدة عند أحدها وقالت: هذا هو مكاننا.

(رازي) متفحصًا الباب: ما هذا؟

(مريم) وهي تفتح الباب: عربة الدرجة الأولى.

دخل (رازي) لغرفة تكونت من مقعدين يمنة ويسرة يكفي كل منهما لجلوس ثلاثة أشخاص وباب صغير آخر على الجانب فقال: هل سيشاركنا أحد هذه الغرفة؟

دخلت (مريم) وفتحت الباب الصغير باسمة: لا.. فقط نحن.. يمكنك وضع الحقيبتين هنا.

وضع (رازي) الحقيبتين في المكان المخصص وأغلق الباب الصغير

وجلس على أحد المقاعد الكبيرة وقال ونظره يجول حول الغرفة: لم لم نجلس مع بقية الناس؟

(مريم) تجلس أمامه قائلة: ألم تعجبك الغرفة؟

(رازي): بلى.. لكنني أشعر بأن المقاعد التي تجاوزناها أجمل.

(مريم): لكن هذه غرفة خاصة!

(رازي) ناهضًا ومطلًّا من النافذة الكبيرة: لكنها مغلقة كالسجن.. المقاعد الأخرى مفتوحة ويمكنك رؤية الناس.

(مريم): هل تريد منا الانتقال إلى هناك؟

(رازي) ملتفتًا إليها: هل يمكننا ذلك؟!

(مريم) مبتسمة: يمكننا القيام بأي شيء تريده.

(رازي) وبحماس شديد: ماذا ننتظر إذًا؟!.. هيا بنا!

أمسك الفتى المتحمس بمعصمها وشدها وأنهضها من مكانها بسرعة أوقعت قبعتها القشية على الأرض وخرج من الغرفة جريًا إلى أن وصلا للمقاعد المخصصة للدرجة الثانية، لكن وبعد سير مستمر تجاوزا فيه جميع العربات تبين لهما أنّ كلَّ المقاعد قد امتلأت

بالكامل ما عدا واحدًا في نهاية العربة الثانية، ولم يكن لذلك المقعد مقعدٌ مجاورٌ له لأنه وضع في منطقة ضيقة عند مخرج العربة فأشار (رازي) لها وقال: هناك!

(مريم): لكن لا يوجد سوى مقعد واحد فقط

(رازي) يشدها من ذراعها سائرًا نحو المقعد: لا بأس سوف نتدبر الأمر..

عند وصولهما للمقعد الوحيد وضع (رازي) يده على كتف (مريم) وأجلسها ووقف بجانبها مبتسمًا.

(مريم): هل ستقف هكذا طيلة الرحلة؟

(رازي) باسمًا: نعم.

تبسمت السيدة ولم تعارض الفتى المتحمس ولم تحاول إفساد سعادته..

أطلق القطار نفير بوقه معلنًا تحركه، وما أن تحرك حتى اختل توازن (رازي) قليلًا مما دفعه للبحث عن شيء يتشبث به لكن ذلك لم يزده إلا تشتتًا ليتعثر ويقع أمام (مريم) التي ضحكت وقالت: هل أنت بخير؟



نعم نعم..

(رازي) ينهض باسمًا: نعم نعم..

تسارع القطار مبتعدًا عن المحطة ليشق طريقه عبر المسطّحات الخضراء الشاسعة التي تحولت تدريجيًا لسلسلة من الجبال في الأفق البعيد بسطت أمامها حقول من الزهور وبعض قطعان المواشي التي ترعى في سروحها، دفع ذلك المنظر (رازي) لأن يدنو برأسه من النافذة المجاورة للمقعد الذي جلست عليه (مريم) ويطل منها يتأمل ذلك المنظر الخلاب بوجه منبهر، تحول ذلك الانبهار لابتسامة عريضة بعد ما مر القطار بمجموعة من أشجار التفاح القريبة من السكة والتي شكّلت مشهدًا فريدًا بسبب عبورها الخاطف من أمام النافذة. لم يكن أحد من الركاب منبهرًا مثله فمعظمهم إما منشغلٌ بالحديث مع من كان بجانبه أو يتناول الطعام أو يحاول النوم بعكس (رازي) الذي بدا عليه أنه مسحورٌ تمامًا.

(رازي) وعيناه تتلألأن من تلك المشاهد: أشعر وكأني في حلم جميل!

بقيت (مريم) تتأمل جانب وجهه القريب منها وملامحه المنبهرة



بسعادة غامرة لسعادته ولم تقاطع انتشاءه بتلك التجربة بل أحست

بأنها تشاركه إياها من خلال تعابيره.

دخل رجل بلباسٍ رسمي من الباب المجاور لهما وقال: التذاكر لو

سمحتما.

(رازي) وتركيزه ينقطع: أي تذاكر؟

تبسمت (مريم) ومدت يدها في حقيبتها الصغيرة وقالت: لا تشغل

بالك أكمل مراقبتك من النافذة

أخرجت السيدة تذكرتين ومدتهما لمسؤول التذاكر الذي نظر إليهما

وقال: هذه تذاكر لقسم الدرجة الأولى

(مريم): نعم نعرف لكننا نفضل البقاء هنا.

(مسؤول التذاكر) باستغراب: لماذا؟

(رازي) ضاحكًا وهو يراقب أشجار التفاح العابرة: لأن المكان هنا

أجمل!

(مسؤول التذاكر) معيدًا التذاكر لـ (مريم) بوجه متعجب: كما

تشاءان..



رحل المسؤول وأكمل طريقه عبر العربة وهو يردد: تذاكر! تذاكر!

وضع (رازي) كفه على طرف أحد المقاعد وقد بدا عليه الإرهاق وكأنه أصيب بنوبة من الدوار. نهضت (مريم) من مكانها بسرعة وأمسكت به وقالت بقلق شديد: ما بك؟ هل تشعر بالتعب؟

(رازي) بنبرة متعبة جدًّا: لا لا أنا بخير..

(مريم): هذا ليس ما أراه أمامي.. هل تناولت إفطارك اليوم؟

(رازي): لا.. كان لزامًا أن نخرج مبكرًا من المنزل قبل أن..

توقف الفتى عن الكلام وكأنه تذكر أمرًا ما..

(مريم): قبل ماذا؟

(رازي): ماذا؟ نعم.. قبل أن يرحل القطار.. نعم..

(مريم): ومتى نمت بالأمس؟

(رازي): في الحقيقة لم أنم ساعة واحدة.. بقيت طيلة الليل أفكر.

(مريم): تفكر بماذا؟

(رازي) ومظاهر التعب تتفاقم على محياه: في كل شيء..



وضعت (مريم) كفيها على كتفيه وقادته لمقعدها وهي تقول: حسنًا.. تعال اجلس قليلًا..

(رازي) ممانعًا: لا.. أنا مكتفٍ بالوقوف يا سيدة (مريم)

(مريم) تجبره على الجلوس: اسمع الكلام ولا تجادل!

جلس (رازي) وأسندت (مريم) ظهرها للجدار المقابل وعقدت ذراعيها تراقبه وهو يستعيد عافيته تدريجيًا ثم قالت: هل أنت أفضل الآن؟

(رازي) مديرًا نظره للنافذة: نعم على ما أظن..

(مريم) تشاركه النظر: الحمد لله.

بعد صمت طويل قضياه في تأمل الطبيعة الخلابة المتسارعة أمامهما قالت (مريم) بعد ما لاحظت أن (رازي) بدأ ينعس: لدي اقتراح.. ما رأيك أن نذهب للغرفة الخاصة لنرتاح قليلًا ثم نعود لاحقًا؟

(رازي): هل هذه رغبتك؟

(مريم) باسمة: نعم هذه رغبتي.

(رازي) ناهضًا من مكانه بأعين ناعسة: حسنًا هيا بنا..



وقف (رازي) بسرعة وقد تمكن منه النعاس وسار بخطوات تخللها القليل من الترنح و(مريم) من خلفه تـ اقبه بحذر خشية أن يقع، لدرجة أنّ بعض الركاب ظنوا أنه مخمور وقد بدا ذلك من خلال نظراتهم له، انتبهت (مريم) لذلك مما دفعها لأن ترفع ساعده وتضعه حول رقبتها وتعاونه في السير حتى وصلا لعربة الدرجة الأولى. فتحت (مريم) الباب ودخلت مع (رازي) وأجلسته على المقعد الأيمن ثم قالت وهي تشير للمقعد الأيسر: انظر سأريك شيئًا

سحبت (مريم) ظهر المقعد الطويل ليتحول لسرير صغير..

(رازي) وهو منبهر: شيء عجيب.. كيف فعلتِ ذلك؟!

(مريم) تربت على المرتبة: استلقِ قليلًا وجرب نعومتها..

نهض (رازي) من مكانه سريعًا وقفز فوق السرير الصغير وقال: إنه مريح!

(مريم): هل أنت جائع؟

(رازي) ماسحًا بطنه بيده: قليلًا..



(مريم) باسمة: استرح قليلًا بينما أذهب لأحضر لك شيئًا تأكله.

(رازي): هل يوجد طعام في القطار؟

(مريم) تهم بالخروج: بالطبع.. هناك مكان مخصص لبيع الشطائر في العربة الأخيرة.. سوف ابتاع لكلينا بعضها وسأعود فورًا.

(رازي) مستلقيًا واضعًا كفيه خلف رأسه ناظرًا للسقف: سأكون بانتظارك.

بعد برهة من الزمن عادت (مريم) حاملة معها شطيرتين ودخلت الغرفة الصغيرة لتجد (رازي) غارقًا في النوم فوضعتهما على مقعدها ودنت منه وهزت كتفه برفق قائلة: (رازي).. انهض لقد أحضرت لك الطعام..

(رازي) مديرًا ظهره لها متمتمًا في نومه: ابتعدي يا أم قنزعة!

تبسمت السيدة ولم تحاول إيقاظه واكتفت بسحب اللحاف الذي وقع أرضًا وغطته ماسحةً على جبينه برفق قبل أن تخلد هي أيضًا للنوم. مضت ساعات غطّ فيها (رازي) بنوم عميق ولم يفتح عينيه إلا على صوت نفير بوق القطار لينهض بسرعة من مضجعه قائلًا:

ما الذي يحدث؟!

(مريم) وهي تربط شعرها الأسود الطويل وتضع قبعتها القشية فوق رأسها: مساء الخير.. لقد وصلنا.

(رازي) يفرك عينه بقبضته متثائبًا: وصلنا إلى أين؟

(مريم) تسير نحو الباب الصغير حيث كانت حقيبتاهما وتفتحه: للمدينة.. المدينة التي أعيش فيها.. ستعجبك كثيرًا.. هيا انهض!

(رازي) مطلًّا بعينين ناعستين من النافذة على سور حديدي من خلفه منظر ليلي كئيب: حاضر يا سيدة (مريم).

(مريم) وهي تشد الحقيبة الأولى من الرف: نادني (مريم) فقط يا (رازي)..

(رازي) يقف ويسير نحوها على عجالة آخذًا الحقيبة منها: لماذا؟

(مريم) تراقبه يخرج الحقيبة الأخرى: بدون سبب.. فقط هكذا..

(رازي) رافعًا الحقيبتين من مقبضيهما: أفضل أن أناديك بسيدة (مريم) إذا لم يكن لديك مانع.

(مريم) بتحرج: لا أبدًا كما تشاء.. هيا لنتوجه للمخرج.

نزل الاثنان من القطار لمحطة أكبر بكثير من تلك التي أتيا منها مما



دفع (رازي) لفتح فمه مدهوشًا وهو يرى أعدادًا كبيرةً جدًا من الناس في تلك المحطة وقال: مدينتك كبيرة.. الناس هنا أكثر بكثير من الذين يعيشون في قريتي!

وضعت (مريم) يدها فوق فمها مُخفيةً ضحكة صغيرة باغتتها ثم قالت: هيا لنتوجه لمخرج المحطة.. هناك من ينتظرنا.

(رازي) يشد قبضتيه على الحقيبتين ويلحق بها: من ينتظرنا؟

(مريم) سائرة بين أفواج الناس: من سيقلّوننا بالسيارة لمنزلي.

(رازي): هل سأقيم معكِ؟

(مريم): نعم.. هل تمانع هذا أيضًا؟

(رازي): لا أعرف.. قد لا يكون من اللائق أن أضايقك بهذا الشكل وقد لا أكون ضيفًا خفيفًا خاصة وأن منزلكِ في الغالب غير معدّ لاستقبال الضيوف.

(مريم) باسمة: لا تقلق، أنا واثقة من أننا سنجد لك مكانًا مناسبًا في منزلي الصغير

بعد خروجهما من بوابة المحطة وقفت (مريم) تبحث بنظرها لثوانٍ حتى رأت مجموعة من الناس مقبلين عليها مهرولين بعد ما لمحوها فقالت لـ (رازي) الذي وضع الحقيبتين أرضًا: هل ركبت سيارة من قبل؟

(رازي): لا؟

تبسمت (مريم) وقالت: سوف تجرب ركوبها الآن..

وصلت المجموعة التي هرولت باتجاهها وكانوا أربعة.. ابن عمها (مالك) ويكبرها بخمس سنوات ومسؤول عن إدارة جميع أملاكها وقد تقدم للزواج منها أكثر من مرة لكنها كانت ترفض طلبه دائمًا. تبعه رجل في منتصف الستين من العمر يدعى (جابر) وهو السائق الخاص للسيدة، وبالرغم من تقدمه في العمر إلا أنها لم تفكر يومًا بالتخلي عنه، متجاهلة محاولات ابن عمها إقناعها بذلك. خلف السائق وقفت امرأة في أواخر الأربعين من العمر تلبس وشاحًا

قطنيًا على رأسها تدعى (صباح) ترافقها ابنتها وهي فتاة في التاسعة عشرة من العمر اسمها (حنين).. المرأة كانت خادمة السيدة الخاصة وابنتها تصاحبها دومًا وتعاونها في خدمة (مريم)، وقد وظفتها مع أمها مع أنها ليست في حاجة إليها لكن ذلك كان لحبها الشديد لـ (صباح) وامتنانها لها. بسط (مالك) ذراعيه وقال بصوت مرحب:

«ابنة عمي! مرحبًا بعودتك!»

(مريم) ببرود: أهلًا يا (مالك).

(جابر) واضعًا قبعته تحت إبطه حانيًا رأسه: حمدًا لله على سلامتك سيدة (مريم)

(مريم) متبسمة له: شكرًا يا (جابر).

(صباح): كيف كانت رحلتك يا سيدتي؟

انحنى (مالك) وأمسك بأطراف أصابع يد (مريم) محاولًا تقبيلها..

(مريم) تسحب يدها من قبضة أنامله وتفتح ذراعيها معانقة (صباح) وبسعادة كبيرة: كانت جميلة جدًا.. كيف حالكِ؟ اشتقت لك كثيرًا!

(صباح) وهي تبادلها العناق: وأنا أكثر يا سيدتي.

(مريم) تفك عناقها وتقرص خد (حنين) ضاحكة: وكيف حال هذه الشقية؟!

(حنين) مبتهجة: بأفضل حال بعد عودتك! لا ترحلي مرة أخرى!

(صباح) ناهرةً ابنتها: لا تتحدثي مع السيدة بهذه الطريقة!

(مريم) مبتسمة: دعيها فمن حق الأصدقاء أن يعاتبوا أصدقاءهم أليس كذلك يا (حنين)؟

(حنين) منزلة رأسها وبنبرة حذرة من سخط أمها: بلى صحيح..

انتصب ظهر (مالك) وشد ربطة عنقه بخليط من التحرج والتجهم لتجاهل (مريم) له ووجه نظره لـ (رازي) وقال: لمَ أنت واقف؟ سوف نأخذ نحن الحقيبتين.. تحرك يا (جابر)!

(جابر) واضعًا قبعته على رأسه سائرًا نحو (رازي): حاضر يا سيد (مالك)!

(مالك) لـ (جابر) وهو يلوّح بيده: ادفع له أجرته ليرحل.

(جابر) مدخلًا يده في جيبه: حاضر.



(مريم) ملتفتة إليهما وموجهة حديثها لابن عمها: ماذا تفعل؟

(مالك): نأخذ حقيبتيك كي نضعهما في سيارتي.

(مريم) متجاهلة (مالك) مرة أخرى وموجهة حديثها لـ (جابر):

ضع الحقيبتين في سيارتي أنا.. في الحال يا (جابر)!

(جابر) حاملًا الحقيبتين: أمرك!

(مالك): لِمَ لا تركبين معي؟.. لقد أتيت خصيصًا كي أقلك بنفسي!

لم ترد عليه (مريم) وسارت نحو (رازي) وأمسكت بيده وقالت:

أعتذر عن تصرفاته.. تجاهله فقط.

(مالك): آها فهمت.. ستدفعين له أنتِ!

(رازي) باستغراب: أي تصرفات؟

تبسمت (مريم) وشدته من يده وقالت: تعال..

سارت السيدة نحو سيارتها الخاصة التي فتح (جابر) بابها الخلفي

لتشير لـ (رازي) بالركوب فقال: لقد رأيت مثلها من قبل في القرية..

(مريم): وستركب واحدة الآن.



ركب (رازي) السيارة وقبل أن تصعد (مريم) بعده ظهر (مالك) من خلفها وقال: ألن تركبي معي؟

(مريم) مديرة نظرها نحوه: ولِمَ أركب معك؟ أليس لديك أعمال تنجزها بدلًا عن التسكع هنا؟

(مالك): لقد أتيت لاستقبالك!

(مريم) بتجهم: وقد استقبلتني! عد لعملك الآن!

(مالك): لكن يا (مريم) أنا..

(مريم) مقاطعة بحزم: السيدة (مريم)!

(مالك) حانيًا رأسه: حاضر يا سيدة (مريم).

(مريم): انصرف الآن وخذ معك (صباح) وابنتها والحق بنا.

(مالك): أمرك!

تحركت السيارتان وتوجّهتا لمنزل السيدة (مريم) الواقع في الطرف الآخر من المدينة في منطقة راقية انتشرت فيها المنازل والقصور الكبيرة وطيلة الطريق كان (رازي) يُطلّ من النافذة يتأمل المباني والمدينة الصاخبة التي مرّوا بها بخليط من الانبهار والرهبة، وأكثر

شيء جذبه هو السوق الذي مرّوا به بداية طريقهم فقد انبهر بحجمه وعدد الدكاكين والمحلات المنتشرة فيه.

(مريم): كيف وجدت المدينة حتى الآن؟

(رازي) مراقبًا أعمدة النور الخاطفة: باردة..

(مريم): نحن في فصل الصيف

(رازي): عنيت روحها وليس جوَّها.

(مريم): ستتأقلم مع الوقت.. هناك أماكن كثيرة أريد أن أزورها معك.

(رازي) ملتفتًا إليها: متى سنصل؟

(مريم) باسمة: لقد اقتربنا

بعد أقل من ساعة من انطلاقهم من محطة القطار أقبل الجميع على بوابة ضخمة فُتحت لهم مباشرة ليدخلوا ساحة خضراء شقّها طريق حجري انتهى بقصر كبير أنارته مجموعة كبيرة من المصابيح الموزعة على جنباته. توقفت السيارة عند مدخل ذلك القصر ونزل (جابر) وفتح الباب للسيدة التي نزلت ممعنة النظر لمنزها من الخارج بينما



هرول السائق ليفتح الباب لـ (رازي) الذي نزل هو الآخر ورفع رأسه محاولًا الإلمام بضخامة المبنى المتصب أمامه. توقفت سيارة مالك بالقرب منهما لتنزل (صباح) وابنتها لتحملا الحقيبتين اللتين أنزلهما (جابر) وتدخلا بهما لداخل القصر. دنا (مالك) واقترب من (مريم) المتأملة في (رازي) وهو يتفحص القصر بنظره وقال: ألن تدخلي؟

(مريم) دون أن تحيد بنظرها عن (رازي): سأدخل بعد رحيلك..

(مالك): فهمت.. أراكِ صباحًا إذًا.. ليلة سعيدة.

(مريم): اجعلها عند الظهيرة.. أريد أن أرتاح من عناء السفر.

عضّ (مالك) على شفتيه وهز رأسه قبل أن يسير عائدًا نحو سيارته: أمرك!

رحل ابن عمها وبعد تجاوزه للبوابة قال (جابر): هل تأمرينني بشيء آخر يا سيدة (مريم)؟

(مريم): لا يا عم (جابر)..

حنى السائق رأسه وركب السيارة وقادها لمقر سكنه الذي يقع



خلف القصر في منطقة خصصت للعاملين ما عدا (صباح) وابنتها وبعض العاملات اللاتي كنّ يقمن في ملحق بجانب القصر. استمر سرحان (رازي) وانبهاره بالمبنى الواقف أمامه حتى ربتت (مريم) على كتفه وقالت: ما رأيك أن ندخل الآن؟

هز الشاب المبهور رأسه بالموافقة بصمت دون أن يلتفت إليها..

بعد دخولهما لبهو القصر ومشاهدة (رازي) لضخامته وتفاصيله الفخمة تحول انبهاره لرهبة وقلق بَدَوا على وجهه فقالت (مريم): ما بك؟ تبدو متوترًا!

(رازي) واضعًا كفه على صدره: لا أبدًا، أنا متعب قليلًا..

تبسمت (مريم) وأشارت لـ (صباح) الواقفة خلفها مع ابنتها بالاقتراب..

(صباح): بمَ تأمرين يا سيدتي؟

(مريم): هل جناح الضيوف جاهز؟

(صباح): سيكون جاهزًا خلال دقائق.

(مريم): بعد ما تنتهون من تجهيزه خذي السيد (رازي) إليه ليرتاح.

(صباح): أمرك.



حملت (صباح) مع (حنين) الحقيبتين وصعدتا بهما للطابق العلوي حيث كان جناح الضيوف والجناح الرئيس الذي تقيم فيه السيدة بالإضافة لجناحين آخرين.

(مريم): هل ترغب بتناول العشاء قبل أن تنام؟

(رازي): في الحقيقة لا أشعر بالجوع أو النعاس.. لقد نمت كثيرًا في القطار.

(مريم): وأنا كذلك.. ماذا تقترح أن نفعل؟

(رازي): لا أعرف.. بالعادة أكون نائمًا في هذا الوقت كي أستيقظ باكرًا لمساعدة أمي في قضاء حوائجها.

(مريم): ما رأيك أن آخذك في جولة في المكان؟

(رازي): حسنًا كما تشائين.

جالت السيدة مع الشاب في مرافق القصر بالطابق السفلي ابتداءً من البهو الشاسع مرورًا بغرفة الطعام الكبيرة والمطبخ الأكبر والذي علق عليه (رازي) عند رؤيته قائلًا: «هذا المطبخ أكبر من منزلنا بالقرية»

ضحكت السيدة وقالت: أنت لم تشاهد مكتبي بعد.. تعال لأريك إياه.

توجه الاثنان خلف السلالم الرخامية التي توسطت البهو ووقفا أمام بابٍ مذهب مرتفع بمقابض فضية ضخمة.

(مريم) مشيرة للباب: هيا.. ادخل

دفع (رازي) درفتي الباب الكبير كاشفًا عن غرفة واسعة امتلأت بالتحف والمجسمات المتنوعة، سقفها وجدرانها من الخشب الأحمر المعرق باللون الأسود وانتشرت في المكان رائحة زكية لم يستطع تحديد ماهيتها ولمح في المنتصف طاولة عريضة صنعت من نوع مختلف من الأخشاب يتوسطها كرسي بظهر طويل من الجلد الأسود وأمامه نُصب كرسيّان آخران لمقابلة من يجلس على تلك الطاولة

(مريم) باسمة: ما رأيك؟

(رازي) وهو مدهوش: لم أتخيل أنَّ هناك مكانًا بهذا الشكل!

(مريم): جميل أليس كذلك؟

(رازي) وهو يسير على السجاد المنقوش لوسط المكان متأملًا

تفاصيله: باهر بلا شك لكن جميل .. لا أعرف

(مريم): ماذا تقصد؟

(رازي) ماسحًا سطح إحدى التحف المنتشرة: أرى أن مدى سهولة الحصول على شيء ما في أي وقت هو ما يحدد معيار جماله.

(مريم): يمكنك أخذ أي شيء تريده.. أي شيء تشير إليه بسبابتك سيكون ملكك.

(رازي) مبتسمًا بحزن محدقًا بالتحفة: هل تذكرين شجرة التوت؟

(مريم): التي جلسنا تحتها؟

(رازي): نعم.. هل تعرفين لِمَ كانت جميلة ذلك اليوم؟

(مريم): لا.. أخبرني

(رازي): لأنها لا تثمر طيلة العام.. تلك الشجرة بالذات من بين أشجار التوت الأخرى بالغابة تثمر فقط لأيام معدودة بالسنة وتكون في أبهى صورها وقمة عطائها، وبعدها تتساقط ثمارها ومعظم أوراقها وتبقى شبه جرداء ومع ذلك أجد حبي لها كما هو ورغبتي بزيارتها والاستظلال بظلها كل يوم لا تتغير.. هذا

هو الجمال بالنسبة لي.. دائم ومتجدد حتى لو توقف.. هل فهمت قصدي الآن؟

(مريم) بحزن: نعم فهمت..

صوت الباب يطرق برفق من خلفهما..

التفتت (مريم) للطارق لترى (حنين) واقفة وتقول: جناح الضيوف جاهز يا سيدتي.

توجه الجميع لغرفهم تلك الليلة وخلد (رازي) و(مريم) لمضاجعهما لكنهما بقيا مستيقظين طيلة الليل ولم يهنأا إلا بساعات قليلة من النوم قبل الفجر.

مع بزوغ شمس الصباح دبّت الحياة في أرجاء القصر وحوله وأخذ العاملون فيه بممارسة أعمالهم اليومية الروتينية، فالبستاني المسؤول عن الحديقة الكبيرة بدأ بسقي وتشذيب الشجيرات، والسائق (جابر) ينتظر عند المدخل يمسح زجاج السيارة والعاملات بالداخل يقمن بتنظيف وترتيب الغرف والتحف في تناغم صامت كعاملات في خلية نحل تحت إشراف (صباح)، حيث أشرفت على

تجهز مائدة الإفطار في غرفة الطعام الكبيرة بمعاونة ابنتها (حنين) التي قالت وهي ترتب الأطباق والملاعق على سطح الطاولة: من هذا الشاب الذي أتى مع السيدة (مريم) يا أمي؟

(صباح) وهي تلمّع كوبًا بخرقة بيضاء: لا أعرف ولا شأن لنا بذلك.

(حنين) خلال تنسيقها باقة كبيرة من الزهور الحمراء توسطت الطاولة قطفها البستاني للتو من حديقة القصر: هل تريدين مني إيقاظه؟

(صباح): ما حكايتك؟

(حنين): أنا؟ لا شيء يا أمي.. كنت فقط..

(صباح) مقاطعة: لا تتدخلي فيما لا يعنيك.. هيا اذهبي للمطبخ واستعجلي الطباخ ليحضّر بقية الأطباق.. السيدة سوف تستيقظ بعد قليل وإفطارها لا بد أن يكون جاهزًا!

هرولت الفتاة على عجالة نحو المطبخ قائلة: أمرك يا أمي!

أكملت (صباح) تجهيز مائدة الإفطار وبينما هي منهمكة بذلك

لمحت سيدتها تنزل من الطابق العلوي فسارت بخطوات متسارعة لاستقبالها وعند بلوغها أسفل السلم وضعت كفيّها بعضَهما فوق بعض على بطنها وقالت بنبرة مرحبة وابتسامة عريضة: صباح الخير يا سيدتي.. كيف كان نومك؟

(مريم): صباح الخير (صباح).. هل أعددتِ الإفطار؟

(صباح): نعم.. كل شيء جاهز كما هو معتاد.

(مريم): هل استيقظ السيد (رازي)؟

(صباح): لا يا سيدتي.. هل ترغبين مني بإيقاظه؟

سرحت (مريم) لثوانٍ أمامها في باب القصر المفتوح والمطل على الجنينة الكبيرة وأخذت نفسًا عميقًا وقالت بعد ما زفرته: لا.. اتركيه يرتحْ قليلًا.. نادي على (جابر) أريد الحديث معه.

(صباح) حانية رأسها: أمرك.

خرجت (صباح) لفناء المنزل وسارت (مريم) نحو المائدة في غرفة الطعام وتزامن دخولها للغرفة مع عودة (حنين) من المطبخ وهي تحمل طبقًا من العجة بيد وباليد الأخرى طبقًا من السلطة الخضراء

ووضعتهما أمام الكرسي المعدّ للسيدة. جلست (مريم) في مكانها المعتاد وقالت لـ (حنين) ونظرها يجول حول المائدة متفحصة الأصناف المعروضة: كيف حالك اليوم يا (حنين)؟

(حنين) دافعة ظهر الكرسي الخاص بالسيدة كي تقرّبها أكثر من المائدة: بخير يا سيدتي.. اشتقنا لكِ!

(مريم): أين قهوتي؟

جرت (حنين) والتقطت إبريقًا كان على جانب الطاولة وسكبت بعضَ محتواه في كوب أبيض بأطراف مذهبة وحملته للسيدة ومدّته لها قائلة: تفضلي.

(مريم) تنهض من مكانها: أحضريه لي في مكتبي.

(حنين) بوجه متعجب وهي ممسكة بالكوب الساخن: ماذا عن الإفطار؟

لم تجبها السيدة وأكملت سيرها نحو مكتبها، لكن وقبل أن تصل دخلت (صباح) ومن خلفها (جابر) الذي خلع قبعته وحنى رأسه قائلًا: صباح الخير سيدة (مريم).. بمَ تأمرين؟

(مريم) مستأنفة سيرها: اتبعني..

بعد دخولهما للمكتب توجهت (صباح) بخطوات متسارعة نحو غرفة الطعام ودخلت على ابنتها لتجدها واقفة وكوب القهوة بيدها والمائدة لم تمسّ فقالت: ماذا حدث؟ لمَ لم تتناول السيدة إفطارها؟

(حنين): لا أعرف.. لا تريد سوى قهوتها في مكتبها

(صباح): ولمَ لا تزالين واقفة هكذا؟! خُذيها إليها في الحال!

(حنين) بتوتر: حاضر! حاضر!

وقفت (حنين) أمام باب المكتب وطرقت الباب بيد وباليد الأخرى وازنت كوب القهوة الساخن أمسكت بعدها بالمقبض وأدارته ودخلت لتجد (جابر) يقف أمام (مريم) الجالسة على مكتبها تتحدث معه. وضعت (حنين) كوب القهوة أمام سيدتها المندمجة في حديثها مع السائق.ووقفت صامتة بالقرب منها وسمعتها تقول له: «وأريدك أيضًا أن تعامله مثلما تعاملني تمامًا وتنفذ أوامره وكأنها صادرة مني.. هل فهمت؟»

(جابر) حانيًا رأسه: مفهوم يا سيدة (مريم)!

(مريم) حاملة كوب القهوة الذي وضع أمامها: يمكنك الانصراف الآن.

وضع السائق قبعته على رأسه ورحل..

(مريم) لـ (حنين) بعد ما أخذت رشفة من قهوتها: متى موعد درسك مع الأستاذ (نظام) اليوم؟

(حنين): الساعة التاسعة كالمعتاد في غرفة الطعام يا سيدتي.

(مريم): عندما ينتهي أخبريه أني أريد مقابلته هو الآخر.

(حنين): أمرك.. هل تأمرين بشيء آخر؟

(مريم): نعم.. عندما يستيقظ السيد (رازي) أبلغيني على الفور.. يمكنك العودة لعملك الآن.

(حنين) تهم بالرحيل بعد ما حنت رأسها: حاضر.

سارت (حنين) تجاه باب الخروج وقبل أن تصل إليه فُتح أمامها ليدخل (مالك) باسطًا ذراعيه رافعًا يديه في الهواء وبصوت مرتفع متحمس قال: هذا الصباح بهيج بوجودك بيننا يا ابنة عمي! أنرتِ القصر بعودتكِ!

(مريم) مكملة تناولها لقهوتها الساخنة وبنبرة باردة: أهلًا يا (مالك).

(مالك) لـ (حنين) وهو يشد ربطة عنقه ويسير تجاه (مريم): أغلقي الباب خلفك.

(حنين): حاضر يا سيد (مالك).

خرجت (حنين) وأغلقت الباب خلفها بينما جلس (مالك) أمام (مريم) وعلى وجهه ابتسامة عريضة وقال: لقد قلتِ بأنكِ ستمضين أسبوعًا في تلك القرية.. لمَ عدتِ بعد أربعة أيام فقط؟

(مريم) واضعة ساقًا على ساق آخذة رشفة من قهوتها ونظرها للشرفة المطلة على حديقة القصر: هل أنت مستاء من عودتي؟

(مالك) ضاحكًا: لا لا أبدًا.. بالعكس تمامًا لقد افتقدناكِ جميعًا!

(مريم): أليس من المفترض أن تكون هذا الوقت في المصنع؟

(مالك): بلى.. كنت في طريقي إليه لكن كان لا بد أن أعرِّج هنا أولًا لأطمئن...

(مريم) موجهة نظرها نحوه وبتجهم بسيط: تطمئن على ماذا؟

(مالك) وهو يجول بنظره حول المكان: عليكِ بالطبع.. ولأرى إن كان هناك شيء تحتاجينه مني

(مريم) بنبرة صارمة: لا أحتاج سوى أن تقوم بعملك.

(مالك) مبتسمًا بخبث: عملي هو الاهتمام بكِ ورعايتكِ يا ابنة عمي.

(مريم) واضعة كوب القهوة على سطح مكتبها عاقدة أصابعها فوق ركبتها المثنية: تتحدث عني وكأني طفلة.. لا تنس أني أنا من يقوم بدفع راتبك

(مالك): لمَ تتحدثين معي بجفاء؟ هل هذا بسبب الغريب الذي جلبته معك؟

(مريم) بخليط من العصبية والتجهم: هذا هو أسلوبي معك منذ أن ابتليت بك.. ولا تتدخل في أمور لا تعنيك.. أنا أحذرك.. انهض الآن من أمامي وتوجه للمصنع قبل أن ترى ما هو أقسى من جفاء الحديث!

وقف (مالك) وشد ربطة عنقه وقال: سأعود في المساء كي أراجع معكِ بعض الأمور..

(مريم) حاملة كوب قهوتها مقربة طرفه من شفتيها: رافقتك السلامة..

بعد ما انتصف (مالك) في طريقه نحو باب الخروج استوقفته (مريم): انتظر!

استدار باسمًا وقال: نعم.. هل نسيتِ شيئًا؟

(مريم): في المرة القادمة لا تدخل دون استئذان.. لم أوبخك أمام (حنين) واحترمت مشاعرك هذه المرة، لكن لو كررتها مرة أخرى فلن أتردد بتقويمك أمام الجميع.. واضح؟

(مالك) وابتسامته تتحول لعبوس: واضح

خرج (مالك) وترك الباب خلفه مفتوحًا وبعد عدة دقائق ظهرت (صباح) ووقفت عند مدخل المكتب ممسكة بيديها صينية لكنها لم تدخل حتى انتبهت (مريم) لها وأشارت لها بالدخول، وضعت (صباح) الصينية التي احتوت على بعض الطعام من مائدة الإفطار فوق سطح المكتب وقالت: لمَ لم تتناولي إفطارَكِ اليوم يا سيدتي؟.. هذا ليست من عادتك

(مريم) مكملة احتساء قهوتها ونظرها أمامها: شهيتي مفقودة اليوم.

(صباح): لا بد أن تأكلي شيئًا

(مريم): كم الساعة الآن؟

(صباح) مديرة نظرها لساعة كبيرة معلقة خلفها: قاربت على الثامنة.. هل لديك موعد ما يا سيدتي؟

(مريم) سارحة في الباب المفتوح: يضيع الكثير من الوقت خلال محاولة توفيره..

(صباح) معيدة نظرها لسيدتها التي بدت عليها ملامح الاكتئاب والحزن: ما بكِ يا سيدتي؟ منذ أن عدتِ من سفرك وأنتِ لستِ على طبيعتك.. هل هناك خطب ما؟

(مريم) وسرحانها ينقطع بنبرة زافرة وهي تضع الكوب أمامها: لا.. كل شيء على ما يرام.. عودي لعملك واتركي مائدة الإفطار على حالها حتى يستيقظ السيد (رازي) ويتناول إفطاره.

(صباح): أمرك.



أمضت السيدة صباحها في مكتبها ولم تخرج ولم يكن ذلك من عوائدها، فقد اعتادت كل صباح بعد تناولها للإفطار أن تأخذ جولة في حديقة قصرها ثم تتوجه بعدها لإصطبل الخيول الذي تملكه وتختار فرسًا أو جوادًا تمتطيه وتكمل جولتها على ظهره والتي تستغرق في العادة من ساعة إلى ساعتين، تعود بعدها وتأخذ حمامًا وتغير ملابسها وتخرج مع (جابر) لتفقد أعمالها، ثم تعود بعد الظهر لتناول غدائها وتأخذ قيلولة تستيقظ منها قبل غروب الشمس الذي تراقبه في مكان مخصص يجهزه لها العاملون بالحديقة، لكن هذا الروتين اليومي تغير ذلك اليوم ببقائها في مكتبها تحتسي القهوة وحدها مما أثار بعض الأحاديث الجانبية بين الخدم والعاملين المندهشين من هذا التغير المفاجئ، لكن (صباح) أنهت تلك النقاشات الجانبية ومنعتها وعللت ذلك بوجود ضيف في القصر وأنّ السيدة لا بد وأنها لا تريد الخروج وتركه.

عندما دقت الساعة تمام التاسعة حضر السيد (نظام)، وهو معلم في العقد السادس من عمره كلّفته (مريم) بتعليم (حنين) دروسها التي لم تعد تحضرها بالمدرسة بعد أن انضمت لوالدتها في العمل

لأن موقع المدرسة بعيد في وسط المدينة ورحلة الذهاب والعودة للمدرسة سوف تستغرق وقتًا طويلًا، وبالرغم من أن (مريم) لم تؤيد هذا الانقطاع إلا أن (صباح) هي من أصرت على بقاء ابنتها معها بحجة أن ذلك أهم من ارتيادها للمدرسة، وبسبب حزن (حنين) قررت السيدة تعويضها بمعلّم خاص يقوم بتدريسها يوميًا لمدة ساعتين على الرغم من عدم اقتناع أمها بأهمية ذلك لكنها لا تسطيع معارضة رغبة سيدتها. فتحت (حنين) باب القصر بعد سماع طرقاته وقالت باسمة لمعلِّمِها الواقف عند عتبته وحقيبته الجلدية السوداء تحت إبطه: صباح الخير أستاذ (نظام)!

(نظام) يبادلها الابتسام دافعًا نظّارته بسبابته للأعلى: أهلًا بطالبتي النجيبة.

(حنين) مشيرة لمعلمها بالدخول وبنبرة مرحبة: تفضل.. أنا جاهزة للدرس!

أخذ الأستاذ (نظام) بضع خطوات للأمام، التف بعدها باتجاه غرفة الطعام حيث اعتاد هو و(حنين) الجلوس فيها من أجل الدروس، وبعد دخوله لاحظ أنَّ مائدة الإفطار لم تُرفع ولم يكن هناك مكان

على سطحها إلا وقد وضع عليه آنية أو طبق فقال وهو يلتقط قطعة من الجبن من أحد الأطباق: كل هذا لأجلي؟

(حنين) ضاحكة: تناول ما تشاء بالهناء والعافية!

(نظام) ماسحًا سبابته بإبهامه ونظره يجول بين أصناف طعام المائدة: لا، شكرًا لقد تناولت إفطاري قبل أن آتي.

(حنين): هل نبدأ الدرس الآن؟

(نظام) يجلس عند طرف الطاولة واضعًا حقيبته أرضًا بجانبه: وكيف سنبدأ؟ لا يوجد مكان لأضع حتى قلمي!

(حنين) وهي ترفع الأواني من أمامه وتنقلها لعربة طعام صغيرة مركونة بجانبها: أمهلني دقائق فقط!

بعد ما انتهت (حنين) من إزالة معظم ما كان في وجه السيد (نظام) رفع حقيبته وأخرج منها كتابين وثلاثة أقلام ووضعها على المساحة التي توفرت أمامه، بينما كانت (حنين) منهمكة بإزاحة المزيد من الأطباق والأواني. بعد ما انتهت جلست بجانبه باسمة فقال لها: أين كرّاستك وقلمك؟

(حنين) واضعة كفها على جبينها: لقد نسيتهما بغرفتي!

(نظام): ماذا تنتظرين إذًا؟

(حنين) ناهضة من مكانها على عجالة: أنا آسفة! سأعود في الحال!

وضع المعلم كوعيه فوق سطح الطاولة وعقد أصابع كفيه مسندًا ذقنه فوقهما وبدأ يحدق بصمت في التحف واللوحات الموزعة في أرجاء الغرفة ريثما تعود الصبية بكراستها وقلمها، وخلال ذلك دخل عليه (رازي) بوجه يخالطه الحيرة والتوتر فنهض (نظام) من مكانه ومد كفَّه قائلًا: أهلًا بك.. أنا السيد (نظام).

(رازي) مصافحًا السيد (نظام) بنصف ابتسامة قلقة: أنا (رازي).

(نظام) وهو لا يزال قابضًا على كف (رازي) ويهزها بقوة: تشرفنا سيد (رازي).. هل أنت موظف جديد هنا؟

(رازي): نعم.. أعتقد.

(نظام) ضاحكًا: تعتقد؟!

أفلت المعلم يد (رازي) وجلس على كرسيه وأشار له بالجلوس أمامه ففعل..

(نظام) باسمًا: أخبرني الآن.. ما الذي «تعتقد» أنك ستعمله هنا؟

(رازي): في الحقيقة لا أعرف حتى الآن.. هذا أول يوم لي

(نظام) بتعجب: غريب.. هل تعمل بأجرة الساعة؟ ... ما هي مؤهلاتك؟

(رازي): مؤهلاتي؟

(نظام): نعم مؤهلاتك.. شهاداتك خبراتك.. بمعنى آخر ما الأعمال التي تجيدها؟

شعر (رازي) بالتحرج والضيق من أسئلة السيد (نظام) المتابعة فلاحظ عليه ذلك وقال: أعتذر لأني أتدخل فيما لا يعنيني كنت أحاول فقط تجاذب أطراف الحديث معك.. انسَ الأمر.

(رازي): لا أبدًا العفو أنت لم ترتكب أي خطأ.. أنا من يعتذر لأني لا أملك إجابة.

(نظام) ممسكًا بأحد الكتب التي وضعها سابقًا أمامه قائلًا: على أي حال تشرفت بمعرفتك يا سيد (رازي).

ضم (رازي) كفّيه وبدأ يفركهما بعضهما ببعض وأنزل رأسه وبقي على تلك الحالة حتى عادت (حنين) حاملة كرّاستها وقلمها معها وما أن رأته قالت له: صباح الخير سيد (رازي) كيف حالك؟ كيف كانت إقامتك؟ هل نمت بشكل جيد؟



هز (رازي) رأسه بالموافقة دون أن ينطق بأية كلمة وعلامات التوتر وعدم الارتياح بادية على وجهه..

(حنين): هل ترغب في أن أحضِّر بعض طعام الإفطار؟

(نظام): ماذا عن درسك؟

(حنين) باسمة: أستسمحك يا معلمي في بعض الدقائق فقط لأن السيدة (مريم) أوصتنا بأن نهتم بالسيد (رازي).

(نظام) رافعًا معصمه أمام عينيه ناظرًا في ساعته: لديك خمس دقائق فقط!

(رازي): لا لا.. لست جائعًا.. يمكنك البدء مع معلمك.

(حنين): هل أنت واثق؟

(نظام): اجلسي يا (حنين) وكفّي عن المراوغة.

(رازي) لـ (حنين): نعم واثق شكرًا.

حضنت (حنين) كراستها باسمة وجلست على الكرسي بين (رازي) ومعلمها الذي استهلَّ معها الدرس بقوله: هل أنهيتِ الفرض الذي طلبته منكِ بالأمس؟

(حنين) فاتحة كراستها: بالطبع!

أمضى المعلم وتلميذته نصف ساعة من الدرس و(رازي) يراقبهما صامتًا حتى خرجت (صباح) من المطبخ ورأتهم بتلك الحالة فاقتربت منهم ووضعت كفها على كتف (رازي) بهدوء وقالت بنبرة حانية: صباح الخير سيد (رازي).

(رازي) ملتفتًا إليها: صباح الخير سيدة (صباح).

(نظام) دافعًا نظارته بسبابته: سيدة (صباح).. هل يمكن أن نحظى ببعض الهدوء

(صباح): نعم بلا شك سيد (نظام).. المعذرة!

وضعت (صباح) سبابتها على شفتيها الباسمتين ثم أشارت لـ (رازي) بأن يتبعها للمطبخ فنهض من مكانه ولحق بها. بعد دخولهما سحبت له أحد الكراسي المنتشرة في ذلك المطبخ الكبير وقالت له: سامحني يا سيد (رازي) على إحضارك إلى هنا فالمكان لا يليق بك، لكن أمهلني بضع دقائق وسوف أعد لك مكانًا للجلوس في الحديقة لتتناول إفطارك ريثما أبلغ السيدة (مريم) باستيقاظك.

(رازي): لا يوجد شيء يستحق الاعتذار.. في الحقيقة هذا هو أول مكان أشعر فيه بالراحة منذ دخولي للقصر



(صباح) ممازحة: ألهذه الدرجة أنت جائع؟

(رازي) بابتسامة حزينة: لا ليس كذلك.. لا أعرف.. شعرت بأنه المكان الوحيد الذي أستطيع أن أكون فيه على سجيتي.

(صباح): كن كما تريد في أي مكان يا سيد (رازي).. نحن هنا عائلة واحدة.

(رازي): وهل أفراد العائلة ينادي بعضهم بعضًا بالألقاب؟

(صباح) باسمة: بمَ تحب أن أناديك؟

(رازي): أي شيء لا يسبقه «سيد»

(صباح): حسنًا يا بني.. ماذا تريد أن تأكل الآن؟

(رازي) ممازحًا: ما حكاية الأكل هنا؟ منذ أن استيقظت والكل يريدون إطعامي

(صباح) مخرجة طبقًا من أحد الرفوف: هذه تعليمات السيدة (مريم).

(رازي): تعليماتها هي إطعامي؟

(صباح) واضعة رغيفًا من الخبز على الطبق: تعليماتها أن نقدم لك كل ما تريد

(رازي): أريد أن أرى الشمس..

(صباح) ملتفتة إليه: الشمس؟

(رازي): نعم.. هل أستطيع الخروج لفناء المنزل؟

(صباح): بالطبع.. هل تريد أن أرشدك للطريق؟

نهض (رازي) من مكانه وقال قبل أن يهم بالخروج من المطبخ: لا.. أستطيع أن أجد طريق الخروج بنفسي.. شكرًا يا سيدة (صباح) على حسن استقبالك.

(صباح) باسمة: (صباح) فقط..

ابتسم (رازي) وسار خارجًا من المطبخ ومرورًا بغرفة الطعام حيث كان (نظام) لا يزال يلقن (حنين) درسها وعند رؤيتها لـ (رازي) يسير بخطوات سريعة وحذرة لتجاوزهما بهدوء وضعت كفّها على فمها كاتمة ضحكتها وراقبته حتى خرج للبهو دون أن ينتبه له معلمها المنهمك في تقييم فرضها المنزلي. فتح (رازي) إحدى درفتي باب القصر الكبير وأخذ نفسًا عميقا بأعين مغمضة عندما هبت عليه نسائم ريح باردة بالرغم من أن الشمس كانت ساطعة بقوة ذلك اليوم، ليفتح عينيه بعدها متأملًا البستان الأخضر الممتد

في الأفق أمامه والذي تحمل ببعض حزم الورود المتفرقة وبعض أشجار التفاح المثمرة مثل التي شاهدها من نافذة القطار. بقي (رازي) بضع دقائق عند عتبة الباب سارحًا بالمنظر الخلاب ويده لا تزال على المقبض المذهب وكأنه أصيب بحالة من الانتشاء ساحرة.

انقطعت حالة السرحان تلك بعد ما حط عصفور صغير على الأرض الرخامية أمامه وأخذ ينقر الأرض عدة نقرات ويقفز ويغرد قبل أن يعاود التحليق مرة أخرى. شعر (رازي) في تلك اللحظة برغبة غريبة للتحليق مثله والابتعاد عن هذا المكان لكنه اكتفى بالمشي بخطوات بطيئة نحو أقرب شجرة تفاح وجلس تحتها مسندًا ظهره لجذعها ومستظلًّا بظلها متأملًا في غيوم السماء العابرة.

وبينما هو جالس مستمتعٌ بمراقبة السماء شعر (رازي) بحكّة في عنقه فمسح بباطن يده على ظهره ليرى أن مجموعة من النمل قد تسلقت عليه فنهض مفزوعًا يمسح ويضرب قفاه محاولًا إبعاد سرب النمل الذي غزا جسده وخلال قيامه بذلك سمع رجلًا يحدثه من خلفه قائلًا: «هل أنت بخير؟»

وجه (رازي) نظره لمصدر الصوت ليرى رجلًا يمسك مقصًا كبيرًا

ويلبس قفازات سميكة واسعة وقبعة كبيرة وقال له: نعم نعم.. بعض النمل ضايقني فقط..

تبسم الرجل وقال: أنا لم أرَكَ من قبل هنا

(رازي): ولا أنا رأيتك من قبل

ضحك الرجل وقال: أنت ظريف.

(رازي): لا أنا (رازي).. وأنت؟

غرس الرجل أنصال مقصه الكبير في تربة الأرض العشبية وخلع قفازه الأيمن وأخذ بضع خطوات نحو (رازي) بيد ممدودة قائلًا: أنا البستاني هنا..

(رازي) مصافحًا الرجل: تشرفنا سيد بستاني!

(البستاني) ضاحكًا وضاربًا كتف (رازي) بكفِّه: أنت شخص مثيرٌ للاهتمام!

(رازي) ماسحًا كتفه: لمَ تقول ذلك؟

ضرب البستاني بقبضته جذع الشجرة خلف (رازي) لتهتز وتسقط منها ثمرة تفاح ناضجة التقطها باليد نفسها قبل وقوعها على الأرض وقرّبها من فمه ونفخ عليها ثم مسحها بصدره ومدّها لـ

(رازي) قائلًا: خذ.. تناول هذه

أخذ (رازي) التفاحة ولكنه لم يقضمها..

(البستاني): ما بك؟ ألا تحب التفاح؟

(رازي): بالعكس، لكني لا أشعر بالجوع الآن

(البستاني): ليس من الضروري أن تكون جائعًا لأخذ قضمة منها

(رازي): ماذا تقصد؟

نزع البستاني المقص الكبير من الأرض وهمَّ بالرحيل وقبل رحيله قال باسمًا: سعدت بلقائك.. أتمنى أن نستأنف حديثنا مستقبلًا..

(رازي) محدثًا نفسه وهو يراقب البستاني يسير مبتعدًا عنه: عن ماذا يتحدث هذا الرجل الغريب؟

بعد اختفاء البستاني عن أنظاره عاود الجلوس لكنّه هذه المرة لم يجلس تحت شجرة التفاح حيث تقيم مستعمرة النمل بل استلقى فوق العشب الأخضر وبقي يحدّق بالسماء مسندًا رأسه لكفّيه بعد ما وضع التفاحة على صدره. بالرغم من أن قرص الشمس وقتها كان قد ارتفع واقترب من توسط السماء وأشعتها ازدادت توهجًا وحرارة لكنه لم يأبه وكان مرتاحًا لدرجة أن عينيه غفتا بعد ما هبت

عليه بعض النسمات الباردة. استمرت تلك الغفوة وطالت وكأنّ (رازي) لم ينم ليلة البارحة، ولم يفق منها إلا عندما أحس بيد تربت برفق على فخذه ففتح عينيه ببطء ليرى (مريم) جالسة بجانبه تتبسم له ممسكة بالتفاحة التي كانت فوق صدره. جلس (رازي) وقال: سيدة (مريم)؟

(مريم) باسمة: ماذا تفعل هنا؟

مسح (رازي) على عنقه بوجه ناعس ونظر أمامه ورأى أنّ الشمس قد بدأت تغرب في الأفق الذي توهّج حمرة وقال: كم لبثتُ هنا؟

(مريم): ساعات طويلة.. لقد افتقدتك بعد الظهر وعندما وجدتك هنا لم أرغب بإزعاجك لكني قلقت عليك عندما أطلت في النوم وقررت إيقاظك.

(رازي) فاركًا عينيه براحة يده: لا أعرف ماذا حدث لي.. كنت فقط.. لا أدري

جلست (مريم) بجانبه وقالت: يمكنك أن تخبرني بأي شيء يدور بخلدك..

(رازي) موجهًا نظره للغروب زافرًا: لا أشعر بالراحة في هذا المكان.



(مريم) ممازحة: كل هذه الساعات في النوم ولا تشعر بالراحة؟

(رازي) بحزن: لا أقصد هذا النوع من الراحة.

(مريم) تشاركه النظر للغروب: أعرف.. هذا أمر طبيعي ومع مضي الوقت ستتأقلم

(رازي): لم أشعر من قبل بهذا الشعور.

(مريم): أي شعور؟

(رازي) ملتفتًا إليها: بعدم الانتماء..

صمتت (مريم) لثوانٍ تتأمل عينيه الحزينتين ثم قالت: أعدك بأنك ستتجاوز هذا الشعور

(رازي): وإذا لم أتجاوزه؟ ماذا لو خذلتك وخذلت أبي.. ماذا لو لم أحقق ما تصبوان إليه؟

(مريم) باسمة: من الجميل أن أعلم أني أتجول في بالك.. اسمع يا (رازي) نحن لا نريد لك شيئًا سوى أن تكون سعيدًا.

(رازي): أشعر بأن الحياة ستعاقبني لأني سعيت لما هو أكثر مما قدمَتْه لي.

(مريم): لمَ تقسو على نفسك هكذا؟ أنت تستحق أكثر!



(رازي): لم أنجذب يومًا لما لا تستطيع يداي لمسه.. كنت مكتفيًا بما أملك.. لماذا كان عليَّ أن أطمع بالمزيد؟

(مريم): رغبتنا في سعادة أكبر ليست طمعًا وكل ما نبذله سعيًا وراء ذلك ليس إسرافًا..

(رازي): رغبتنا؟ هل تبحثين أنت أيضا عن سعادة أكبر؟ ظننت أنكِ قد بلغتِ منتهاها.. ألم تحقق لكِ كل هذه الأموال السعادة؟

تبسمت (مريم) وحادت بنظرها جانبًا عن (رازي) كي لا يلمح دمعة باغتتها مسحتها على الفور وقالت: المال يمكنه شراء المتعة لكن ليس السعادة.. جميعنا نبحث عن السعادة ولكنْ كلٌّ يبحث عنها بطريقته الخاصة..

(رازي): وأين سنجدها؟

(مريم): أعتقد أن السعادة لا يمكن أن تباع أو تشترى لكنها تهدى فقط.. يهديها لك شخص آخر يكنُّ لك قدرًا من المحبة كفيلًا بأن يجعله يقدمها لك بلا قيد أو شرط وتكتمل تلك السعادة بقبولك لها..

(رازي): العطاء إذًا هو مصدر السعادة..



(مريم): نعم.. لن تجني قبل أن نزرع وليس كل ما نبذره ينمو وإن نما فقد لا يثمر وإن أثمر فقد تكون تلك الثمار مُرّة، لذا فالأمر رحلة شاقة لكن لو تمكنتَ من الصمود للنهاية فستقطف ثمارها في نهاية المطاف، وقتها ستشعر بالسعادة الحقيقية.

(رازي): للتوّ تذكرت مقولة كانت أمي ترددها دائمًا..

(مريم) معيدة نظرها نحو (رازي): ماذا كانت تقول؟

(رازي): «الحياة بلا عطاء كالقِدْر بلا غطاء..» كانت تقولها لأبي عندما يتقاعس عن القيام بشيء تطلبه منه وهو يرد بقوله: «مصادر الراحة والسعادة الحقيقية هي الاستغناء والاكتفاء وعدم الانشغال بما لا يخصك..» وينتهي جدالهما بأن ترمي أمي عليه حذاءها.

ضحكت (مريم) لكنَّ عينيها غرقتا بالدموع في الوقت ذاته، وفي محاولة منها لكظم تلك المشاعر المتضاربة التي عصفت في جوفها قامت بقضم التفاحة والنهوض متحاشية نظرات (رازي) المتعجبة.

(رازي) مراقبًا (مريم) الواقفة بجانبه وهي تأخذ قضمة أخرى من التفاحة وتمسح دموعها بساعدها وبنبرة خالطها التوتر والندم: اعتذر.. لم أقصد أن أضايقك..

مدَّت (مريم) يدها نحو (رازي) فأمسكها لتشده وتعاونه على النهوض ثم قالت وهي تمد التفاحة المقضومة له: منذ اليوم سنبدأ..

(رازي) ممسكًا بها: نبدأ في ماذا؟

(مريم): في البحث عن السعادة.. ولن نتوقف حتى نجدها.. هل تعدني بأن ترافقني طيلة الطريق مهما كانت المصاعب التي سنواجهها؟

(رازي) آخذًا قضمة من التفاحة: أعدك..

مضت الأيام والأسابيع وخلالها قامت (مريم) بكل ما في وسعها لتقدم لـ (رازي) كل ما يحتاجه ليتأقلم مع حياته الجديدة ووضعت له جدولًا يوميًا مكثّفًا تخلّلَه العديد من المهام فكان (رازي) يستهل يومه بتناول الإفطار معها يتبعه ثلاث ساعات من الدروس الخاصة مع السيد (نظام) الذي وجّهته بتأخير موعد دروسه مع (حنين) ليفسح المجال لتعليمه القراءة والكتابة والحساب، وبالرغم من أنّه كان متأخرًا جدًّا في تعليمه إلا أن دروس المعلم المكثّفة آتت ثمارها خلال فترة وجيزة لرغبة (رازي) الشديدة بالتعلم. بعد انتهاء درس السيد (نظام) تقوم (مريم) بالجلوس معه على الغداء والحديث معه عما تعلّمه وتناقشه في أدق التفاصيل وكانت تستمتع جدًّا بالإنصات إليه وهو يتحدث بحماسٍ وسعادةٍ عن إنجازاته وتقدمه وكيف أنَّ معلمَه كان يثني عليه على الدوام.

عقب وجبة الغداء يكمل (رازي) جدوله الذي وضعته له (مريم) ويخرج مع السائق (جابر) ليأخذه لمصنع الأقمشة الذي تملكه

ويديره (مالك) الذي تلقى تعليمات صارمة منها بأن يشرح له مجريات العمل بالتفصيل الممل متجاهلة امتعاضه من هذا الأمر، إلا أنه نفذ أوامرها بدون جدال. يُمضي (رازي) بقية نهاره في المصنع حتى موعد إغلاقه عند العصر ثم يستقل بعدها السيارة مع (جابر) ولا يصل إلا عند المغرب حيث تكون (مريم) بانتظاره عند مدخل القصر، ولم تفوت يومًا واحدًا استقباله والجلوس معه في مكتبها لتسمع منه تفاصيل يومه بالمصنع بينما تقوم (صباح) مع بقية الخدم بالإشراف على إعداد العشاء في غرفة الطعام الكبيرة كالمعتاد.

كانت السيدة (مريم) تبتهج جدًا بتلك اللقاءات المتقطعة مع (رازي) وتجد متعة كبيرة وهي تشاهد تطوره وتأقلمه وكيف يكتشف الكثير عن نفسه ويحدثها عن ذلك بكل انتشاء وسعادة، لكن اللقاء الذي كانت له أكثر توقًا هو لقاؤها معه يوم الجمعة حيث يكون الجميع هذا اليوم في إجازة ولا يبقى غير (صباح) وابنتها وحتى هاتان كانتا تخرجان للسوق معظم النهار بعد انتهائهما من إعداد الغداء وتعودان قبل المساء لتجهيز وجبة العشاء.

لقاءات الجمعة كانت غريبةً وجميلة في الوقت نفسه فلم يكن



أحد منهما يخطط لها بل يتركانها للمصادفات، ففي بعض الأحيان يطيل (رازي) في النوم ولا يستيقظ حتى وقت متأخر ومرات أخرى يصادف (مريم) في الحديقة أو خلال ذهابه وعودته من المطبخ وعندها يتجاذبان فيها الأحاديث السريعة، وبالرغم من أن السيدة كانت تستمتع بتلك الأحاديث القصيرة معه إلا أنها لم تجبره قط على البقاء أكثر مما يريد أو تستدعِه للجلوس معها في مكتبها الذي تمضي فيه معظم وقتها. تلك الأحاديث كانت تطول من وقت لآخر وتمتد وتتشعب لدرجة أن (رازي) خاض معها في إحدى المرات حديثًا مطولًا قدم لها فيه بعض الاقتراحات لتطوير عمل المصنع ومن ضمنها تحسين ظروف العمل للعاملين ورفع أجورهم لأنه احتك بهم بشكل مباشر وسمع شكاويهم التي كان يتجاهلها (مالك) ولا يلقي لها بالًا، لكن (مريم) لم تنفذ أيًا من اقتراحاته واكتفت بالإنصات له وهو بدوره لم يُصرّ لأنه كان يتحدث بشكل عابر. ينتهي جدول (رازي) عادة بعد العشاء حيث يكون وقتها في حالة من التعب والإرهاق تقوده مباشرة لفراشه في غرفة الضيوف في الطابق العلوي ليغط في نوم عميق



لا يستيقظ منه إلا لبدء يومه الروتيني مرة أخرى ويمارسه بكل حماس وانضباط.

بعد مضي ما يقارب ستة أشهر على هذا الحال بلغ (رازي) مبلغًا متقدمًا في التعلم سواء بدروسه مع السيد (نظام) أو عمله الجزئي في المصنع تحت إشراف (مالك) وارتفعت ثقته بنفسه وأصبح يتحدث ويتصرف بشكل مختلف خاصة مع الدعم المطلق الذي منحته إياه السيدة (مريم)، ففي كل فرصة حاول فيها ابن عمها التقليل من شأنه في بداياته والإيعاز لها بأنه لا يجيد شيئًا كانت صارمة وواضحة معه بأن بقاءه كمدير للمصنع منوطٌ بنجاح (رازي) في الإلمام بالعمل وأن مركزه مهدد لو فشل في هذا، وهذا ما أجبره على بذل جهد أكبر معه لم يكن سيبذله لولا تلك الضغوط والتهديدات، وعلى النقيض كان السيد (نظام) وقبل رحيله يجتمع بالسيدة (مريم) ويثني عليه كثيرًا وعلى سرعة استجابته وتقدمه مما دفعه لتقديم اقتراح دمج حصص (حنين) معه.

(مريم): هل من الضروري أن تكون دروس (حنين) مشتركة مع (رازي)؟



(نظام): لا ليس ضروريًا لكن في الحقيقة ثلاث ساعات مع السيد (رازي) يتبعها ساعتان مع الآنسة (حنين) أمر بدأ يرهقني قليلًا وأشعر بأن عطائي يتناقص بسبب ذلك، فأحببت أن تكون الحصص مشتركة بينهما ليحصلا على تركيزي التام خاصة أن هذا سيكون مفيدًا للسيد (رازي) وسيكون كذلك توفيرًا لوقتي وجهدي.

(مريم): حسنًا إن كنت ترى أنَّ ذلك أنسب لك فأنا لن أعترض.. لك ما تشاء.

(نظام): شكرًا يا سيدة (مريم) أنا ممتن جدًا.

في صباح اليوم التالي نزل (رازي) كعادته وتناول الإفطار مع (مريم) التي بدت متعبة ومشتتة قليلًا فكلامها كان مقتضبًا ولم تتناول إلا قهوتها وقد لاحظ (رازي) هذا وقال: ما بك يا سيدة (مريم)؟

(مريم) رافعة كوب قهوتها: لا شيء.. لمَ تسأل؟

(رازي): لستِ مبتهجة ككل صباح.. أهناك ما يزعجك؟

(مريم) بابتسامة مصطنعة: لا تشغل بالك.. تعب بسيط عابر.

(رازي) بقلق: هل أطلب من (جابر) أن يستدعي لكِ الطبيب؟

(مريم) وهي تنهض: الأمر لا يستدعي.. سوف أذهب لمكتبي ريثما تنتهي من درسك مع الأستاذ (نظام).

(رازي) وهو يراقبها تسير خروجًا من غرفة الطعام بتعجب: حسنًا.. أراكِ وقت الغداء إذًا..

أكملت (مريم) سيرها ولم تردّ عليه..

بعد خروج السيدة من غرفة الطعام تحركت (صباح) التي وقفت عند طرف المائدة وحملت كوب قهوتها لتأخذه لمكتبها وقبل أن تخرج سألها (رازي): ما بها السيدة (مريم)؟

(صباح): لا تقلق يا (رازي) مجرد تعب بسيط مثلما أخبرتك.. اطمئن

(رازي) رافعًا حقيبته التي تحتوي على كراساته وأقلامه فوق سطح الطاولة: حسنًا..

بقي (رازي) يجهز أدواته الدراسية بينما بدأ الخدم برفع الأطباق والأواني من على الطاولة، وخلال ذلك طُرق الباب فخرجت (حنين) جريًا من المطبخ مرورًا بغرفة الطعام وفتحته وقالت بصوت مرحب: أهلًا سيد (نظام) تفضل!

(نظام) وهو يخطو داخل المنزل: هل أنت جاهزة للدرس؟

(حنين) باستغراب: درسي لا يبدأ الآن.. موعدنا في الساعة الحادية عشرة والآن موعد درس السيد (رازي)!

(نظام): منذ اليوم ستكون دروسكما مشتركة في الوقت نفسه.

(حنين) بحماس: حقًّا؟!

(نظام): نعم.. هيا اذهبي وأحضري كراستك.

همّت (حنين) بالجري لكنّها توقفت وقالت لمعلمها بوجه متوسل: لكن أرجوك لا تعاقبني لأني لم أنهِ فرضي المنزلي.. كنت أنوي كتابته خلال درس السيد (رازي)

(نظام): لا بأس.. اليوم أنتِ معفاة منه.. اليوم فقط

(حنين) بابتهاج: شكرًا! أمهلني فقط حتى أذهب وأحضر كراستي وقلمي!

(نظام) سائرًا نحو غرفة الطعام: لا تتأخري!

جرت (حنين) خارج القصر للتوجه للملحق المتصل به حيث كانت تقيم مع أمها لإحضار كراستها، بينما جلس الأستاذ (نظام)



أمام (رازي) الذي وقف وحنى رأسه لمعلمه قبل أن يعاود الجلوس ويمد كراسته قائلًا: لقد حللت المسائل الحسابية التي طلبت مني حلها مرتين.

(نظام) متصفحًا الكراسة: ولِمَ مرتين؟

(رازي): واحدة بالطريقة التي علمتني إياها وأخرى بطريقة أخرى وجدت أنها تختصر الكثير..

(نظام) ممعنًا النظر في طريقة حل (رازي) للمسألة: طريقتك مبتكرة.. أحسنت.

(رازي) يبتسم ويهز رأسه بفخر: شكرًا.

(نظام): لدي سؤال شخصي يا (رازي).. إذا لم تكن تمانع بالطبع.

(رازي): لا أبدًا يا أستاذ تفضل

(نظام): يوم التقينا أول مرة سألتك عن مؤهلاتك ولم أفهم سبب تحرجك من الإجابة وقتها حتى بدأت معك درسنا الأول.. شخص ذكي مثلك لِمَ لم يسعَ للتعليم ودخول المدرسة في وقت مبكر؟ ماذا كان أكبر عائق أمام تعليمك؟



(رازي): سؤالك هذا محرج الآن أكثر من السابق..

(نظام) مبتسمًا: لست مجبرًا على الإجابة لكني كمعلم راودني هذا التساؤل وكيف أن عقولًا نيرة كثيرة لا تحظى بالفرصة التي تستحقها لتصبح أفضل.

(رازي): هل تعني أن التعليم يجعلني شخصًا أفضل؟

(نظام): نعم بالطبع.. هل لديك رأي مختلف؟

(رازي): التعليم يمنحني خيارات أكثر لكن لا دخل له بي وبشخصيتي.

(نظام): رأي مثير للاهتمام! ألا تعتقد أنّ الشخص المتعلم أكثر تهذيبًا من غير المتعلم؟

(رازي): قطعًا لا.. أمي قالت لي عندما أخرجتني من المدرسة بأن العمل لا يقل أهمية عن التعليم بل قد يكون أهمّ منه.. أعرف أنها مخطئة ليس لأن التعليم كان سيجعلني شخصًا أفضل لكن بلا شك كان سيجعل حياتي أسهل.

(نظام): ولِمَ تظن ذلك؟ ما الذي حرمت منه بحرمان أمّك لك من التعليم؟

(رازي): لأكون معك صادقًا، لا شيء.. نقص تعليمي لم يسلبني الكثير ولم أشعر بالحاجة له إلى أن أُخبِرتُ مرارًا وتكرارًا بذلك.. هل تفهم ما أعني؟

(نظام): نعم.. وفي الحقيقة هناك وجهة نظر صحيحة في كلام أمك أتفق معها شخصيًا على افتراض أنها عنت بالتعليم التعليم الأكاديمي وليس بشكل عام.

(رازي): ماذا تقصد؟

(نظام): لو أصبح كل من على الأرض أطبّاء ومحامين فمن سيصلح إضاءة الشارع؟ من سيزرع الزرع ويحصده.. من سيطرق الحديد ويبني ويعمّر البنيان؟ سؤال يجب طرحه على كل من يرغم المتعلمين على تجاهل رأي العرض والطلب في المجتمعات النامية متجاوزًا فرض الرغبة والشغف والهواية والهبة ومقنعًا الآخرين أن الحصول على أعلى شهادات التحصيل هو السبيل الوحيد الذي سيضمنون به مستقبلًا مشرقًا، متجاهلًا أن أغلب الحرف التي لا تتطلب تعليمًا أكاديميًا عاليًا هي الأصل في ارتقاء الشعوب وخلق قاعدة اقتصادية صلبة للتنمية لكونها علومًا مهنية تتوارثها الأجيال



وتنتج من خلالها عقولًا تعرف كيف تفعل أكثر من كونها تعلم.

(رازي): أنت تناقض كل مفهوم متعارف عليه في مجتمعنا..

(نظام): لا تسئ فهمي يا (رازي) فلا جدال في أن التعليم الأساسي كالقراءة والكتابة والحساب ركائز تنموية مهمة إلا أن التعمق فيها ليس من أساسيات النهضة ولا تتعدى كونها فرض كفاية إذا تعلمها البعض سقطت عن البقية، وهؤلاء البقية بدورهم يجب أن لا يكونوا أقل قدرًا ومكانة وتبجيلًا لمجرد كونهم غير متخصصين في علم من العلوم الأكاديمية البحتة التي تمنح فيها الدرجات العلمية علميًا دون نتاج عمليٍّ ملموس ودون بذل جهد مضنٍ قبل التمكن من المنصب الذي يخوله وبكل أنواع الرضا المجتمعي أن يكون متطاولًا مستصغرًا عامل التكييف المحترف أو الخياط الذي يعالج رقعة ثوبه.. هم أجادوا الحياة وهو أجاد الكلام عنها..

(رازي): لكن يبقى التعلم واجبًا على الجميع

(نظام): نعم العلم والتعلم واجب وحق للجميع، والقراءة والكتابة هي البوابة الفطرية التي يتوق الإنسان للعبور منها متجاوزًا أميّته إلا أن الإصرار على الإجبار وإقحام الجميع في التعليم الأكاديمي

المتقدم نجم عنه تشوهات كثيرة، في حين أن الكثير من الدول المتقدمة قد قامت على إثر أولئك الذين يتبعون شغفهم ليخبرونا أن التعليم العالي ليس واجبًا على الجميع بل من حق الجميع الرغبة في السعي لتعلم ما يستهوونه.

(رازي) ضاحكًا: فجأة أحسست أن أدوارنا انعكست!

(نظام) مبتسمًا: نحن على النهج والخط أنفسهما نسير ولكن الفرق هو أننا نتحدث بعضنا مع بعض دون إصدار أحكام مسبقة..

في تلك اللحظة عادت (حنين) وسحبت الكرسي بجانب (رازي) وجلست عليه وهي متحمسة وقالت لـ (نظام): أنا جاهزة!

(رازي) لـ (حنين) المتحمسة: جاهزة لماذا؟

(حنين) لـ (رازي): السيد (نظام) يقول بأننا سنأخذ دروسنا معًا ابتداءً من اليوم.

(رازي) موجهًا نظره لمعلمه: هل هذا صحيح؟

(نظام): نعم.. هل تمانع؟

(رازي) مبتسمًا: بالطبع لا.. لكن أنا ما زلت في البداية!



(نظام): لقد تقدمت كثيرًا واجتهادك أثمر وأصبحت مقاربًا جدًا لمستوى (حنين) ومنذ اليوم سنأخذ بعض الدروس المتقدمة وستكون فروضكما مشتركة.

(رازي) بسعادة: حسنًا لنبدأ!

(حنين) بسعادة مماثلة: نحن جاهزان!

انتهى الدرس المشترك في يومه الأول ورحل الاستاذ (نظام) تاركًا (رازي) و(حنين) يتذمران من كمية الفروض التي أعطاهما إياها:

(حنين) وهي تقلب صفحات كرّاستها: يبدو أن الأستاذ (نظام) يريد تطفيشنا من التعلم..

(رازي) ممسكًا القلم: على العكس تمامًا.. أجد أن هذه الفروض تشكل تحديًا جميلًا لي.

(حنين) بتذمر: ومتى يمكن أن أنجز هذا كله؟ بقي ساعة على موعد الغداء ويجب أن أذهب وأعاون أمي في المطبخ.

(رازي) وهو منهمك في حل فروضه: ماذا أقول أنا إذًا؟ يجب أن

أذهب للمصنع بعد الغداء مباشرة ولا أعود منه إلا منهكًا.. ليس لدي غير هذه الساعة

(حنين) مقتربة منه ومطلّة على ما يكتب: لمَ لا تأخذ الكراسة معك وتنهي فروضك في المصنع؟

(رازي): لا أستطيع فالسيد (مالك) لا يحب أن أنشغل بأمرٍ آخر، ثم إن العمل بالمصنع لا ينتهي.

(حنين): هل تريد مني مساعدتك؟ أملك وقتًا كثيرًا في المساء.

(رازي) باسمًا وهو مستمر بالكتابة ونظره على صفحات الكراسة: لا، شكرًا يا (حنين).. ساعة ستكون كافية لإنهاء فروضي كلها.

(حنين) واضعة كفها على كتف (رازي): صدقني أستطيـ..

قوطع حديثهما بصوت (مريم) التي دخلت للتو غرفة الطعام وقالت: ماذا تفعلين يا (حنين)؟

(حنين) رافعة يدها من عليه: كنت فقط أحاول أن..

(مريم) مقاطعة لها مجددًا وبنبرة هادئة لكن صارمة: اذهبي للمطبخ وعاوني أمك

(حنين) تنهض خافضة رأسها: أمرك!



أمسكت (حنين) بكراستها وتوجهت للمطبخ بينما كان (رازي) منهمكًا في الكتابة، سارت (مريم) بخطواتٍ بطيئة حتى توقفت بجانبه وقالت: كيف كان درسك اليوم؟

(رازي) واندماجه ينقطع موجهًا نظره خلفه: جيدًا..

وقف (رازي) احترامًا لها لكنها وضعت يدها على كتفه وأجلسته برفق وهي تقول: أكمل.. لن أقاطعك..

تبسم (رازي) وجلس واستأنف ما كان يقوم به وبقيت (مريم) تراقبه بصمت..

طالت مدة وقوفها خلفه مما شتت تركيزه لقربها منه ورؤيته لها من طرف عينه فتوقف مجددًا والتفت إليها وقال: لمَ لا تجلسين بدل الوقوف؟

هزت (مريم) رأسها بالنفي وربتت على كتفه ورحلت دون أن تقول شيئًا..

أكمل (رازي) إنهاء فروضه الدراسية وتزامن انتهاؤه منها مع بدء الخدم بوضع أطباق الغداء على الطاولة فحمل كرّاسته وأقلامه

ووضعها داخل حقيبته ونهض وهم بالخروج فاستوقفته (حنين) وهي تضع إناءً كبيرًا وسط الطاولة وقالت له: إلى أين؟ ألن تتناول وجبة الغداء؟

(رازي) مكملًا طريقه خارجًا: بلى.. لكني سأذهب لغرفتي لأغتسل وأعود فورًا.

(حنين) باسمة: سنكون في انتظارك!

قبل أن يضع (رازي) قدمه على أول عتبة من السلم المؤدي للطابق العلوي لمح باب مكتب السيدة (مريم) يفتح ويخرج منه رجل لم يره من قبل يحمل معه حقيبة دبلوماسية سوداء ويسير متوجهًا نحو باب الخروج من القصر حيث كان (جابر) في استقباله وبدا أنه هو من أحضره وسوف يعيده من حيث أتى لأنه أخذ الحقيبة منه وقاده للسيارة المتوقفة بالخارج. أثار ذلك المشهد فضول واستغراب (رازي) لكنه لم يتطفلْ ولم يحاول سؤال (مريم) بعد ما جلسا معًا إلى مائدة الغداء التي لم تمس منها السيدة سوى بضع ملاعق من الحساء اكتفت بها ونهضت بعد ما مسحت فمها بمنديل قماشي أبيض. خرجت السيدة من غرفة الطعام تاركة (رازي) في حيرة



من أمره فهي لم تتحدث معه كما اعتادت ولم تنظر حتى لوجهه إلا مرة أو مرتين خلال تناولهما الغداء، وكان جليًا أنها مستاءة من أمر ما وما زاد حيرته هو ذلك الرجل الغريب الذي شاهده يخرج من مكتبها سابقاً. شخص آخر غير (رازي) كان سيلح بالسؤال عليها حتى يعرف ما بها لكن طبيعته وتربيته لم تغرسا فيه حب التطفل على الآخرين فقرر الجلوس وانتظار (جابر) حتى يعود ويقله للمصنع.

أمضى (رازي) وقته على مائدة الطعام يتصفح كراسته بصمت بينما رفع الخدم الأطباق ومن بينهم (حنين) التي سألته: لمَ لم تذهب للمصنع اليوم؟

(رازي): لم يعد (جابر) بعد من مشواره.. أعتقد أنه يقوم بإيصال أحد معارف السيدة (مريم).

(حنين) باستغراب: من تقصد؟

وصف (رازي) شكل الرجل صاحب الحقيبة الدبلوماسية السوداء لها فاتسعت عيناها وقالت مستذكرة بابتسامة عريضة: آها! تقصد الطبيب (ناجي)؟!

(رازي): طبيب؟ هل السيدة مريضة؟



صوت (صباح) مقاطعًا حديثهما من الخلف: لمَ أنت واقفة يا (حنين)؟ هيا أكملي عملك!

(حنين) رافعة صينية محملة بالكؤوس الفارغة: حاضر يا أمي.

رحلت (حنين) تاركة أمها تحدق بعيني (رازي) المتسائلتين لثوانٍ قبل أن تستدير وتلحق بها للمطبخ..

بعد أقلّ من نصف ساعة قضاها (رازي) وحده سمع الباب الرئيس يطرق فنهض حاملًا حقيبته وفتحه ليرى (جابر) يقف أمامه، وما أن رآه حتى مد يده لأخذ حقيبته قائلًا: المعذرة على التأخر يا سيد (رازي).

(رازي) وهو يمد حقيبته له: لا بأس لا ذنب لك.

ركب الاثنان وانطلقا نحو المصنع وبعد وصولهما ترجل (رازي) من السيارة وأخذ حقيبته من السائق وقال له: أراك نهاية اليوم..

(جابر): سأكون بانتظارك بالخارج كالمعتاد.. يومك سعيد يا سيدي.

سار (رازي) نحو بوابة المصنع وتوجه مباشرة كما اعتاد كل يوم



لمكتب (مالك) وطرق الباب ودخل عليه بعد ما أذن له وقبل أن يجلس أمامه قال له بتجهم: لمَ تأخرت؟!

جلس (رازي) ووضع حقيبته في حجره وقال: السيدة (مريم) احتاجت السائق اليوم لذا انتظرته حتى ينتهي من مشواره.

(مالك) بنبرة اختلط فيها التهكم والاستفزاز: إلى متى وأنت تتظاهر بالبراءة؟

(رازي): عن ماذا تتحدث؟

(مالك): لا تظن أني لا أرى ما تقوم به.. أنا الشخص الوحيد الذي يعرف نواياك وما تحاول القيام به.

(رازي) بشيء من البرود وعدم المبالاة: أنر بصيرتي إذًا.

(مالك): ليكن في علمك أن (مريم) ليست بالسذاجة التي تظن ولن تقع فريسة لك ولمخططاتك.

(رازي): هل لديك شيء آخر تريد قوله؟ لدي أعمال أريد إنجازها!

(مالك) بعبوس: نعم لدي ما أريد قوله..

(رازي) بتململ: تفضل يا (مالك).

(مالك) بغضب: سيد (مالك)! هل نسيت نفسك؟!

(رازي) زافرًا بتضجر: سيد (مالك)..

(مالك): لمَ لا تبتاع لنفسك سيارة أو حتى دراجة وتأتي في مواعيدك؟! السيدة لديها مشاغلها الخاصة ولا يمكنك استغلالها للأبد.

(رازي): فعلًا.. معك حق!

(مالك) مستغربًا من تأييد (رازي) لكلامه: حقًّا؟ أقصد نعم أعرف أني محق!

(رازي): لذلك سوف أتحدث معها اليوم بهذا الخصوص.

(مالك): هل ستطلب منها أن تبتاع لك سيارة مثلما وفّرت لك السكن والمأكل والمشرب؟

(رازي): لا.. سوف أبتاعها من راتبي.

(مالك) بتوتر: راتبك؟

(رازي): نعم.. لقد علمت قبل عدة أسابيع أنّ السيدة (مريم) قد أمرتك بصرف راتب شهري لي منذ أول يوم بدأت العمل فيه بالمصنع وقد سألتني إن كنت قد استلمته..



(مالك) وتوتره يزداد: وبماذا أجبت؟

(رازي): أعتقد أنك تعرف ماذا كانت إجابتي لأنك لا تزال جالسًا هنا وتزاول عملك.. لم أخبرها بأنك لم تعطني فلسًا واحدًا عن الأشهر الماضية التي قضيتها هنا لكن هذا الأمر سينتهي الآن بما أنك تحثني على الاعتماد على نفسي.

صمت (مالك) وقطرات العرق أخذت بالتجمع على جبينه..

وقف (رازي) وقال قبل أن يهم بالخروج: سوف أعرج بالمحاسب نهاية النهار وإذا لم أجد جميع رواتبي المتأخرة بانتظاري فسأكون مضطرًا لإخبار السيدة (مريم) كي تتقصى عن مصير تلك المبالغ.. أتمنى لك يوماً جميلًا..

خرج (رازي) من المكتب تاركًا (مالك) يضرب أخماسًا في أسداس..

نهاية يوم العمل بالمصنع وخلال رحيل العمال تباعًا توجه (رازي) لمكتب المحاسب ووجد أنَّ (مالك) قد وجهه بصرف جميع رواتبه المتراكمة والتي تسلمها منه دفعة واحدة ليخرج بعدها ويرى (جابر) يقف بجانب السيارة بانتظاره.

(جابر) يفتح باب المقعد الخلفي للسيارة بعد ما أخذ الحقيبة: كيف كان يومك يا سيدي؟

(رازي) وهو يركب السيارة: مثمرًا..

أغلق (جابر) الباب وركب واضعًا الحقيبة على الكرسي بجانبه ثم أدار المحرك وسار متوجهًا نحو القصر. بعد مضي ما يقارب نصف ساعة من الطريق تحدث (رازي) وقال: منذ متى وأنت تعمل عند السيدة (مريم)؟

(جابر) وقبضتاه على المقود ونظره أمامه: سنين طويلة.. في الواقع كنت أعمل عند والدها قبل وفاته، وكان سبب تعيينه لي هو كي أكون سائق السيدة (مريم) الخاص عندما بدأت يومها الأول في المدرسة

(رازي): سنين طويلة إذًا

(جابر): نعم.. وقد يكون هذا سبب تمسك السيدة بي بالرغم من تقدمي في العمر وقدرتها على الحصول على سائق آخر أكثر كفاءة مني.

(رازي): لا أرى منك أي تقصير لتقوم بذلك، ثم أنت تملك شيئًا آخر أهم من الكفاءة مع أنك لا تفتقر إليها.

(السائق): ما هو يا سيد (رازي)؟

(رازي): الأمانة والثقة.. هاتان من الخصال النادرة التي لا يمكن إيجادها بسهولة ناهيك عن أنها غالبًا تعتبرك جزءًا من عائلتها أكثر من كونك مجرد موظف عندها.

(جابر): شكرًا يا سيدي على هذا الإطراء.

(رازي): لا شكر على حقيقة يا (جابر)..

صمت الاثنان بعد هذا الحوار لعدة دقائق أخرى عاود بعدها (رازي) الحديث وقال: هل قيادة السيارات صعبة؟

(جابر) مبتسمًا وعيناه على الطريق الممتد بالأفق: لا يوجد شيء صعب بالتعلم يا سيدي!

(رازي): صحيح.. هل يمكنك تعليمي؟

(جابر): سيكون ذلك من دواعي سروري.. متى تحب ذلك؟

(رازي): لا رغبة لي بأن أقتطع من وقتك المخصص للسيدة.

(جابر): يوم الجمعة هو إجازتي.. هل تحب أن نخصص وقتًا لتعلم القيادة خلاله؟

(رازي): هذه فرصتك الوحيدة للراحة ولا أريد أن أحرمك منها!

(جابر) مبتسمًا: لن تحرمني من شيء يا سيدي.. أنا لست متزوجًا ولا أملك عائلة تشتاق لي وأمضي معظم نهار إجازتي في غرفتي الصغيرة بسكن العمال وسيكون ذلك تغييرًا جميلًا.

(رازي): أريد أن أسألك عن هذا السكن.

(جابر): ما به؟

(رازي): هل يوجد به غرف شاغرة للسكنى؟

(جابر): نعم كثيرة.. هذا المبنى لا يسكنه سوى البستاني وأنا وثلاثة من الخدم الرجال أما البقية فيقيمون بالقصر.

(رازي): جيد.. موعدنا الجمعة إذًا.

وصل (رازي) كالعادة بعد المغرب بقليل وترجل من السيارة بعد ما فتح له (جابر) الباب وقال: هل تأمرني بخدمة أخرى يا سيدي؟

(رازي) سارحًا بمدخل القصر حيث لم تكن (مريم) بانتظاره كالمعتاد: لا.. شكرًا يا (جابر).

حتى السائق رأسه بعد ما مد الحقيبة له وركب السيارة ورحل..

بقي (رازي) لعدة دقائق ممسكًا حقيبته الجلدية يحدق بعتبة القصر الخاوية متحسسًا فص القلادة الفضية بأنامله قبل أن يخطو خطوات بطيئة نحو مدخله ويطرق بابه..

فتحت (حنين) الباب واستقبلته بابتسامة عريضة وقالت: مرحبًا! كيف كان يومك؟!

(رازي) وعيناه تجولان في البهو: جيدًا.. أين السيدة (مريم)؟

(حنين): خلدت للنوم

(رازي) موجهًا نظره لـ (حنين): ماذا؟ ليس من عاداتها أن تنام في هذا الوقت المبكر

(حنين): لا أعرف.. لقد أخبرتنا بأنها لن تتناول العشاء اليوم وذهبت لغرفتها

(رازي): متى كان ذلك؟

(حنين) مستذكرة: نهاية العصر تقريبًا.

(رازي) يسير لوسط البهو بوجه اختلطت فيه تعابير الاستغراب

والتشتت: لعلها متعبة..

(حنين) مغلقة الباب: العشاء جاهز يا سيد (رازي).

(رازي) مكملًا سيره نحو السلم المؤدي للطابق العلوي: لا رغبة لي

بالأكل.. تصبحين على خير.

صعد (رازي) للطابق العلوي تاركًا (حنين) في حالة من التعجب..

قشور القلب التعيس

منذ ذلك اليوم تغيرت أمور كثيرة خاصة بين السيدة (مريم) و(رازي) فهي لم تعد تحتك به كثيرًا كالسابق ولم يعد يصادفها إلا نادرًا وتكون أحاديثهما مختصرة ومقتضبة، ولم يحدث بينهما أي حديث مطول سوى مرة واحدة في أحد الأيام عندما خرجت من مكتبها قرابة التاسعة صباحًا وتوجهت لغرفة الطعام متوقعة أن تجد السيد (نظام) مع (رازي) و(حنين) مجتمعين لتلقي الدرس اليومي لكنّها لم تجد أي واحد منهما فسارت عائدة للبهو، وخلال سيرها شاهدت القلادة الفضية ملقاة على الأرض فحملتها وتفحصتها بأصابعها ونظرها للحظات رفعت بعدها عينها نحو باب القصر حيث أتت من خلفه بعض الأصوات المرتفعة أشبه بخليط من الصراخ والضحك. قبل أن يكون للسيدة أية ردة فعل سمعت (صباح) تحدثها من خلفها قائلة: صباح الخير سيدة (مريم).. لقد افتقدناك على وجبة الإفطار هذا الصباح.. هل ترغبين مني أن أعيد تحضير المائدة؟

(مريم) سارحة في مدخل القصر بأعينها وأذناها لا تزالان تنصتان لتلك الضحكات البعيدة من خلفها: ألم يحضر السيد (نظام) اليوم؟

(صباح): لا.. لقد اتصل باكرًا وقال بأن ابنه مريض ولا يستطيع الحضور.

(مريم) سارحة في القلادة بكفها: أين ذهب (رازي) إذًا؟

(صباح) ضاحكة: خرج مع (حنين) للحديقة ليلعبا الكرة، أظن أنهما كانا سعيدين جدًا بهذه الإجازة التي لم تكن بالحسبان!

قبضت (مريم) على القلادة ثم رفعت نظرها للباب وسارت نحوه وفتحته وخطت بضع خطوات للخارج، توقفت بعدها وأخذت تراقب (رازي) و(حنين) وهما يلعبان ويركلان الكرة ويتبادلان الضحكات..

وقفت (صباح) خلف سيدتها وقالت: هل تأمرينني بشيء يا سيدتي؟

(مريم) السارحة في (رازي) و(حنين): لقد دخلت قبو المطبخ بالأمس وكان متسخًا جدًا.. متى كانت آخر مرة قمتم بتنظيفه؟

(صباح): قبل أسبوع فقط

(مريم): لم تقوموا بعمل جيد.. عاودوا تنظيفه بالكامل بعد أن تفرّغوا محتواه

(صباح): أمرك.. سوف أوجه العاملات ليبدأن فورًا..

(مريم): لا.. لا تشغليهن عن أعمالهن.. اطلبي من (حنين) أن تقوم بذلك.

(صباح): (حنين)؟

(مريم): نعم.. هل هناك مشكلة؟

(صباح): لا أبدًا يا سيدتي.. سوف أطلب من بعض الخدم أن يعاونوها كي تنتهي منه بأسرع وقت.

(مريم) وعيناها تراقبان (رازي) و(حنين) يلعبان في الأفق: لا.. هي وحدها.. لا تشغلي البقية عن أعمالهم الأخرى..

(صباح): لكن يا سيدتي سيستغرق العمل زمنًا أطول بهذا الشكل

(مريم): أعرف..

(صباح) حانية رأسها: حاضر كما تشائين



نادت الأم على ابنتها فجرت نحوها ودخلتا القصر تاركتين (رازي) يسير والكرة بيده حتى توقف أمام (مريم) التي قالت: «هل استمتعت؟»

(رازي) رافعًا الكرة لصدره ويتنفس بسرعة ضاحكًا: منذ فترة طويلة لم أتحرك بهذا الشكل لكني انتصرت عليها!

مدت (مريم) القلادة الفضية له وقالت بهدوء لكن بنبرة تهكمية ساخطة: مبارك.. هذه جائزتك..

وضع (رازي) يده على صدره متحسسًا بعد ما شاهد القلادة في يد (مريم) الممدودة له وقال بتعجب والعرق يتصبب من جبينه: يبدو أنها وقعت مني عندما خرجنا على عجالة

(مريم) ويدها لا تزال ممدودة له: لا بأس.. الأشياء غير المهمة بالنسبة لنا لا نشعر بها عند فقدانها..

أخذ (رازي) القلادة وتقلدها ولم يقل شيئًا لأنه أحس في نبرة كلام (مريم) الكثير من المشاعر المشحونة ولم يكن أيٌّ منها يعبر عن الرضا أو السعادة ولم يرغب في إثارة حفيظتها أكثر.

بعد هذ الموقف أحسَّ (رازي) أن الوقت قد حان لأن يستقل بنفسه أكثر، وأن يبدأ بأخذ خطوات نحو تخفيف اعتماده على السيدة (مريم) في شؤونه الشخصية خاصة فيما يتعلق بأمور حياته الأساسية كالمسكن والمأكل والمشرب، فاستغل الأسابيع التي تلت ذلك اليوم في تعلم القيادة مع (جابر) وبعد ما أتقنها قام بشراء سيارة خاصة من المال الذي حصل عليه من رواتبه واستقلها للذهاب للمصنع بنفسه كل يوم.

لم يمضِ زمن طويل بعد اقتنائه للسيارة حتى طلب من السيدة (مريم) في أحد لقاءاتهما العابرة أن تسمح له بأن يقيم في إحدى الغرف في السكن المخصص للعاملين، وبالرغم من تساؤلها عن سبب طلبه إلا أنها لم تقاوم كثيرًا أو تناقش قراره الذي برره برغبته بأن يكون على راحته، وأن مكانه الطبيعي هو هناك وليس وسط القصر. حققت السيدة رغبة (رازي) وخصصت له أفضل غرفة في السكن وفي اليوم نفسه علمت بأنه قد ابتاع سيارة وكان يستخدمها للذهاب للعمل منذ فترة فقالت له وهي تقف عند باب غرفته بالطابق العلوي تراقبه يقوم بجمع وتوضيب أغراضه

للانتقال لغرفته الجديدة: لم أعرف أنك تعلمت القيادة واقتنيت سيارة مؤخرًا

(رازي) وهو منهمك في جمع ملابسه في حقيبته: أشياء كثيرة حدثت خلال غيابك

(مريم): غيابي؟ ماذا تقصد؟

(رازي) مغلقًا الحقيبة: أعتذر يا سيدة (مريم).. لم أقصد شيئًا بما قلته، تجاهلي الأمر

(مريم) بغصة: تبدو متلهفًا للخروج من هنا!

(رازي) حاملًا الحقيبة موجهًا نظره لعيني (مريم) الحزينتين: لا أريد أن أكون ضيفًا ثقيلًا أكثر من ذلك.

(مريم) وعيناها تلمعان بدموع تصارع للخروج: أنت لم تكن يومًا ثقيلًا عليّ.

(رازي): أعرف وأنا ممتنٌّ لكل شيء قدمتِه لي.. أنا رجل مختلف الآن.. رجل أفضل.. وهذا كله بسببك.

(مريم): أنا لم أقدم لك شيئًا لا تستحقه أو لم تكن ستحققه أنت

بنفسك.. لم أكن سوى خطوة من خطواتك العديدة التي ستخطوها في حياتك، وأنا سعيدة أني كنت من ضمن تلك الخطوات الأولى في طريقك نحو حياة أفضل.

(رازي): بل أنتِ شمسٌ مشرقةٌ في سمائي تُنير طريقي الطويل الذي أسير فيه ولو غابت لأصبحت حياتي مظلمة وتهت في غياهب هذا العالم.. بكِ أصبحت ومعكِ سأكون ولو كنت سأسخر نفسي لشيءٍ واحدٍ في هذه الدنيا فسيكون فقط لإسعادك كما أسعدتني، فأنتِ الوحيدة التي آمنت بي عندما كفرت بنفسي، وأنت من شد على ذراعي وقادني بكل صبر وحلم نحو جبل طموحه بي حتى رأيت من فوق قمته سعادتي المنبسطة كمرج من الزهور الممتدة في الأفق، وأشرتِ بأصبعك وقلتِ: «اذهب.. حياتك السعيدة بانتظارك»..

وضعت (مريم) كفَّها على فمها وأنزلت رأسها محاولة عدمَ إظهار حزنها الشديد، وكتمَ دموعها التي تصرخ محاولة التفجر من محاجرها، واكتفت بالصمت ونبضات قلبها تدق كطبول الحرب..

أخذ (رازي) بضع خطوات نحوها حتى أصبح أمامها مباشرة وقال: لكنّي لم أر سعادتي في ذلك المرج من فوق قمة الجبل..

رفعت (مريم) رأسها وكفُّها لا تزال تغطي فمها لكن دموعها تمكنت من الهرب وانسابت على وجنتيها وظهر كفّها وحدقت بعينين محمرتين بـ (رازي) ولم تقل شيئًا وأكمل رازي كلامه قائلًا:

«سعادتي كانت تقف بجانبي.. تمسك بي.. تحاول بكل جوارحها أن تبحث لي عن شيء كان يظهر في لمعة عينيها في كل مرة أتحدث معها.. في ابتسامتها التي تحاكي ابتسامتي.. في خوفها لقلقي وحزنها لضيقي.. في تضحياتها التي قدمتْها دون منّة أو مقابل.. كنت أحمق لأني لم أدرك ذلك من قبل.. كنت مصابًا بالعمى وأنتِ حولي وما أن شعرت بأن قمرك سينزوي عني استعدت بصري وبصيرتي وأدركت.. أدركت.. أني أحبك وأعشقك أكثر من نفسي التائهة بدونك.. فلا تحدثيني عن سعادة بدونكِ أو حياة بعيدة عنكِ..»

(مريم) بصوت متحشرج بحزن خانق قابض على عنقها: هل تعني ما تقوله؟ هل هذا الحديث من قلبك؟

(رازي) واضعًا حقيبته جانبًا: عقلي يغيب بحضورك وقلبي هو من يتولى زمام الأمور وكل ما أقول أو أقوم به معك هو من تدبيره..

فردت (مريم) ذراعيها وعانقت (رازي) عناقًا طويلًا لم يتخلله أي حديث عدا أنفاسًا طويلة وزفرات ثقيلة..

تراجع (رازي) عن فكرة استقلاله ليتحول إلى مشروع ارتباط بـ (مريم) فقد تقدم بطلب الزواج منها في اللحظة نفسها التي فكّت فيها ذلك العناق الطويل فوافقت على الفور دون تردد لكنها أعربت عن رغبتها بأن يتم الزواج بمراسم بسيطة جدًا دون تكلف فلم يمانع (رازي) وقال: «لا يهمني شيء سوى أن أكون معكِ للأبد..»

(مريم): لدي شرط بسيط قبل أن نمضي قدمًا في زواجنا.

(رازي): ما هو؟

(مريم): أن يبقى خبر خطبتنا سرًّا حتى تعود لأهلك وتخبرهم بالأمر وتدعوهم لحضور حفل زفافنا.

(رازي): حسنًا.. سنذهب معًا!

(مريم): لا.. أنت وحدك وسأكون هنا بانتظارك أقوم بالتجهيزات اللازمة للحفل

(رازي): سوف أستقل قطار الصباح وأعود في أسرع وقت.

(مريم): أفضل أن تذهب بالسيارة مع (جابر) إذا لم تمانع..

(رازي): ولِمَ أمانع.. سأتوجه غدًا للقرية مع (جابر).



(مريم) مبتسمة: لا تغب طويلًا.. سأشتاق لك.

(رازي): أنا من سأكون على نار لن تنطفئ إلا برؤيتك مجددًا..

عند الفجر وقبل إشراق الشمس بنصف ساعة تقريبًا استيقظ (رازي) وأخذ حمامًا سريعًا ولبس أفضل ملابسه ووضع غيرها في حقيبة صغيرة وأغلقها وشد مقبضها ونزل للطابق الأرضي ليجد (مريم) تقف مع (صباح) بانتظاره وبيدها سلة صغيرة مدّتها له باسمة وقالت: رحلة سعيدة..

(رازي) وهو يأخذ السلة: ما هذه؟

(مريم): بعض الطعام لرحلتك.. (جابر) بانتظارك في الخارج!

(رازي) مبتسمًا محاولًا عدم إظهار أيٍّ من مشاعره أمام (صباح): شكرًا سيدة (مريم)! .

(مريم) تبادله الابتسام قائلة: سأخبر (مالك) بأنك في إجازة لمدة ثلاثة أيام.. هل يكفيك ذلك؟

(رازي): نعم.. لن أغيب أكثر من يوم واحدٍ أو يومين كحد أقصى.

(مريم): رافقتك السلامة.. سوف أبدأ بالتجهيزات الخاصة باتفاقنا بالأمس.

خرج (رازي) ومد الحقيبة لـ (جابر) وركب السيارة وتحرك متوجهًا لقريته..

وقفت (مريم) عند عتبة باب القصر تراقب السيارة وهي تبتعد حتى اختفت في الأفق ثم قالت لـ (صباح) الواقفة خلفها وعيناها تراقبان الضوء الأحمر الذي بدأ يبدد ظلمة السماء: «اتصلي بالسيد (حازم).. أريد مقابلته في المساء»

(صباح) حانية رأسها: أمرك يا سيدتي!

بعد رحلة طويلة استغرقت عدة ساعات وصل (رازي) نهاية وقت العصر لقريته الصغيرة، توجّه بعدها للنزل فوق قمة التلة وقام بحجز غرفة لمدة يومين لكنه لم يدخلها وذهب مباشرة مع (جابر) لمنزل أهله بعد ما أرشده للطريق المؤدي إليه، وبعد توقفهما بالقرب من مدخله فتح (رازي) النافذة من مقعده الخلفي وبقي يتأمل البيت الصغير بصمت.

(جابر): هل هذا هو المكان الصحيح يا سيدي؟

(رازي): نعم..



نزل (جابر) وفتح الباب الخلفي لـ (رازي) قائلاً : هل ترغب أن أطرق الباب؟

(رازي) وهو يترجل من السيارة: لا.. انتظرني هنا فقط.

(جابر): حاضر!

طرق (رازي) باب منزلهم الخشبي المتهالك بالرغم من معرفته بأنه لن يكون مغلقًا في هذا الوقت من اليوم لكنّه لم يحب أن يدخل فجأة على أهله بعد غياب شهور طويلة، وقضى دقائق الانتظار في ترتيب هندامه وإخفاء فص القلادة الفضية وراء قميصه وإغلاق أزرار بدلته وشد ربطة عنقه، وخلال قيامه بذلك فُتح الباب فوجه نظره مباشرة لمن فتح له ورأى أمه التي استقبلته بعبوس أتبعته بإغلاق درفة الباب في وجهه بقوة.

حزن (رازي) لردة فعل أمه لكنه لم يستغربها وكان إلى حد ما متوقعًا لها فأمسك المقبض وأداره ودخل المنزل وشاهدها جالسة على كرسي أبيه تحدق بالجدار ولم تكترث لدخوله أو تنظر تجاهه فسحب كرسيًا من طاولة الطعام الصغيرة وجلس بالقرب منها وقال: كيف حالك يا أمي. اشتقت لكِ؟

لم تجب عليه وبقيت صامتة تنظر أمامها بوجه متجهم..

(رازي) ملتفتًا خلفه: أين أبي؟

لم تجب أمه عليه واكتفت بالعبوس والنظر أمامها..

مد (رازي) يده ووضعها على يد أمه المسند على ذراع الكرسي وقال: سامحيـ..

سحبت الأم يدها وقالت دون أن تلتفت نحوه: لمَ عدت؟ ماذا تريد؟

(رازي): كنت سأعود عاجلًا أم آجلًا.. لقد رحلت كي أبني مستقبلي وأحقق طموحاتي

(الأم) بنبرة ساخرة وساخطة: وهل حققتها؟!

(رازي): حققت الكثير.. أكملت تعليمي وأصبحت موظفًا في مصنع كبير وتعلمت قيادة السيارة وأملك واحدة اشتريتها من راتبي الخاص.. كل هذا في أقل من سنة يا أمي وما زلت أطمح للمزيد..

(الأم) بتهكم غاضب: مبارك هذا النجاح.. لا يبدو أنك بحاجة للعودة لقريتنا الفقيرة.

(رازي) واضعًا كفّه مجددًا على يد أمه: كل هذا لا معنى له بدون رضاكِ ورضا أبي.. كنت أريد أن تكونا فخورين بي خاصة أبي.

(الأم) ببرود: أخبره بذلك بنفسك كي يفخر بك!

(رازي): سأفعل.. أين هو؟

(الأم): في الحظيرة..

تبسم (رازي) ونهض قائلًا: عند (أم قنزعة) ؟! سوف أذهب إليه وأفاجئه.. لقد اشتقت إليه كثيرًا!

خرج (رازي) من المنزل وعندما رآه (جابر) يسير لخلف المنزل هم باللحاق به لكنه أشار له بالبقاء مكانه وانتظاره ففعل..

وصل (رازي) للزريبة ودفع بابها على عجالة ودخل فتطايرت الدجاجات فزعًا من دخوله لكنه لم ير أباه في المكان فخرج ينادي عليه بصوت مرتفع وبحث في كل مكان حول المنزل ولم يجد له أي أثر، فعاد لأمه ودخلَ عليها وقال لها: لم أجده يا أمي.. لقد بحثت عنه في كل مكان.. هل أنت واثقة من أنه لم يذهب للسوق؟

(الأم) وهي تنظر لأعين ابنها لأول مرة منذ وصوله: هل جربت أن تبحث عنه تحت التراب؟



(رازي) وهو مصدوم: ماذا تقصدين؟

(الأم): لقد رحل بعدك بشهرين.. تخلى عني مثلما تخليت أنت عنا.

جلس (رازي) على الكرسي الخشبي الصغير بجانب أمه ولم يقل شيئًا.. لم يبك.. لم يسأل.. بقي هادئًا سارحًا يتنفس ببطء بوجه مصدوم وعينين متسعتين..

انقطع سرحان (رازي) بعد مضي فترة من الصمت والتحديق بالأرض ورفع رأسه ووجه نظره نحو أمه عندما خاطبته بتجهم وقالت: «هل تزوجتها؟»

(رازي): من؟ السيدة (مريم)؟

(الأم): بما أنك قلت «السيدة» فمن الواضح أنك لم تفعل.. منذ أن وقعت عيني عليها أول مرة وتحدثت معها تيقنت من أنها تريد أن تخطفك مني.

(رازي): أنا لست طفلًا يا أمي كي يخطفني أحد.

(الأم): نعم صحيح والدليل على ذلك الأيام الطويلة التي غبت فيها دون أن تزورنا أو حتى تفكر بالسؤال عنا!

(رازي): تتحدثين وكأنها عشرة أعوام!

(الأم): فراق الأبناء أمر عسير ولن تفهمه إلا إذا رزقت بأطفال. وطأة اليوم علينا بسنة..

(رازي): أنا آسف يا أمي لم أقصد أن أتسبب لكما بكل هذا الألم.

(الأم): يمكنك تعويض ذلك لو رغبت.

(رازي): كيف؟ ما الذي يرضيكِ؟

أجابته الأم دون تردد: «أن تبقى معي هنا ولا ترحل مرة أخرى.. وألا تعود لتلك العزباء التي انتزعتك من أحضاني»

(رازي): لمَ لا تأتين أنت معي؟

(الأم) بعصبية: أنا لن أبرح مكاني وأترك منزلي وأهجر أباك مثلما فعلت.. أنت من سيبقى معنا لو كنت بحق تريد قربنا، وأنا مستعدة للتغاضي عن الأشهر التي قضيتها بعيدًا عنا في مقابل عودتك للأبد.

أنزل (رازي) رأسه مجددًا ووضع أنامله على صدره متحسسًا فص القلادة الفضية من وراء قميصه ولم يجب..

(الأم): ماذا قلت؟ قربي ورضاي أم قرب تلك الحرباء وسخطي؟

استيقظت السيدة (مريم) صباح اليوم التالي من رحيل (رازي) ونهضت من فراشها وفتحت باب الشرفة المطلة على الحديقة وأخذت تتنفس أجواء ذلك الصباح الجميل وتراقب البستاني وهو يمارس عمله اليومي، وخلال ذلك لمحت سيارة (جابر) في الأفق تتجاوز البوابة الرئيسة للقصر، تبسمت ببهجة بعودة (رازي) وفي الوقت نفسه ساورها القلق من تلك العودة السريعة. توجهت على عجالة وبدّلت ملابسها ونزلت للطابق السفلي حيث وجدت (جابر) يقف في بهو القصر ممسكًا بحقيبة (رازي) وقبعته تحت إبطه ورأسه منزل وبجانبه (صباح) التي فتحت له الباب.

(مريم): أين السيد (رازي)؟ هل لا يزال في السيارة؟

(جابر): لا يا سيدة (مريم) لم يأتِ معي.

(مريم) وضعت كفها على صدرها وبقلق شديد: أين هو؟ هل حدث له مكروه؟

(جابر): السيد (رازي) بخير.. لقد طلب مني فقط أن أنزله في المصنع كي ينهي بعض الأمور وسأعود لأخذه بعد ساعتين.



(مريم) زافرة بارتياح ومتنفسة الصعداء: الحمد لله

(جابر): هل تأمرينني بشيء آخر يا سيدتي؟

(مريم): كيف كانت رحلتكما؟

وجّه (جابر) نظره لـ (صباح) وكأنه لا يريد الحديث أمامها ففهمت (مريم) وقالت لها: هل مائدة الإفطار جاهزة يا (صباح)؟

(صباح) تهمّ بالرحيل: ستكون جاهزة خلال دقائق يا سيدتي.. سوف أذهب لأشرف على جاهزيتها بنفسي.

تابع (جابر) مسير (صباح) حتى تحقق من خروجها ثم قال : كانت الرحلة جيدة لكن..

(مريم): لكن ماذا يا (جابر)؟

(جابر): السيد (رازي) بدا عليه الاستياء طيلة طريق العودة ولم يتحدث معي وأعتقد انه بكى خلال الطريق مرتين

(مريم): بكى؟

(جابر): نعم.. لم يُمض وقتًا طويلًا في المنزل الذي زرناه وخرج منه وكان مستاءً جدًا.

(مريم): هل ذهبتما لمكان آخر غير المنزل الصغير؟

(جابر): لا أبدًا.. بعد خروجه منه طلب مني أن أتجوّل بالسيارة حول القرية لعدة ساعات قضاها في صمت يتأملها من النافذة إلى أن لاحظ عليّ بوادر التعب فأمرني بالعودة للنُزُل فوق التلة وأخذ قسطٍ من الراحة.

(مريم): هل بتُّما في النُزُل؟

(جابر): أنا فقط.. أنزلني وأخذ هو السيارة ورحل!

(مريم): رحل إلى أين؟

(جابر): لا أعرف.. خلدت للنوم التاسعة مساء تقريبًا وكنت مرهقًا جدًّا ولم أستيقظ إلا الواحدة صباحًا عندما أيقظني السيد (رازي) وقال: «أعتذر لإيقاظك يا (جابر) لكنني لا أستطيع البقاء أكثر في هذا المكان» فأخبرته بأني أخذت كفايتي من الراحة ويمكنني قيادة السيارة الآن وعدنا للمدينة.

(مريم): ولِمَ لم يأتِ إلى هنا مباشرة؟ لِمَ ذهب للمصنع؟

(جابر): لا أعرف يا سيدتي.



(مريم): تقول إنه طلب منك أخذه من المصنع بعد ساعتين؟

(جابر): نعم هذا ما قاله لي.

(مريم): حسنًا يا (جابر).. بعد أن توصل السيد (رازي) خذ بقية اليوم والغد إجازة كي ترتاح.

(جابر): شكرًا يا سيدة (مريم).. يكفيني اليوم فقط.

(مريم): اليوم والغد.

(جابر) حانيًا رأسه: أمرك.

هم (جابر) بالرحيل لكنه توقف وكأنه تذكر أمرًا ما وقال: لكن يا سيدتي ماذا عن موعد الطبيب؟ من المفترض أن يكون غدًا!

(مريم): لا تقلق بشأن الدكتور (ناجي) سوف أتواصل معه أنا وأخبره بأني مشغولة وسأؤجل موعدي معه لبعد الغد.

(جابر): أستسمحكِ يا سيدة (مريم)، لكن أنا لن أكون مرتاحًا إذا قمتِ بتأجيل موعدك مع الطبيب لأجلي.. أرجوك دعيني أوصله على موعده غدًا وبعدها آخذ بقية اليوم كإجازة، أرجوك.

(مريم) باسمة: حسنًا يا (جابر) كما تشاء.

رحل (جابر) بعد ما وضع حقيبة (رازي) على منضدة بجانب الباب وبعد خروجه سارت (مريم) وفتحت الحقيبة لترى القلادة الفضية مستلقية فوق ملابسه فقالت في نفسها: ما الذي حدث معك يا (رازي)؟

تقلدت (مريم) القلادة ثم أغلقت الحقيبة وتوجهت لغرفة الطعام لتناول إفطارها..

أمضت بعد انتهائها ما تبقى من الساعتين في مكتبها تعد الدقائق في انتظار عودة (رازي) لكنه لم يعد ومع مرور الوقت تزايد قلقها فنهضت وخرجت لبهو القصر متوجهة للحديقة فلمحتها (حنين) وقالت لها: إلى أين يا سيدتي؟

(مريم): سوف أذهب للحديقة أنتظر عودة السيد (رازي)

(حنين): السيد (رازي) عاد منذ نصف ساعة!

(مريم): ماذا؟.. ولمَ لم يـ..؟ .. أين هو الآن؟

(حنين): توجه لغرفته مباشرة!

(مريم): حسنًا اذهبي الآن.



(حنين): أمرك.

صعدت (مريم) السلالم المؤدية للطابق العلوي وتوجهت مباشرة لغرفة (رازي) وطرقت الباب عدة طرقات خفيفة أتبعتها بقول:

(رازي).. هل أنت بخير؟

لم يجبها أحد فأمسكت مقبض الباب وأدارته لكنها لم تدفعه وترددت بالدخول دون أن يأذن لها (رازي) فكررت سؤالها مرة أخرى وقالت: هل تسمح لي بالدخول؟

(رازي) من خلف الباب: تفضلي..

دخلت (مريم) لتجده جالسًا على الأرض مسندًا ظهره لطرف السرير يضم ساقيه بذراعيه لصدره سارحًا أمامه..

(مريم) تسير لداخل الغرفة وبنبرة قلقة: ما بك؟ ما الذي حدث؟

(رازي) بصوت مشبع بالهمّ والحزن: لم يحدث شيء.

جلست (مريم) بجانبه وقالت: هل قابلت أهلك؟

(رازي) زافرًا: نعم..

(مريم): لمَ لم يحضرا معك؟ هل هما غير موافقين على زواجنا؟



(رازي): هل موافقتهما من عدمها ستحول بيننا؟

(مريم): لا.. لا يهمني سواك أنت.

(رازي): فلننس الموضوع إذًا.

(مريم): ما الأمر؟ لمَ كل هذا الضيق؟

(رازي): الأمور تتسارع بشكل كبير.. أكبر من أن أستوعبها!

(مريم): أنا محقة إذًا في سبب عدم قدوم أهلك معك، كلامك يعني أنهما رفضا زواجك مني وهذا هو سبب حزنك.. هل أنت متردد أو تساورك الشكوك بشأن ارتباطنا؟

(رازي): على العكس تمامًا.. لست واثقًا من أمر بقدر ارتباطي بكِ الآن خاصة بعد زيارتي للقرية.

(مريم): شاركني.. أخبرني بما يشغل قلبك..

(رازي): كل ما يشغلني الآن هو أن أمضي بحياتي.. معكِ.. معكِ فقط.. اليوم الذي غبته بعيدًا عنكِ وما عصف به من أشواق مؤلمة جعلتني أدرك مدى تعلقي بكِ.. عندما شعرت بالضيق لم أفكر بغير حضنكِ ليواسيني ولم أجده.



تبسمت (مريم) وقالت: والدليل على ذلك هو أنّك توجّهتَ للمصنع ولم تأتِ إلى هنا مباشرة!

(رازي): كنت مستاءً جدًا ولم أشأ أن أقابلك وقلبي مشحون ففضلت أن أصبَّ جام غضبي على (مالك) قبل أن آتي إلى هنا كي أكون هادئًا.

(مريم): كنت أفضل أن تلجأ إليَّ.. لا حتى في غضبك..

(رازي): لا أعتقد أنك كنت ستطيقينني وقتها فقد كنت في حالة سيئة جدًّا.

(مريم): من يحب شخصًا يحبه في كل حالاته وأنا أريد أن أكون كل شيء في حياتك وقبلتك عندما تتيه في الدنيا والحضن الآمن لك من غدرها..

(رازي): ما زلت لا أرى في نفسي ما ترينه فيَّ!

(مريم): ولن تراه إلا لو أخذت عينيَّ وقلبي ورأيت نفسك بها.. إن كنت تشتاق بغيابي فأنا شوقي يحرقني حتى وأنت أمامي.

(رازي): لو كان الأمر بيدي لما فارقتك ثانية واحدة.

(مريم): احفظني بقلبك وسأكون معك دومًا في حلك وترحالك..

(رازي): سأفعل.

(مريم) ضاحكة وممازحة: ولا تعاملني كالقلادة التي أهديتك إياها وترميها جانبًا في كل فرصة تواتيك!

(رازي) لامحًا القلادة على عنقها مستذكرًا أنه خلعها ووضعها في الحقيبة خلال طريق العودة: كنت أشعر بالضيق و..

(مريم): لا تكمل.. لا تبرر لي أمرًا لا يمكنك تغييره.

مد (رازي) يده لأخذ القلادة لكن (مريم) غطت فصَّها بكفها وقالت: اتركها معي.. أنا أفهم لمَ تخلعها على الدوام وقد تقبلت ذلك.

تبسم (رازي) وقال: شكرًا..

(مريم): على ذكر المصنع.. أريد أن أخبرك بشيء.

(رازي): ما هو؟

(مريم): أريدك أن تتولى إدارته بدل (مالك).

(رازي): أرجوك أعفِني من هذه المسؤولية.



(مريم): أنا لا أطلب مشورتك لقد اتخذت قراري وأبلغت المحامي المسؤول لينهي إجراءات تعيينك.

(رازي): لم يكن عليكِ القيام بذلك!

(مريم): أعرف لكن هذه رغبتي.. أنا لا أثق بأحد كثقتي بك وأنت الآن ستصبح زوجي وهذا ما أريده.

(رازي): ستلاحقني الاتهامات والأقاويل.

(مريم): لا تكترث لأحد.. أرجوك لا تسمح لكلام الناس بأن يؤثر على علاقتنا.

(رازي): موافق لكن بشرط أن تقومي بتأجيل هذا الأمر لفترة وجيزة..

(مريم): ولِمَ التأجيل؟

(رازي): أحتاج وقتًا فقط كي أتأقلم لا أكثر.. أرجوك.

(مريم) باسمة: حسنًا يا (رازي) لك ما تشاء.. أخبرني الآن.. ما هو أول قرار لك بعد ما تتولى إدارة المصنع؟

(رازي) بدون تردد: سوف أطرد (مالك)..



(مريم) باستغراب: ماذا؟ لم أتوقع هذه الإجابة.. لمَ تريد القيام بذلك؟

(رازي): لأنه يسرقك وتجاهلت الأمر كثيرًا لأنه ابن عمك لكني الآن لا أستطيع السكوت عنه أكثر.

(مريم): أعرف أنه يسرق من دخل المصنع.. أعرف منذ زمن طويل..

(رازي) بتعجب: لمَ لم تعاقبيه إذًا؟

(مريم): بعد أن بدد أمواله كلها كان معرضًا للسجن بسبب الديون المتراكمة عليه.. قمت بسدادها كلها وعينته مديرًا للمصنع كي يصحح من مسار حياته ويقف على قدميه مجددًا.. قد ترى أني غبية لقيامي بذلك لكني رأيت أن هذا ثمن زهيد دفعته كي لا أخسر آخر فرد بقي لي من عائلتي.

(رازي): أنا عائلتك الآن ولستِ ملزمة بالصبر عليه أكثر!

تبسمت (مريم) وقالت: ولا أريد أحدًا سواك..



شيء من الفرح والكثير من الندم

حدد الخطيبان يوم زفافهما بعد ثلاثة أيام، وبالفعل تم عقد قرانهما في حفل عائلي مصغر جدًا أقيم مساءً ولم يحضره سوى (مالك) ومجموعة من الخدم والعاملين وبعد رحيل الجميع جلس العروسان على مائدة صغيرة أعدت لهما في حديقة القصر ولم يبق معهما إلا (صباح) التي أشرفت على تقديم الطعام لهما وقبل رحيلها قالت: هل تحتاجان إلى شيء آخر؟

تبسمت (مريم) وقالت: شكرًا يا (صباح) لقد بذلتِ مجهودًا كبيرًا اليوم وأنا ممتنة لكِ كثيرًا.

حنت (صباح) رأسها وعادت للقصر..

(رازي) متمعنًا في فستان (مريم) الأبيض: جمالكِ ساحر اليوم..

(مريم) باسمة بخجل: أنا كما أنا..

(رازي) مستنشقًا رائحة زكية هبّت ناحيته: ما هذا العبير المميز؟

(مريم): تقصد عطري؟

(رازي): رائحته مميزة جدًّا.. أزكى بكثير من أي عبير استنشقته من قبل!

(مريم): هذا العطر معي منذ أن كنت في العشرين من عمري.. كان هديةً من أبي ولم أستخدمه لزمن طويل ولم أجد مناسبة أجمل من هذه لأوقظه من سباته الطويل وسأستخدمه دائمًا وأنا معك.

(رازي) يشد ربطة عنقه الزرقاء: سيسعدني ذلك كثيرًا

(مريم): تبدو فاتنًا بتلك البدلة السوداء..

(رازي) ضاحكًا: ما زلت غير معتادٍ على لبس هذا النوع من الملابس.

(مريم) باسمة: لكنها تليق بك جدًّا.

بقي (رازي) يحدق بـ (مريم) وعلى وجهه ارتسمت معالم الفرح والسعادة..

(مريم): ما بك؟ لمَ لا تقول شيئًا؟

(رازي): بعض الجمال لا يحق لنا إلا أن نراقبه بصمت..



أنزلت (مريم) رأسها بخجل ولم ترد..

(رازي) موجهًا نظره للمائدة العامرة أمامهما: من سيأكل كل هذا؟

(مريم) ضاحكة: ليس أنا.. لقد فقدت شهيتي من التوتر!

(رازي) يبادلها الضحك: وأنا كذلك.

عاود الاثنان الصمت والنظر حولهما لدقائق حتى تحدث (رازي) وقال: ماذا الآن؟

(مريم) تهز كتفيها: لا أعرف..

(رازي): أشعر بأني في حلم..

(مريم): أريد أن أصارحك بشيء..

(رازي): ما هو؟

(مريم) منزلة رأسها وبشيء من التردد: لقد كنت متزوجة في السابق..

(رازي) وهو مصدوم: ماذا؟ لمَ لم تخبريني بذلك من قبل؟

(مريم): هل يغير هذا شيئًا من مشاعرك نحوي؟

(رازي): لا.. ولكن..



(مريم): لقد كان هذا قبل زمن طويل وقد خرج ذلك الشخص من حياتي للأبد فهو لم يحبني قط ولا أنا كذلك.

(رازي): لمَ تزوجتما إذًا؟

(مريم): كمٌّ مِن كلامٍ فارغ ملأ قلوبًا خاوية فقط لأنها لم تجد غيره.. لم يختر أي أحدٍ منا تلك الزيجة.. يمكنك القول إنه تم تزويجنا لتقوية روابط أخرى بين أسرتينا.

(رازي): وماذا كان سبب انفصالكما؟

(مريم): علاقتنا حكم عليها بالفشل منذ أول يوم.. تزوجت شخصًا مثلي تمامًا.. نسخة مطابقة لي في كل شيء.. يصدُّ ويبتعدُ عني كلما رآني وأنا كنت أشعر بالارتياح عندما يفعل ذلك.. لم نكن نجتمع إلا أمام الناس وفي خلوتنا كل واحدٍ منا يعيش حياته الخاصة.. لا أنكر أننا في وقت من الأوقات حاولنا التقرب بعضنا من بعض لأجل أهلنا لعل شيئًا من الود ينمو بيننا.. لكن..

(رازي): لكن ماذا؟

(مريم): أدركنا أننا لم نتمكن ولن نتمكن من الوقوع في الحب أبدًا



مهما تظاهرنا بذلك.. لأننا فيما يبدو كنا نكره أنفسنا ولهذا السبب لم نكن قادرين على تقديم الحب لغيرنا..

(رازي): ماذا عني أنا؟

(مريم): أنت؟ أنت اليقين الذي نزل عليّ كالوحي من السماء السابعة.. يعيدني من ردتي عن كل شعائر ومشاعر الحب لأتحول لراهبة عند محراب ابتسامتك.. تلك الابتسامة التي أنارت جوفي منذ أن وقعت عيني عليها أمام دكان بائع البوظة.. هدّمت كل أصنام اليأس التي طال تقديسي لها.. لا أخفي عليك أني لم أفقد الأمل في إيجاد توءم روحي ونديمي المقدر لي وبحثت عنه كثيرًا وطويلًا قبل أن أكفر بوجوده.. تقدم لخطبتي الكثير بعد انفصالي عن زوجي السابق لكن بمجرد الحديث مع كل واحد منهم أفقد جزءًا من إيماني بوجود الحب الحقيقي في هذه الدنيا وأزداد اعتقادًا أنه قد يكون مجرد سراب ووهم يجب أن نصنعه في عقولنا ونؤمن به دون أن نراه كي نستطيع الاستيقاظ من مضاجعنا كل يوم وممارسة حياتنا دون أن نفقد عقولنا بقبضة أشباح الوحدة على صدورنا.. جميعهم بلا استثناء تصنّعوا الحب وتعصّروه أمامي ليخرجوا من

أجوافهم الخاوية عبارات باردة كالصقيع اقشعر لها بدني.. ترنحوا بثمالة زائفة.. وكأنهم غربان تحاول التغريد.. مسوخ للعشاق.. أمراض فتاكة في جسد المشاعر.. البوح ليس حبرًا يكتب أو أنينًا يطلق.. بل دمٌ ينزف.. استفاضة وانتفاضة للروح وليس صرعًا مفتعلًا.. ولكن من أنا لأحكم عليهم؟ لعل الحب تغير.. لعل المشاعر والأحاسيس تبدلت عن زمن عشت فيه.. زمن الرسائل المختومة بطابع بريد.. زمن النظر المطوّل والسهر الأطول.. زمن الحديث بلا صوت والحزن بلا دموع.. زمن انتهى ولا أظنه سيعود.. وربّما أنا واهمة وهم أدرى بما ينعقون.. يمكنني أن أفني ما تبقى من حياتي في وصف ما حل بي يوم وجدتك لكن لن تنصفك الحروف والكلمات ولا الآهات والزفرات لذا سأكتفي بالقول بأني أحبك.. أحبك فقط..

نهض (رازي) من مقعده ومد يده تجاه (مريم) التي وضعت كفها فوق كفه ليشد عليها وينهضها ويقربها منه ويقول: أنا من كنت منبوذًا بين المبعدين وأضحوكة لكل سافرٍ سقيم.. أنا من بحث عن طوق نجاة لينقذني من الغرق فوهبني الله مرساة تثبتني مكاني..

ملاكٌ رحمة من جنة العطاء.. حقيقة من وحي خيالي.. جمال روح وقلب وجسد.. وقارًا مهيبًا يخرس كل طامع ولا يظفر به الجبناء..

أنا لا أستحقكِ لكنني سأبذل كل ما أنا عليه وإليه لأمنحك شيئًا مما وهبتني إياه من محبة وأمان..

(مريم): لا أريد الآن سوى عناقٍ يأخذني إلى حيث لا أنتمي.. مكان محرم على أمثالي..

تعانق الاثنان عناقًا طويلًا لم يتخلله أي حديث..

بعد ما تباعد جسداهما ارتسم على وجهيهما المحدِّقين بعضهما ببعض بأعين متلألئة ابتسامة عريضة، رفع بعدها (رازي) سبّابته بصمت مشيرًا لـ (مريم) أنه يريد تقديم شيء لها. راقبته وهو يدخل يده في جيبه ويخرج علبة حمراء بحجم الكف مربوطة بشريط أسود من الحرير وقدّمها لها قائلًا: أريدك أن تأخذي هذه..

(مريم) وهي تأخذ العلبة من يده: ما هذه يا (رازي)؟

(رازي) وعيناه على عينيها الناظرتين للعلبة: افتحيها وانظري بنفسك.



شدّت (مريم) طرف الشريط الحريري بفمها وحلت العقدة السوداء وفتحت العلبة لترى قلادة ذهبية مطابقة تمامًا للقلادة الفضية التي كانت تلبسها فقالت: إنها جميلة جدًّا!

(رازي): وستزداد جمالًا حول عنقك..

(مريم) واضعة أناملها على قلادتها الفضية: وهذه؟

(رازي): ستعود حيث تنتمي.. لصدري وعلى قلبي ولن أخلعها أبدًا..

(مريم) تخلع قلادتها الفضية وتمدها لـ (رازي): أشعر بالخجل لأني لم أحضر لك شيئًا.. كنت منهمكة بالتجهيز لهذه الليلة ونسيت نفسي..

(رازي) يلتقط بإبهامه وسبابته القلادة الذهبية من وسط العلبة المفتوحة واضعًا كفيه على أكتاف (مريم) مديرًا ظهرها ناحيته قائلًا: لقد قدمتِ لي ما هو أثمن وأغلى..

(مريم) ونظرها للأمام متحسسة فص القلادة الذهبية البارد الذي انسدل على نحرها: كل ما قدمته وسأقدمه لن يعادل ما تقدمه لي الآن..



(رازي) رابطًا أطراف القلادة خلف عنقها: إنها مجرد قلادة بسيطة..

(مريم) تستدير نحو (رازي) وتأخذ القلادة الفضية منه وتُلبسه إياها: كنت أقصد الأمان.. الأمان الذي وجدته بين أحضانك.

أتمّ العروسان زواجهما ومنذ الليلة الأولى بدأ (رازي) يلحظ بعض الأمور التي أثارت تساؤله واستغرابه لكنه لم يعبر عن ذلك لـ (مريم) لأنها كانت مجرد أشياء بسيطة بررها لنفسه بأنها أشياء طبيعية ولا تستحق أن يناقشها معها، مثل طلبها أن يقضيا ليلتهما الأولى في غرفته هو وفي الجناح الذي أقام فيه، وعند استيقاظه صباح اليوم التالي لم يجدها بجانبه وعلم لاحقًا بأنها عادت لغرفتها بعد أن خلد للنوم وبررت ذلك بأنها لا تستطيع النوم على فراش غير فراشها فاقترح (رازي) أن يبيت هو معها في جناحها لكنها رفضت وأخبرته بأنها ستكون معه طيلة الوقت عدا وقت النوم حيث سينام كلٌ واحد منهما في مضجعه الخاص.

لم ينتهِ الأمر عند هذا فقط فمع مرور الأيام بدأ (رازي) يلحظ أمورًا أخرى لم تلفت انتباهه من قبل بالرغم من الفترة الطويلة التي قضاها في القصر مثل إصابة (مريم) بنوبات من الغثيان والدوخة

المفاجئة من وقت لآخر تختلي بعدها بنفسها في غرفتها أو مكتبها لساعة أو ساعتين يوميًا رافضة أن يزعجها أحد خلالها، وكذلك تغييرها الموضوع عندما يطلب منها (رازي) دخول جناحها الخاص ورؤية غرفتها مبررة ذلك بأنها ليست مرتبة ولا تريد منه رؤيتها وهي بتلك الحالة، لكن الأمر الذي برز من بين كل تلك الأمور المستجدة على سلوك (مريم) هو تناولها بعض العقاقير أمامه بعد وجبة الإفطار وتناول جرعة أخرى منها في المساء مع العشاء مما دفعه بالطبع لسؤالها في إحدى الليالي وهما مجتمعان في غرفته ليلًا وقال: ما هذه الأدوية التي تتناولينها؟

(مريم) وهي جالسة عند طرف السرير تمشط شعرها: هذه ليست أدوية..

(رازي) وهو مستلق على الفراش: ماذا تكون إذًا؟ لم أركِ تتناولينها من قبل!

(مريم): مجرد بعض المقويات وأنا أتناولها دائمًا!

(رازي) بنبرة مشككة: حسنًا.



(مريم) واضعة المشط على المنضدة بجانب السرير: ما بك؟ ألا تصدقني؟

(رازي): ولِمَ لا أصدقك؟ هل هناك سبب لتكذبي عليّ؟

رفعت (مريم) اللحاف واستلقت بجانبه مديرة ظهرها له بعد ما أطفأت المصباح فوق الطاولة الصغيرة بالقرب من السرير وقالت: تصبح على خير يا عزيزي..

(رازي): كنت أظنك لا تستطيعين النوم إلا في فراشك!

(مريم) مُتوسِّدة كفّيها محدقة في الظلمة أمامها: سأبقى معك حتى تغفو.

(رازي) بشيء من الانزعاج: لا داعي لذلك.. يمكنك الرحيل من الآن!

نهضت (مريم) وأشعلت المصباح والتفتت نحو (رازي) وقالت: ما الأمر؟ هل أنت مستاء من شيء؟

(رازي): ماذا تظنين أنتِ؟

(مريم): أنا لا أظن.. أنا أسأل.. إذا كان هناك شيء يدور في بالك فقله ولا تلمّح له



(رازي) مغطيًا رأسه باللحاف: لا شيء يدور في بالي.. تصبحين على خير..

أطفأت (مريم) المصباح واستلقت مرة أخرى وبقيت حتى سمعت أنفاس (رازي) تتثاقل معلنة غرقه في النوم لتنهض من فراشه وتتوجه لغرفتها وتبيت هناك..

في الصباح اجتمع الاثنان على مائدة الإفطار ولاحظت (مريم) أن (رازي) قد لبس ملابس الخروج وحمل معه حقيبته فقالت له: هل تنوي الذهاب للعمل اليوم؟

(رازي) محتسيًا كوبًا من الشاي: نعم..

(مريم) تهز عبوة عقاقيرها مسقطة قرصين منها على راحة يدها: جيد.. لا أشعر بالاطمئنان على المصنع في وجود (مالك) الآن خاصة بعد زواجنا وأريدك أن تتولى مهام إدارته بأسرع وقت!

نهض (رازي) وبقي يحدق بـ (مريم) بنظرات اختلط فيها التعجب والاستياء..

(مريم) ترفع كفها بسرعة دافعة بالأقراص تجاه فمها المفتوح: أتمنى لك يومًا سعيدًا يا عزيزي.

سار (رازي) نحو مخرج غرفة الطعام ولم يجب عليها..

أمسكت (مريم) بمقبض كوب قهوتها وارتشفت رشفة لابتلاع الأقراص ثم قالت لـ (صباح) الواقفة على بعد يسير منها: سوف أعود لفراشي لأرتاح قليلًا.. لا تزعجوني لأي سبب!

(صباح) حانية رأسها: أمرك يا سيدتي.

خرج (رازي) من غرفة الطعام مرورًا ببهو القصر وفتح الباب الرئيس ليرى (جابر) كعادته يقف بجانب السيارة وما أن رآه حتى جرى نحوه يمد يده لأخذ الحقيبة قائلًا: صباح الخير سيد (رازي)!

(رازي) وهو يسير نحو السيارة: صباح النور يا (جابر).. خذني للمصنع.

(جابر) يفتح الباب الخلفي لـ (رازي): أمرك.

وصل (رازي) للمصنع وتوجه مباشرة لمكتبه الصغير ولم يعرِّج بمكتب المدير كما اعتاد، وبعد مضي عدة ساعات نما لعلم (مالك) من بعض الموظفين أن (رازي) موجود فتوجه إليه ودخل عليه وهو منهمكٌ في إنجاز الأعمال المنوطة به وقال بنبرة متهكمة: أهلًا بالعريس!

لم يجب (رازي) عليه ولم يرفع حتى رأسه وأكمل عمله بصمت..

سار (مالك) وجلس أمام (رازي) وقال باسمًا: من حقك ألا تجيب عليّ فقد نجحت خطتك وحققت ما تريد.. يجب أن أعترف وأقر بالهزيمة.

(رازي) مستمرًا بالكتابة على بعض الأوراق دون أن يوجه نظره لـ (مالك): ماذا تريد؟

(مالك): أن أحذرك!

(رازي) واضعًا القلم فوق سطح المكتب عاقدًا أصابعه ناظرًا في عيني (مالك) وبوجه غير مكترث: تحذرني من ماذا يا سعادة المدير؟

(مالك): ابنة عمي ليست ساذجة كما تظن فهي تحصل على ما تريد لكن لا أحدَ يستطيع أخذ شيءٍ منها لا تريد أن تهبه إياه بخاطرها..

(رازي) ببرود: وماذا أيضًا؟

(مالك) ضاحكًا: ستكتشف أنت ما تبقّى بنفسك!

قبل أن يرد (رازي) عليه رنّ الهاتف بجانبه فرفع السماعة وقرّبها عند أذنه وعيناه على (مالك) الباسم وقال: نعم..

في الطرف الآخر كانت (صباح) والتي تحدثت معه بشيء من التوتر..

تغيرت معالم وجه (رازي) للقلق وحاد بنظره عن (مالك) وقال وهو يشد على مقبض السماعة: ماذا؟ وأين هي الآن؟

أغلق (رازي) الخط بعد ما أنزل السماعة بقوة ونهض مسرعًا والتقط حقيبته وهم بالخروج و(مالك) لا يزال جالسًا ويقول له بتهكم: ما بك؟ هل تم استدعاؤك؟

تجاهل (رازي) تعليقه وخرج من المصنع وركب السيارة وأمر (جابر) بالتوجه لمستشفى المدينة فورًا..

ما أن توقفت السيارة أمام مدخل قسم الطوارئ حتى ترجّل (رازي) منها على عجالة وتوجه لقسم الاستعلامات وعلم منهم بأن (مريم) موجودة في قسم الباطنية بالطابق الثالث. لم يهدر وقتًا وجرى نحو الباب المؤدي للسلالم وصعد جريًا حتى وصل للطابق المنشود واستفسر عن زوجته فأخبروه بأنها نقلت لقسم العناية المركزة في الطابق الخامس وترقد في الغرفة رقم (٤) والزيارة ممنوعة عنها، لكن (رازي) أصر على رؤيتها وخاطب الممرضات بسخط مما



دفعهنّ للاتصال بالطبيب المسؤول عن حالتها ليشرح له الوضع.

بقي (رازي) ينتظر قدوم الطبيب وهو في حالة من التوتر والغضب حتى سمع صوتًا يحدثه من خلفه قائلًا: «هل أنت زوج السيدة (مريم)؟»

التفت (رازي) نحو مصدر الصوت ليرى وجهًا مألوفًا له وبعد قليل من الاستذكار قال: «لقد رأيتك بالمنزل عندنا من قبل..»

مدّ الطبيب يده للسلام على (رازي) وهو يقول: نعم صحيح.. أنا الدكتور (ناجي).. المسؤول عن حالة السيدة (مريم)..

(رازي) دون أن يمدّ يده لمصافحة الطبيب وبوجه متعجب: حالتها؟ وما هي حالتها؟ هل ستكون بخير؟

(د. ناجي) مشيرًا بيده لباب مفتوح خلفه: تفضل يا سيد (رازي).. لنتحدث في مكتبي

جلس (رازي) المذهول مما يحدث حوله وراقب الطبيب وهو يعلّق معطفه الأبيض وسماعته على شماعة في زاوية مكتبه ثم يجلس أمامه عاقدًا أصابعه قائلًا: يبدو أن اليوم الذي كنا نخشاه قد حلَّ يا سيد (رازي)..

(رازي) بذهن مشتت وكلمات متقطعة: عن أي يوم تتحدث؟ أنا لا أفهم شيئًا!

(د. ناجي): أنت زوج السيدة (مريم) أليس كذلك؟

أمسك (رازي) فص قلادته الفضية وهز رأسه بالإيجاب..

(د. ناجي): إذًا فلا بد وأنك تعرف عن حالتها المرضية..

بدأ (رازي) يفرك بإبهامه وسبابته فص القلادة محركًا رأسه يمينًا وشمالًا بصمت..

(د. ناجي) زافرًا: ما ستسمعه مني قد يكون ثقيلًا عليك..

حكى الطبيب لـ (رازي) أن (مريم) عانت ومنذ الصغر من مرض انتهازي نخر بجسدها لفترة طويلة، وكل من يصاب به غالبًا لا ينجو لكن ولسبب ما توقف تطور المرض ودخل في حالة أشبه بالكمون مكّنها من استعادة حياتها وعافيتها تدريجيًّا بالرغم من الآثار التي تركها. هذا المرض لم يكن مجهولًا على أسرتها فقد ورثته عن أبيها الذي توفِّيَ بالمرض نفسه عندما كانت في العشرين من عمرها. بقي مرضها كامنًا لفترة طويلة وكانت تتناول بعض العقاقير المعززة

للمناعة لمنع تطوره مجددًا، لكنه عاد وبشراسة قبل عامين تقريبًا وبالرغم من تقدم وتطور الطب في مجال علاج هذا المرض إلا أن هجمته الثانية عليها كانت قوية ومتسارعة، ولم يكن بيدنا سوى تقديم بعض المنشطات والمقويات لمناعتها على شكل حقن كنت أحقنها بها مرة في الأسبوع وبعض الأقراص التي تناولتها بشكل منتظم في محاولة لإبطاء تقدم هذا المرض الخبيث، لكن ومع ذلك كانت حياتها على المحكّ كلّ يوم وكنت صريحًا معها وأخبرتها بأن تكون مستعدة لأي مفاجآت وأن هذا المرض قد يخطفها في أي لحظة إذا لم يدخل في كمون مرةً أخرى، وهذا ما حدث اليوم فقد وصل إلى قلبها وتوقفت معظم وظائف جسدها دفعةً واحدة، وهي الآن في غيبوبة تصارع بين الحياة والموت وتتنفس من خلال جهاز خاص لأنَّ رئتيها لم تعودا تقويان على الحركة.

بقي (رازي) صامتًا يحدق بالطبيب بملامح اختلطت فيها الحيرة والذهول وعيناه تضجان بالكثير من الأسئلة، لكنه لم يتمكن من التفوه بأي منها عدا سؤالًا واحدًا خرج بصعوبة من بين شفتيه:

«هل أستطيع رؤيتها..؟»



(د. ناجي) ساحبًا أحد الأقلام المنصوبة أمامه ويبدأ بتحرير ورقة:
مع أنَّ ذلك ممنوع لأن غرفتها معقمة لكن سوف أمنحك بضع
دقائق فقط لتراها.

مد الطبيب الورقة له وقال: «أعطها للممرضة التي تحدثت معها
سابقًا وهي ستقودك لغرفتها.. لكن تذكّر أنها لا تستطيع سماعك
أو التجاوب معك»

(رازي) آخذًا الورقة من يد الطبيب: شـ.. شكرًا..

قادت الممرضة المسؤولة عن قسم العناية المركزة (رازي) لغرفة
(مريم) بعد ما أخذت الورقة منه وأخبرته بأنها ستعود له بعد عشر
دقائق فقط قبل أن ترحل مغلقة الباب خلفها. لم يكن هناك أيُّ
كرسي في الغرفة لذا وقف (رازي) بجانب سرير (مريم) يراقبها
بوجه حزين وهي مستلقية ومجموعة من الأنابيب والأسلاك
موصولة بها ومعظم ملامح وجهها مختفية خلف قناع للتنفس، ولم
يكن يُسمع في المكان صوت عدا طنين جهاز مراقبة علاماتها الحيوية
الذي أخذ يطن كل خمس ثوانٍ بشكل منتظم.

خلال تأمل (رازي) بزوجته الغارقة في غيبوبتها دخل عقله وقلبه في صراع..

صراع عصف بمشاعره ولم يجد شيئًا ليتشبث به سوى قطعة فضية طافية على صدره بالكاد تعطيه بصيصًا من الأمل إما للنجاة أو الغرق.. تمسّك بها وكأنها مرساة لسفينته التي توشك على الغرق في بحر الشكوك والظنون.. فقد أفلَتَ الدفّة من يده وأضاعها.. لا يعي إلى أي الجهات تحوّلت.. وعلى إثرها كُسرت صارية توقعاته..

وضع (رازي) كفّه على يدها الباردة وقال بصوت متحشرج: لماذا؟ لماذا أخفيتِ علي حقيقة مرضك؟ هل ظننتِ أني لن أقبل بك إذا علمت بأن أيامَكِ معدودة؟ لماذا لم تثقي بحبي لكِ...؟

كانت معضلة (رازي) والتي اختلف فيها عقله وقلبه تتمحور حول صدق مشاعر (مريم) نحوه فقد كان قلبه متيقنًا من حبّها له لكنّ عقله كان يصرخ بتساؤلات كثيرة.. لم يستطع (رازي) أن يصطف بصف أحدها ولم يتمكن كذلك من الوقوف على الحياد..

وفي خضم تلك الحيرة شعر (رازي) بشعورٍ غريب.. أحسّ بصوت

أنثوي يهمس له.. بل فيه.. صوتٍ كان حوله وآتيًا من داخله في الوقت نفسه.. حدّثه ذلك الصوت وقال:

«أشعر بالحيرة نفسها التي تشعر بها الآن.. كيف للإنسان أن يختار بين تعلق قلبه ومنطق عقله؟ لكن.. لِمَ عليه أن يختار من الأساس؟ لِمَ يترك نفسه لاحتمال كهذا منذ البداية؟! نحن لم نُخلق لنُسلّم زمامنا لجهة ضد أخرى خاصة عندما تكونان جُزأين متأصّلين فينا.. تمامًا كما لو أنَّ لنا من الأبناء اثنين.. فمن الظُّلم أن نُقصي أحدهما إرضاءً لخاطر الآخر.. القلب والعقل كلاهما حكاية واحدة دون فاصِلة.. متكاملان فيما بينهما بطريقة أو بأخرى شئنا أم أبينا.. خِيطا معًا على قماش جسدك.. وفصلهما بمثابة الموت المبكر لروحك..»

اختفى الصوت بعدها وتوقف عن الحديث تاركًا (رازي) يتلفت حوله بشيء من الحيرة، لكنه لم يبقَ على تلك الحالة لفترة طويلة وعاد اهتمامه وتركيزه نحو زوجته الراقدة وجلس عند طرف السرير بجانبها يراقب صدرها يرتفع وينخفض مع كل نفس تأخذه حتى دخلت عليه الممرضة وقالت: «لقد انتهى وقت الزيارة ويتوجب عليك الرحيل..»

(رازي) دون أن يلتفت للممرضة موجهًا كلامه لـ (مريم): سوف أعود مرة أخرى.. ابقي صامدة لأجلي..

رحل الزوج المكلوم وعاد بصحبة (جابر) من المستشفى وما أن دخل للقصر حتى وجد (صباح) و(حنين) باستقباله وعلى وجوههما ارتسمت معالم الحزن والقلق، لكنه لم يتحدث معهما وهمَّ بالصعود للطابق العلوي فاستوقفته (صباح) قائلة: كيف حالك الآن؟

(رازي): تقصدين كيف حال (مريم)؟

(صباح): لا.. أنا أسأل عنك أنت يا بني

(رازي) مستغربًا من سؤالها عنه دون (مريم): أنا بخير.. لقد عدتُ للتَّو من المستشفى

(حنين) بحزن: تعازينا لك يا سيد (رازي).. السيدة (مريم) كانت غالية علينا جميعًا

(صباح) ودموعها بدأت تنهمر: رحيلها أوجعنا جميعًا!

(رازي) باستغراب شديد: بماذا تهذيان؟! للتو كنت معها وهي لا تزال على قيد الحياة!

وضعت (صباح) كفَّها على فمها واستمرت بالبكاء، لكن (حنين) دنت مقتربة من (رازي) وقالت: قبل حضورك بقليل اتصل الدكتور (ناجي) من المستشفى وأبلغنا بأن السيدة (مريم) قد توفيت وأنك كنت معها في لحظاتها الأخيرة فظننا أنك..

توقفت (حنين) عن الكلام عندما رأت (رازي) وقد احمرّت عيناه وفاضتا بالدموع وجسده بالكامل بدأ يرتجف وكأن صاعقة قد نزلت عليه فتراجعت للخلف وأمسكت بكتف أمها ولم تقل شيئًا.

لم ينفجر (رازي) بالبكاء أو الصراخ.. لم يحدث أي جلبة أو ردة فعل متوقعة منه في ذلك الموقف المؤلم بل بعد دقائق من الصمت والتحديق بـ (صباح) الباكية وابنتها الحزينة أكمل سيره نحو السلالم وصعد للطابق العلوي متوجهًا لغرفته ودخلها وأغلق على نفسه الباب ولم يفتحه إلا صباح اليوم التالي عند سماعه بعض الطرقات تطرق بابه بخفة، ففتحه ليرى (جابر) يقف أمامه وعلى ملامحه ارتسمت تعابير الحزن الشديدة ويقول له بصوت مشبع بالدموع: خالص العزاء لك يا سيد (رازي) في فقيدتنا الغالية!

(رازي) بملامح مكتئبة: شكرًا يا (جابر)..

(جابر): متى تريد أن نرحل؟

(رازي): نرحل إلى أين؟

(جابر): للمستشفى لإنهاء إجراءات استلام السيدة (مريم) ودفنها في مقابر العائلة.. السيد (مالك) موجود معي بالأسفل مع السيد (حـ..

(رازي) مقاطعًا: لا أستطيع.. اطلب من (مالك) أن ينهي كل شيء.. جسدي لن يقوى على حملي لو خرجت..

(جابر) حانيًا رأسه: حاضر.. سوف أخبره بذلك..

لم يحضر (رازي) مراسم الدفن ولا حتى اجتماع العزاء المصغر الذي دعا إليه (مالك) في بهو القصر مع العاملين والخدم مما أثار غضب ابن عمها الذي خرج غاضبًا من تصرف زوج ابنة عمّه الراحلة ووصفه بأنه وغد خبيث ولم يكن يحبها ولم يهتم لأمرها وتوعد بالانتقام منه.

كان (رازي) يسمع تلك الجلبة التي أحدثها (مالك) في الطابق السفلي لكنه لم يكترث وبقي في فراشه محتضنًا وسادته التي لا تزال

تفوح ببعض رائحة عطرها ولم يخرج من غرفته وبقي فيها يومين متواصلين لم يتناول فيهما أي طعام أو شراب. صباح اليوم الثالث من وفاة (مريم) طُرق باب غرفة (رازي) عدة مرات حتى نهض من مضجعه بثقل وتكاسل وفتح الباب ليرى (صباح) تقف ممسكة بصينية إفطار أعدتها له. ألقى (رازي) نظرة على محتوى الصينية ثم أدار ظهره لها وسار عائدًا نحو فراشه واستلقى عليه محتضنًا وسادته محدقًا بالنافذة المتوارية خلف الستائر الثقيلة الحاجبة لأشعة الشمس.

دخلت (صباح) الغرفة ووضعت الصينية فوق الطاولة بجانب السرير ثم سارت نحو الستائر وباعدتها لتدخل أشعة الشمس وتنير أرجاء الغرفة وتحط على وجه (رازي) المكتئب الذي أدار وجهه فورًا عن النافذة التي فتحتها (صباح) لتسمح لبعض الهواء بالدخول وطرد رائحة الموت التي عجّ بها المكان.

(صباح) واضعة كفّيها بعضهما فوق بعض على بطنها: العودة للحياة ليست بالأمر السهل عندما نفقد عزيزًا علينا لكن هل تظن أن السيدة (مريم) ستكون سعيدة بما تفعله بنفسك الآن؟

لم يرد (رازي) ولم يُدِر نظره نحوها..

(صباح) مستأنفة كلامها: لقد أهديتها سعادة حرمت منها لسنوات طويلة.. لم أرها أسعد مما رأيتها عليه في الأشهر التي قضتها معك، فلا تحرمها وتحرم نفسك من استمرارها.. إنها تراقبك الآن ولا شك بأنها مستاءة مما تفعله بنفسك..

(رازي) وظهره مدار لها: لقد رحلت.. وهي لا تراني ولا تشعر بي الآن.. لم يعد لها أي أثر يذكر سوى هذه الوسادة الخالية التي بدأت تفقد عبيرها..

(صباح) تسير نحو باب الخروج: لا أحد يرحل بالكامل إلا إذا أردنا ذلك..

احتضن (رازي) الوسادة وظهره لا يزال مدارًا للنافذة المفتوحة وقال: هل تعتقدين أنها أحبتني بحق؟

توقفت (صباح) عن السير وأنزلت رأسها زافرةً بحزن: ما أنا متيقنة منه هو أني لم أرها خلال حياتي الطويلة معها تريد وترغب بشيء بشدة كرغبتها في أن تكون معها وبجانبها على الدوام.



(رازي): هل ترين أن هذا حبّ؟

(صباح): وماذا عساه أن يكون غير ذلك؟

(رازي) يشد من عناقه على الوسادة: لا أعرف..

خرجت (صباح) من الغرفة وأغلقت الباب خلفها وبقي (رازي) على حاله محتضنًا الوسادة بحزن..

مساء ذلك اليوم عادت (صباح) وطرقت باب غرفة (رازي) ودخلت عليه بعد أن أذن لها ووجدته كما تركته سابقًا فقالت: هناك من يريد مقابلتك يا سيد (رازي)

(رازي): لا أريد مقابلة أحد.

(صباح): هذا اللقاء مهم ولا يمكن تأجيله

نهض (رازي) وجلس على طرف السرير بوجه مكتئب وهو محتضن للوسادة وقال: لم يعد هناك شيء مهم يستحق.

(صباح): إنه اجتماع قراءة وصية السيدة (مريم).. هل أنت واثق من أنك لا تريد أن تكون حاضرًا؟

(رازي) ملتفتًا نحوها: وصيّتها؟

(صباح): نعم.. محاميها الخاص موجود في مكتبها الآن وقد طلب منا جميعًا الحضور قبل فتح الوصية.

وضع (رازي) الوسادة جانبًا وبقي صامتًا سارحًا أمامه..

(صباح): ماذا أخبره؟

(رازي) ناهضًا من مكانه: سوف ألحق بكِ بعد ما أغتسل.

(صباح) حانية رأسها: سنكون بانتظارك!

بعد أقل من عشر دقائق نزل (رازي) من الطابق العلوي وتوجه مباشرة لمكتب (مريم) وفتح الباب ليرى رجلًا متأنقًا يجلس على مكتبها يضع نظارةً بعدسات عريضة يقرأ مجموعة من الأوراق كانت بين يديه ويجلس على الأريكة أمامه (مالك) واضعًا ساقًا على ساق يدخن سيجارة، ومن خلفه وقفت (صباح) وابنتها بجانبها وعلى مقربة منهما وقف (جابر) وكانت أنظار الجميع موجهة نحو الرجل المتأنق وهو يقلب ويتفحص الأوراق بين يديه والذي رفع رأسه بالتزامن مع دخول (رازي) ووجه حديثه له وقال: السيد (رازي) على ما أظن؟

هز (رازي) رأسه بالإيجاب دون أن يقول شيئًا..

أشار الرجل المتأنق له بيده للجلوس بجانب (مالك) وهو يقول: تفضل كي نبدأ..

تجهم (مالك) عندما جلس (رازي) بجانبه وقال بنبرة مشحونة بالغضب والتهكم بعد ما نفخ سحابة من الدخان تجاهه: لم تحضر جنازتها ودفنها لكن بالطبع لن تفوِّت موعد توزيع تركتها التي سعيت منذ البداية للاستيلاء عليها.

تجاهل (رازي) تعليق (مالك) وركز اهتمامه مع الرجل المتأنق والذي قال محدثًا الجميع بعد ما خلع نظارته ووضعها على سطح الطاولة أمامه: كما يعرف معظمكم فأنا السيد (حازم) المحامي المسؤول عن جميع الأمور القانونية المتعلقة بأملاك الراحلة السيدة (مريم) ومسؤوليتي تتضمن فتح وصيتها الأخيرة وقراءتها على الورثة المستحقين كما نصت الوصية.

(مالك) ضاربًا طرف سيجارته موقعًا بعض الرماد على السجادة أسفل قدميه رامقًا الواقفين خلفه: ليس جميع الورثة المستحقين حاضرين والجميع هنا يعرفون من أقصد.

(حازم): استدعيت فقط من طلبت السيدة (مريم) أن يكونوا حاضرين!

(مالك): لمَ طلبت حضور الخدم إذًا؟ هم ليسوا من الورثة.. أعتقد أن هناك خطأ ما

أمسك (حازم) بمقبض حقيبة كانت بجانبه ورفعها ووضعها على سطح المكتب وفتحها مخرجًا منها ظرفًا مغلقًا ومختومًا بالشمع الأحمر وقال: السيدة (مريم) زودتني بأسماء من يتوجب عليهم حضور قراءة الوصية ولا يوجد أي خطأ يا سيد (مالك).

(مالك) بغطرسة ونبرة ساخرة: لا بد وأنها تركت لهم بعض المال نظير خدمتهم المخلصة لها.. ابنة عمي كريمة ولن تنسى هؤلاء المساكين!

(حازم) متجاهلًا كلام (مالك) ومخاطبًا البقية: هل يريد أحدٌ قول شيء قبل أن أفتح الوصية وأقرأها عليكم؟

هز معظم الحاضرين رؤوسهم بالنفي عدا (مالك) الذي قال: متى كُتبت هذه الوصية؟



(حازم): منذ عدة أعوام لكن السيدة (مريم) طلبت مني إجراء بعض التعديلات عليها قبل أيام فقط.

(مالك): تعديلات من أي نوع؟

(حازم): في الحقيقة لا أعرف، فأنا لم أقرأ الوصية الجديدة لأن السيدة سلَّمتها لي في ظرف مغلق ومختوم كما ترى وأمرتني بأن لا يفتح إلا بعد وفاتها بحضور من استدعيتهم اليوم، وحتى لو كنت أعرف فأنا لست مخوَّلًا من الأساس بالحديث عن هذه التفاصيل لكن سنعرف جميعًا الآن لو توقفت عن استجوابي.

(مالك) بتذمر مطفئًا سيجارته في قاع حذائه: حسنًا حسنًا.. افتح الوصية كي لا تضيع وقتي أكثر فلدي أعمال كثيرة أريد إنجازها.

وضع المحامي نظارته وفتح الظرف بعد ما كسر الشمع الأحمر المتصلب وأخرج مجموعة من الأوراق وبدأ يتصفحها بصمت..

(مالك): ما بك؟ هل ستقرؤها وحدك؟!

(حازم): هل أقرأ كل شيء أم فقط تفاصيل التركة؟

(مالك): التركة فقط.. نريد الخلاصة!

(رازي) لـ (حازم) بحزم: اقرأ كل حرف ومن لا رغبة له بالاستماع فليرحل..

عبس (مالك) لكنه لم يعلق..

(حازم) يهز مجموعة الأوراق بين يديه قائلًا: جيد.. هناك مجموعة من الرسائل الموجهة للحاضرين هنا سوف أقرؤها حسب ترتيبها بعد قراءة المقدمة..

يبدأ المحامي بالقراءة:

«ممتنة لحضوركم جميعًا كما كنت بوجودكم في حياتي.. كل فرد منكم كان له أثر كبير فيما أصبحت عليه وانتهيت إليه قبل رحيلي.. أتمنى أن أكون في مكان أفضل وأجمل مثلما أتمنى لكم جميعًا حياة زاخرة بالسعادة مثل التي حاولت أن أبحث عنها في أيامي القصيرة على هذه الأرض ووجدتها معكم وبينكم.. سامحوني لو أخطأت بحقكم يومًا بقصد أو بدونه.. الحياة لم تكن عادلة معي لكنها أنصفتني عندما أدخلتكم في حياتي فلو كان لي بهجة أباهي بها فهي أنتم وكل الثواني التي قضيتها معكم..»



(حازم): الجزئية القادمة خاصة بالسيدة (صباح) وابنتها السيدة (حنين)..

«فقدت أمي قبل أن أراها ولم يكن لي إخوة أو أخوات لكن ذلك الشعور بالفقد زال وامّحى بعد ما دخلت أمي الوحيدة التي أعرفها في حياتي.. صباح.. أهدتني بحق نور الصباح الدافئ الذي احتضنني في كنفها مع أختي وصديقتي صاحبة القلب الطاهر.. حنين.. كنتما نبراسًا أنار كآبةً أخفيتها في صدري، وكنت وما زلت أتبسم عند رؤيتكما معي وحولي.. أوصيكِ يا أمي وكاتمة أسراري بأختي.. حققي لها حلمها بأن تكون طبيبة وكوني لها سندًا وعضيدة كما كنتِ لي.. سأسعد بذلك كثيرًا.. شكرًا لكما بحجم تضحياتكما لي وعدد الدموع التي تشاركناها معًا.. سأفتقدكما..»

بكت (صباح) بعد ما سمعت تلك الكلمات وشاركتها ابنتها لكن (مالك) علق ساخرًا: عن أي تضحيات تتحدث؟ ألم تكونا تأخذان رواتبَ مقابل خدماتهما؟

(رازي) ملتفتًا إليه بغضب: حاول أن تطبق فمك قبل أن أطبقه لك بالقوة!



(مالك) بلا مبالاة موجهًا حديثه للمحامي: أكمل.. أكمل..

استأنف (حازم) القراءة وقال: السطور التالية موجهة للسيد (جابر)..

«الأمان تذبذب خلال حياتي بين مكسب وخسارة.. جني وفقد.. الراحلون في حياتي كانوا أكثر ممن بقوا معي وحولي، لكن كان هناك استثناء بينهم.. شخص وقف بجانبي وبجانب أبي من قبلي.. لم يكن لزامًا عليه أن يستمر في عطائه ومنحته حرية المغادرة أكثر من مرة لمعرفتي بأنه يتوق للسفر ورؤية العالم لكنه بقي.. بقي بجانبي لأنه يعلم بأني أشعر بالأمان معه.. رجل نبيل وشهامته لا مثيل لها.. أبي جابر.. اجتمع فيه حنان الأب وعطفه بالرغم من أنه لم يرزق بأطفال.. اعتبرني طفلته المدللة ولبستُه تاجًا على رأسي بعد ما سقط تاج أبي.. كان درعًا يقف أمامي ليصد عني كل مصدر للفزع وسندًا بجانبي يعيد لي اتزاني وتوازني من عثرات الدنيا.. حان الوقت يا أبي أن تحلق بتلك الأجنحة التي خفضتها لي وحولي لحمايتي لزمنٍ طويل.. آن الأوان لتبسطها في عرض السماء وتحقق حلمك برؤية العالم.. هذا جل ما أتمناه منك بعد رحيلي فحققه لي..»

خلع (جابر) قبعته وغطى بها وجهه مخفيًا دموعه المتساقطة..

(مالك) زافرًا: كم صفحة تبقت؟

(حازم) مكملًا القراءة: النص التالي خاص بك.. هل تريد منا تجاوزه؟

(مالك): بعد ما احتملت الملل السابق تريد أن تحرمنا أفضل جزء في الوصية؟ أكمل وخذ وقتك بالقراءة..

تابع (حازم) القراءة وقال:

«ابن عمي (مالك).. ماذا عساي أن أقول...؟ قرابة الدم لا تعني دومًا قرابة الأرواح وهذا بلا شك ما كان بيننا.. لن أطيل الحديث لك وعنك فأنت أعلم بما تخفي وتضمر وأنا لست بصدد استعراض خصالك واستحضار نواياك فأنت لم تكن سوى فرض كفاية فُرض عليّ وقد اجتزته بأقل خسائر ممكنة.. وأي إحسان وجدته مني فهو لم يكن إلا تخليدًا لوصية أبي العطرة في حقّك ولولاها لما كنت جزءًا من حياتي.. أتمنى لك حياة مختلفة خالية من أشباهك..»

(مالك): ماذا يعني هذا الكلام؟

(حازم): والآن مع آخر جزئية قبل البت في تفاصيل التركة وهي الخاصة بالسيد (رازي)..

استأنف (حازم) القراءة وقال:

«لو كان حبُّك كلمة.. لقلتها.. لو كان تضحيةً.. لقدمتها.. لكنه حلم.. أخشى الاستيقاظ منه.. لن يكتمل وداعي المُرّ لأحبابي في حياتي القصيرة إلا بذكر من دخلها متأخرًا على حين غرة وغفلة مني.. لم أظن يومًا أن هناك ملاكًا يمكنه السير فوق الأرض بيننا حتى شاهدته يتناول بوظته المقلّمة.. (رازي).. القطعة الناقصة في لغز اكتفائي.. الشخص الذي لن أوفّيه حقه مهما قلت أو فعلت.. أعرف أن رأسك الآن يضج بالكثير من الأسئلة ولكن ثق بي عندما أقول لك إن الإجابة عليها لن تزيدك إلا حيرة.. أردت أن أقضي معك وقتًا أطول وأن أعوض بك ما فقدته.. كنت أنانية أعرف.. لكن الطمع فيك فضيلة والظفر بك مفازة وقد سعيت وبذلت وتنازلت حتى أحظى بقربك ولم يكن سيأخذني عنك سوى الموت.. وقد فعل.. لا تتغير.. لا تتنازل عن أحلامك.. وسأكون معك في كل خطوة.. أعدك بذلك..»

أنزل (رازي) رأسه ولم يبدِ أية مشاعر سوى أنفاس ثقيلة مشبعة بالهم..

(مالك): هل انتهينا الآن؟

(حازم): نعم.. سوف أقرأ الآن الجزء القانوني من الوصية والذي سيعتبر نافذًا بعد قراءته ولا مجال للاعتراض عليه إلا عن طريق المحكمة.

(مالك) منتبهًا لورقة وضعها المحامي جانبًا دون أن يقرأها: ماذا عن تلك الورقة؟ لمَ لم تقرأها.

(حازم): هذه الورقة موجهة لشخص محدد ودُوِّن على ظهرها ملاحظة أن تقرأ له وحده!

(مالك): لا يهم.. أخبرني عن قيمة ميراثي كي أرحل من هذا المكان الكئيب.

(حازم) مستأنفاً القراءة:

«أكتب السطور التالية وأنا بكامل قواي العقلية والقلبية دون أي تأثير من قبل شخص أو ظرف ما.. أوصي بعد وفاتي بأن توزع



أموالي وممتلكاتي كالتالي:

١- تنقل ملكية المنزل الواقع وسط المدينة بحي ((الشلال الأزرق)) للسيدة (صباح) والمنزل المجاور له لابنتها (حنين) ويخصص لكل منهما ما مقداره رواتب سنتين تخصم من السيولة النقدية في وديعتي المصرفية.

٢- تنقل ملكية السيارة للسيد (جابر) ويصرف له من السيولة النقدية في حسابي المصرفي ما مقداره رواتب لخمس سنوات.

(مالك) مقاطعًا بغضب: ما هذا التبذير للتركة!.. هل أنت متيقن مما تقرؤه؟!

(حازم): الوصية مكتوبة بخط اليد ولا مجال للتشكيك.

(رازي) وقد بدا عليه الضيق والدوخان: أكمل يا سيد (حازم) وتجاهله رجاءً..

(مالك) صارخًا في (رازي): ومن أنت كي تطلب منه أن يتجاهلني؟! أنت لست سوى لص تلاعب بعقل ابنة عمي وهي مريضة وخدعها لتتزوج منه!



(حازم): أرجوك يا سيد (مالك) توقف عن الصراخ ودعني أكمل..

عقد (مالك) ذراعيه بوجه عابس وتوقف عن الكلام..

(حازم) معيدًا نظره للورقة بين يديه:

٣- تنتقل ملكية القصر والمصنع وما يتبقى من سيولة نقدية في حسابي المصرفي بعد تنفيذ البندين الأول والثاني لزوجي السيد (رازي)، وأي شخص آخر يتم إقصاؤه من وصيتي حتى وإن كان من ذوي القربى من عائلتي الأحياء.

نهض (مالك) صارخًا في الجميع وقال: هذا احتيال!

(حازم) بهدوء: تمالك نفسك يا سيد (مالك).

(مالك) موجهًا سبابته لوجه المحامي وبعصبية شديدة وصوت مرتفع: اخرس أنت! من الواضح أنك جزءٌ من هذه الحيلة وقد قمت بتزوير هذه الأوراق!

لم يرد (حازم) عليه واكتفى بالنظر إليه بشفقة خلال حالة الثوران



التي ألمّت به لكن (رازي) لم يصمت ونهض من مكانه ووقف أمامه مشيرًا بسبابته نحو الباب قائلًا: اخرج من هنا..

(مالك): ومن أنت لتطردني من منزل ابنة عمي؟!

(رازي): أنا لا أطردك فقط من منزلها بل من المصنع كذلك ومن حياتنا.. اخرج بلا عودة.. لم يعد لك مكانٌ هنا بعد اليوم وأنت شخص غير مرحب به.

وفي تصرف لم يكن متوقعًا هدأ (مالك) فجأة وشد ربطة عنقه وقال باسمًا بعينين مغمضتين قبل أن يخرج: معك حق.. هذا ليس مكاني..

خرج (مالك) تاركًا باب المكتب مفتوحًا خلفه فقال (حازم) لـ (صباح): كرمًا لا أمرًا يا سيدة (صباح).. هل يمكنك إغلاق الباب؟

(حنين): أنا من سيفعل ذلك.. استريحي يا أمي.

أغلقت (حنين) الباب وبقيت واقفة بينما أشار (رازي) لأمها بالجلوس بجانبه وأشار كذلك لـ (جابر) بالانضمام إليهما..

(حازم): سوف أكمل الآن..



(رازي): تكمل ماذا؟ ما الذي تبقى؟

وضعت (صباح) كفّها على يد (رازي) وقبضت عليها وكأنها تطلب منه التماسك..

المحامي مستأنفًا ما تبقى من الوصية:

٤- تنتقل حضانة ابني (وحيد) لزوجي ويكون هو المسؤول عنه حتى يبلغ سن الرشد بشرط أن يقبل بتلك الحضانة عن طيب خاطر، وله كامل الحق في رفضها ونقلها للمستحقّ الآخر من عائلتي دون أن يؤثر ذلك على ما أوصيت به من ميراث له.

الصدمة كانت قوية على (رازي) وقد لاحظ الجميع هذا من خلال تعابير وجهه خاصة وأنهم جميعًا كانوا على علم بوجود (وحيد) وأنَّ (مريم) لم تخبر (رازي) بأن لها ابنًا وأوصتهم جميعًا بأن لا يخبروه.

(رازي) ملتفتًا نحو (صباح) وهو مشتت الذهن: كيف؟ أنا لا أفهم.. لقد أخبرتني بأنها كانت متزوجة لكنها لم..

(صباح) مقاطعة: سأخبرك بكل شيء لاحقًا.

(حازم) ضاربًا بأطراف الأوراق على سطح الطاولة وهو يقول: لقد

تم قراءة الوصية بالكامل وسوف أبدأ بتنفيذها في الحال وبالنسبة لقرار الحضانة فسأمهلك يا سيد (رازي) أسبوعًا لتفكر وتعطيني إجابتك النهائية كي أتخذ قراري..

(رازي): ماذا عن الورقة التي تحدث عنها (مالك)؟

(حازم): ماذا عنها؟

(رازي): إلى من وجهتها (مريم)؟

(حازم): لابنها وقد وجهتني بأن أقرأها له وحده وأشرح له مضمونها.

(رازي): وأين هو الآن؟

(صباح): أخبرتك يا (رازي) بأني سوف..

(رازي) رافعًا كفه في وجه (صباح) مشيرًا لها بالسكوت: المعذرة.. دعيني أسمع ردَّه

(حازم): السيد (وحيد) في مدرسة خاصة خارج المدينة ولا يتركها إلا مرة كل عام لمدة شهر يسافر فيه مع السيدة (مريم) بالسيارة لخارج المدينة برفقة السيد (جابر)

(جابر): نعم صحيح.. كنا نذهب لمزرعة تستأجرها السيدة (مريم) خصيصًا للسيد (وحيد) لأنه كان يحب الحيوانات.

(رازي): كم عمره؟

(حازم): تسع سنوات.. ويسعدني أن أجيبك على كل استفساراتك وهذا من حقك، لكن كل سؤال سيجرُّ وراءه أسئلة أخرى والسيدة (صباح) ستجيبك عن كل شيء فهي أعلم مني بدقائق الأمور فيما يختص بالسيد (وحيد).. أليس كذلك يا سيدة (صباح)؟

هزت (صباح) رأسها بالموافقة وهي تدمع مما دفع (حنين) للاقتراب منها ووضع يدها على كتفها في محاولة للتهدئة من روعها لكن (رازي) لم يخرج من حالة الصدِمة والذهول التي اعترته ووقف وقال محدثًا الجميع: هل كلكم كنتم على علم بهذا؟ لمَ أنا آخر من يعلم؟ لمَ أبقيتم هذا الأمر سرًّا عني؟ ولمَ لا يرثها هو؟ لمَ أتحمل أنا هذه المسؤولية؟

وقف المحامي ووضع الأوراق في حقيبته وقال: أنت لست ملزمًا بتحمل أي شيء يا سيد (رازي).. الوصية واضحة.

(رازي) بعصبية: بل ملزم! وهي كانت تعرف ذلك وتعرف أني لن أستطيع التخلي عنه وإلا لما كانت أورثتني حقه من الميراث! هي لم تترك لي أي خيار!

(حازم) حاملًا حقيبته: بل هناك خيار تنازلك أنت عن ميراثك له..

(رازي): هل يمكنني ذلك؟

(حازم): نعم بالطبع.. لكنه لن يكون مخولًا بالتصرف في تلك الأموال قبل سن الرشد وستصبح كلها تحت تصرف من ستنقل الحضانة له وهو حسب القانون سيكون السيد (مالك).

لم يرد (رازي) وبقي صامتًا وهو يراقب المحامي يسير خارجًا من المكان ويغلق الباب خلفه قبل أن يقول: «سوف آخذ قرارك النهائي بعد أسبوع يا سيد (رازي)..»

جلس (رازي) على الأريكة محتضنًا وجهه المشوش والمصدوم بكفيه وظل يحدق بالأرض تحت قدميه..

أشارت (صباح) لـ (جابر) وابنتها بأن يخرجا ويتركاها وحدها معه ففعلا وبعد رحيلهما بدقائق قالت: كل شيء سيكون على ما يرام.. لا تقلق!

(رازي) وهو سارح أمامه: حدثيني عنه..

(صباح): تقصد السيد (وحيد)؟

(رازي): نعم.. لمَ كان يقيم بعيدًا عن (مريم) ولمَ أخفته علي؟

(صباح): السيدة (مريم) أخفته على الجميع وليس عليك فقط.

(رازي): لماذا؟

(صباح) تجلس بجانبه مستذكرة: الصرخة هي أول أنفاس الإنسان على هذه الدنيا وهكذا بدأ (وحيد) حياته عندما خرج من رحم أمه باكيًا وسط بستان من الابتسامات المرحبة بقدومه.. لم يكن يعرف أن أمه ضحّت بفرصة إنجاب غيره كي تحظى بفرصة لتقبيله لذلك أسمته (وحيد) لعلمها المسبق بأنه لن يكون لديه إخوة، فبالرغم من تحذير الأطباء لها بألا تُقدم على الإنجاب لخطورة ذلك على حياتها وحياة جنينها لأنها ستضطر للتوقف عن تناول أدويتها التي كانت في أمس الحاجة لها غير أنها لم تستجب لهم وأقدمت على تلك المخاطرة. تربّى (وحيد) معها بعد ما انفصلت عن أبيه الذي توترت علاقته معها بشكل ملحوظ عند بلوغه الثالثة، وفي

تلك الفترة المتوترة نفسها اكتشفت أنه مصاب بمرض يسمى بـ (التوحد).. مصادفة غريبة أليس كذلك؟

لم يكن الصبي الصغير يتحدث سوى معها وكان حديثه عبارة عن جمل مختصرة في كلماتها ومحتواها ويرفض أن يتقرب أي أحد منه سواها، مهما حاولنا جميعًا في القصر دفعه لمشاركتنا الكلام والتفاعل معنا إلا أنه يأبى ذلك ويكتفي بالصمت والتحديق بنا أو الهرب والاختباء في غرفة أمه حيث كان ينام.

أعتقد أن من أسباب خلاف السيدة (مريم) مع زوجها السابق طريقة تربية السيد (وحيد) فأبوه السيد (كمال) أصر على إدخاله المدرسة كي لا ينطوي أكثر وينفصل عن مجتمع ولد فيه ومقدر له التعايش معه..

(رازي): وهل وافقت (مريم) على إلحاقه بالمدرسة؟

(صباح): نعم.. بعد إلحاح وإصرار شديدين من أبيه قررت خوض التجربة خاصة وأن الأطباء أيدوا قرار السيد (كمال).. أول يوم للسيد (وحيد) في المدرسة كان أشبه بالعزاء لها فقد بكت طيلة الصباح وهي تحضِّره للذهاب مع أبيه برفقة (جابر).. كان يومًا لا يُنسى..

«(كمال): ما بك يا (مريم)؟.. الفتى يحدق بك مفزوعًا وأنتِ تبكين!

(مريم) مستنشقة دموعها وهي تمرر أناملها في شعر ابنها وتمد حقيبته لـ (جابر): أنا لم أفترق عنه من قبل وأخشى عليه من الناس.

(كمال): سأكون معه لا تقلقي.

(مريم) بنبرة محذرة: إذا ضايقه أحد فعدني بأنك ستعيده للمنزل!

(كمال) واضعًا كفه على ظهر ابنه: أعدك.. أعدك.. هيا يا (وحيد) لنذهب

سحبت (مريم) ابنها وعانقته بقوة وهمست في أذنه: سأشتاق لك!

(كمال) متذمرًا: سنتأخر! اتركيه!

حررت (مريم) ابنها من عناقها الحار وخرج برفقة أبيه متوجهًا للسيارة..

خلال الطريق كان (وحيد) يحدّق بكل شيء عبر النافذة.. منبهرًا

بالشارع الذي قلما رآه.. ترجل الاثنان من السيارة بعد وقوفها أمام
بوابة المدرسة المكتظة بالطلاب من كافة المراحل ووقف الأب ينتظر
(جابر) ليحضر حقيبة (وحيد) الذي ابتسم عندما رأى أول قطة في
حياته تسير على قارعة الطريق مما دفعه للتفلّت من يد والده ليذهب
نحوها كي يداعبها.. لحق به أبوه وأمسك معصمه ونهره قائلًا: «لا
تترك يدي أبدًا..»

أمسك (وحيد) بحقيبته التي مدها له (جابر) مبتسمًا وسار مع أبيه
نحو المدرسة وعيناه لا تزالان تتابعان تلك القطة..

بعد ما جلس السيد (كمال) مع مدير المدرسة وشرح له حالة ابنه
وطلب منه أن يهتم به أكثر، أكد له المدير أنه سيقوم بكل ما في
وسعه كي ينسجم (وحيد) مع بقية الطلاب وسوف يقوم بشرح
حالته لبقية المعلمين. رحل الأب مع (جابر) بالرغم من أنّ (مريم)
طلبت منه أن يبقى مع ابنها طيلة يومه الدراسي الأول لكنه فضّل
التوجه للمصنع وممارسة عمله كالمعتاد. دخل (وحيد) ساحة
المدرسة واتسعت عيناه عندما رأى جموع الطلاب الغفيرة يلعبون
ويجرون وبقي يراقبهم باسمًا دون أن يحاول مشاركتهم حتى حان

وقت الطابور الصباحي ورن جرس المدرسة وهنا بدأت المشكلة الأولى..»

(رازي) متسائلًا خلال سرد (صباح) للحكاية: ماذا حدث؟

(صباح): دخل (وحيد) في نوبة هلع وصراخ دفعت الطلاب للاجتماع حوله والضحك عليه وبعضهم قام بالاعتداء عليه جسديًا أيضًا حتى حضر أحد المدرسين وأخذه لمكتب المدير الذي اتصل بأبيه للحضور لأخذه.

بعد هذه الحادثة أقسمت السيدة (مريم) أنها لن تدخله المدرسة وستقوم بتعليمه بنفسها في المنزل متجاهلة اعتراض السيد (كمال) واتهامه لها بأنها ستفسده بتلك الطريقة، لكن السيدة (مريم) كانت حازمة في قرارها ولم تتراجع عنه ومن هنا تفاقمت الخلافات بينهما ولم يمضِ عام حتى افترقا.

(رازي): وأين زوجها الآن؟

(صباح): لم نره منذ ذلك اليوم.. أعتقد أنه هاجر لمكان بعيد.. لا أعرف!

(رازي): ولمَ لم يبقَ (وحيد) مع أمه؟

(صباح): السيدة (مريم) لم تفكر أبدًا بمفارقة ابنها للحظة واحدة، لكن عندما عاودها المرض مرة أخرى قبل عامين تقريبًا واضطرت للبقاء في المستشفى لعدة أشهر كان لا بد لها أن تجد وسيلة تطمئن بها على (وحيد) خاصة وأنه كان يبكي دومًا في غيابها ويرفض تناول الطعام إلا إذا أخذناه لها في المستشفى لتقوم هي بإطعامه، وهذا الحال لم يكن ليستمر بسبب دخول السيدة (مريم) في غيبوبات متقطعة تستمر لأيام أحيانًا.. كانت أيامًا عصيبة علينا جميعًا..

(رازي): ما حكاية تلك المدرسة الخاصة التي تحدث عنها المحامي؟

(صباح): تلك المدرسة كانت طوق النجاة الذي أنقذنا جميعًا من الغرق.. مدرسة متخصصة في التعامل مع من هم بحالة السيد (وحيد) وتقع في مدينة أخرى، ومن أرشدنا إليها هو أحد الأطباء المشرفين على حالة أمه عندما رآه يبكي بجانبها وهي غائبة عن الوعي.

(رازي): وهل وافقت (مريم) بسهولة أن يلتحق بتلك المدرسة؟

(صباح): لم يكن أمامها خيارٌ آخر.. لقد انتهزنا فرصة استيقاظها من إحدى غفواتها الطويلة وشرحنا لها الأمر وكيف أن (وحيد) يعاني بغيابها وأن الأمر سيكون مؤقتًا حتى تستعيد عافيتها فوافقت على مضض واشترطت أن أبقى أنا و(جابر) معه في تلك المدرسة وألا نتركه، وبالرغم من أن ذلك كان ممنوعًا لكننا تمكنا من إقناع إدارة المدرسة بأننا سنزوره فقط كل يوم للاطمئنان عليه.. تكاليف تلك المدرسة كانت باهظة جدًّا فقد تكفّلوا بكافة حوائجه الحياتية من مأكل ومشرب وإقامة بسكن خاص في مبنى المدرسة نفسه.

(رازي): وهل اندمج (وحيد) بسرعة؟

(صباح): أسرع مما كنا نتصور.. تلك المدرسة والعاملون فيها يجيدون فعلًا عملهم فخلال أسابيع قليلة تغير السيد (وحيد) وتطورت سلوكيّاته ومهاراته اللغوية وأصبح يعتمد على نفسه كثيرًا لدرجة أنه لم يعد يحب رؤيتنا أنا و(جابر) ولا يرحب بنا كما كان يفعل في أيامه الأولى وأصبح تعلقه منصَبًّا على زملائه ومعلماته.

(رازي): هذا شيء جيد.

(صباح): لكن السيدة (مريم) وبعد تجاوزها المرحلة الخطرة من

عودة المرض وخروجها من المستشفى لم تُسر في البداية عندما زارته في المدرسة بنية إخراجه وإعادته لكنفها لأنه رفض بشدة مفارقة أصدقائه ومعلماته ولم يعد يحمل ذلك التعلق الشديد بها مما كسر قلبها، لكنها أدركت أن هذا قد يكون أفضل له ولمستقبله بالرغم من شعورها بالحزن الشديد لأنها أحست بأنها خسرته للأبد ولم يخفف عنها وطأة هذا الفقد سوى معرفتها بأن المدرسة تمنح طلابها إجازة سنوية لمدة شهر ليعودوا لبيوتهم فاستغلت ذلك الموعد السنوي للسفر معه لمكان بعيد، ومع كل سفرة تقضيها معه تزداد ثقتها بتلك المدرسة لأنها شاهدت التغيُّر الإيجابي الذي طرأ عليه وكانت تمني نفسها بيوم تخرجه لكن الأقدار شاءت أن لا ترى هذا اليوم وأعتقد أنها شعرت بذلك في كل مرة تزور فيها الطبيب مع إحساسها بدنو أجلها.

(رازي): كل هذا كانت تخفيه علي؟

(صباح): لم تكن تريد أن تشعر بشفقة نحوها ربما.. السيدة (مريم) عاشت حياة عصيبة وصدقني عندما أقول لك إنك كنت من النوادر الذين أدخلوا البهجة والسعادة لحياتها بعد رحيل السيد (وحيد) عنها.

(رازي): وهو الآن أصبح مسؤوليتي..

(صباح): هل أفهم من ذلك أنك موافق على رعايته وضمّه لحضانتك؟

(رازي): كما أخبرت المحامي.. (مريم) لم تترك لي أي خيار وهذا كان هدفها منذ البداية.

(صباح): من المحزن أن تظن هذا.. هذا يعني أنك لم تر ما كانت تريد أن تظهره لك من حب.

(رازي): أنا لا ألام على تفكيري هذا.. ظهور (وحيد) في الصورة شتت أفكاري ورمى بي في دوامة من الشكوك والظنون.

(صباح): لا أحاول أن أُحيد رأيك عن أمر لست مقتنعًا به ولكن في الواقع أنت لن تكون مسؤولًا عن السيد (وحيد) بشكل مباشر.

(رازي): لم أفهم.

(صباح): أخبرتك بأن السيد (وحيد) يقضي طيلة العام في تلك المدرسة ولا يتركها إلا شهرًا واحدًا في العام يمكنه قضاؤه معي أنا و(حنين) أي أنك لن تضطر لمقابلته حتى.. كل مسؤوليتك

تجاهه ستنحصر فقط في دفع مصاريف المدرسة السنوية وحتى هذه لم يتبقَّ منها سوى خمسة أعوام فالمدرسة لا تبقي على طلابها بعد سن الخامسة عشرة لأنهم وقتها من وجهة نظرهم يكونون جاهزين للعودة والانخراط في المجتمع.

(رازي): لمَ أحس بأني لو قمت بذلك فسأكون - كما قال (مالك) - استغلاليًا وأنانيًا؟

(صباح): سيكون هذا التصرف الأمثل بدل أن تقبل بشيء لا تريده.

صمت (رازي) بوجه متفكر ولم يرد..

(صباح): صدقني هذا هو الحل المناسب في الوقت الحالي.. وما زال أمامنا سنوات قبل تخرج السيد (وحيد) وأشياء كثيرة قد تحدث إلى ذلك الوَقت.

(رازي): حسنًا.. سوف أبلغ (حازم) بأني قبلت الوصاية على (وحيد).

(صباح) مبتسمة: قرارك هذا أسعدني وأسعد السيدة (مريم)، ولم أشك للحظة بأنك ستتخذه لأنك صاحب قلب نقي وأي تردد

شعرت به لم يكن إلا بسبب صفاء نيتك ورغبتك في أن تقوم بما هو صحيح.

(رازي): شكرًا يا (صباح).. كنت محتاجًا لسماع مثل هذه الكلمات.

(صباح): نحن عائلة واحدة وسنبقى كذلك..

(رازي): ماذا تنوين أن تفعلي الآن؟

(صباح): في الحقيقة كنت أنوي الحديث معك في موضوع يخصني ولم أكن سأفاتحك به الآن لكن وبما أنك سألت سوف أخبرك.. ابنتي (حنين) تطمح لإكمال دراستها في الجامعة بعد ما حصلت على الشهادة الثانوية مؤخرًا بعد اجتيازها لجميع الاختبارات المطلوبة والجامعة تقع وسط المدينة وسيكون من الصعب عليها الذهاب والعودة يوميًا مع الاستمرار بمزاولة عملها هنا وأنا كذلك لا أستطيع تركه..

(رازي) مبتسمًا ومقاطعًا: فهمت.. أتفهم جيدًا رغبتكما بالرحيل فلا يوجد ما يستحق البقاء خاصة مع المنزلين اللذين تركتهما (مريم) لكما هناك.



(صباح): لا أبدًا لا تسئ فهمي أنا سـ..

(رازي) ممسكًا يديها محدقًا في عينيها: كنت أنا من سيطلب ذلك.. أنتما و(جابر) يجب أن ترحلوا وتعيشوا حياتكم... هذه وصيتها!

(صباح) وهي تدمع: سنكون قريبين منك في أي وقت تحتاجنا فيه.

(رازي): أعرف.. ولا تنسي (وحيد).. سيكون رابطًا سيجمعنا دومًا.

(صباح) ماسحة دموعها: نعم معك حق.. شكرًا يا سيد (رازي).

(رازي) مبتسمًا: (رازي) فقط.. هل نسيتِ؟ هيا.. اذهبي وبشري (حنين) بأنها ستحقق حلمها.

قضى (رازي) الأسبوع التالي في ترتيب حياته الجديدة واستهلّها بإبلاغ المحامي بأنه قد وافق على قبول حضانة (وحيد) وأنه سيكون وصيًا عليه وأشرف معه كذلك على توزيع التركة للمستحقين كما نصَّت الوصية وشيئًا فشيئًا تناقصت أعداد المقيمين في القصر ولم يبق سوى عدد بسيط من الخدم فـ(جابر) وبعد وداعه الحار لـ(رازي) بدأ رحلة عمره المؤجلة وسافر خارج البلاد وكذلك (صباح)

وابنتها اللتان انتقلتا لمنزليهما الجديدين بحي ((الشلّال الأزرق)) بعد ما قدمت (حنين) أوراقها لكلية الطب في انتظار قرار قبولها لتبدأ بالدراسة وتحقيق حلم عمرها. خلال ذلك الوقت انشغل (رازي) عن المصنع الذي لم يذهب إليه منذ وفاة (مريم) ولم ينتبه لذلك إلا عندما تلقى مكالمة صباح أحد الأيام من المسؤول العام للعمال الذي كان يستفسر عن سبب عدم حضور السيد (مالك) لعدة أيام.

(رازي) عبر الهاتف لمسؤول العمال: آه نعم.. السيد (مالك) لم يعد مديرًا للمصنع لقد تم الاستغناء عن خدماته.

(مسؤول العمال): لم يتم إبلاغي بذلك.. من سيحل مكانه إذًا؟ نحتاج إدارة لتدير شؤوننا!

(رازي): لا تقلق سأهتم بالأمر قريبًا، لكني منشغل ببعض الأمور في الوقت الحالي.. هل يمكنك تولي مهامه حتى أعود؟ لك جميع الصلاحيات التي كان يملكها السيد (مالك) مارسها دون الرجوع إلي.

(مسؤول العمال): شكرًا على ثقتك يا سيد (رازي).. سوف أهتم



بكل شيء عدا الشؤون المالية لأني لا أملك تفويضًا بذلك وهي مسؤولية المحاسب فقط.

(رازي): لا بأس.. لن تحتاج لذلك.. بالتوفيق.

أغلق (رازي) الهاتف وضم أصابعه بعضها لبعض مسندًا أطرافها إلى شفتيه متفكرًا سارحًا أمامه.

بعد دقائق من السرحان بصمت رن الهاتف فرفع (رازي) السماعة ليجد على الطرف الآخر (صباح) تتحدث قائلة: أهلًا كيف حالك؟

(رازي): كيف حالك يا (صباح) أنتِ و(حنين) وكيف وجدتما إقامتكما الجديدة في المدينة؟

(صباح) بسعادة: الحمد لله بأحسن حال.. بدأنا بالاستقرار واشترينا بعض الأثاث الجديد لكننا لم نستطع العيش مفترقتين لذا انتقلنا لنعيش معًا في المنزل الأكبر ونفكر بتأجير الآخر.

(رازي): جميل!.. أنا سعيد لأجلكما.

(صباح): كيف حالك أنت؟

(رازي): في الحقيقة لم أعتد بعد على العيش وحدي فهذه أول مرة أكون وحيدًا خاصة بمكان كبير كهذا.



(صباح) ممازحة: لمَ لا تنتقل للعيش في المدينة؟ مخالطة الناس ليست بذلك السوء.

(رازي) ضاحكًا: سأفكر بالأمر.

تبع ذلك صمت من الطرفين لعدة ثوانٍ أتبعها (رازي) وبنبرة هادئة يتخللها بعض التردد: جميل أنكِ اتصلتِ أريد أن أطلب منكِ طلبًا بسيطًا..

(صباح): تفضل سيد (رازي) اطلب ما تشاء!

(رازي): أريد أن أزور قبر (مريم) وأشعر بالخجل لأني لم أذهـ..

(صباح) مقاطعة: فهمت.. أنا بانتظارك.

(رازي): شكرًا (صباح)..

ركب (رازي) سيارته وتوجه لمنزل (صباح) في وسط المدينة بعد ما أعطته العنوان وعند وصوله وتوقفه أمام باب منزلها ترجل من سيارته ووقف يتأمل المنزل ولم يطرق الباب وبينما كان يتمعن في تفاصيله سمع صوت (حنين) تناديه من الخلف ببهجة: سيد (رازي)؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

(رازي) ملتفتًا إليها باسمًا: أتيت لزيارتكما.. أم أنكما لا تريدان ضيوفًا؟

(حنين) ضاحكة: لا لا أبدًا. على الرحب والسعة! أنا سعيدة جدًا لرؤيتك!

(رازي) وهو يلمح احتضانها لمجموعة من الكتب والكراسات: هل بدأت الدراسة في الكلية؟

(حنين) موجهةً نظرها للكتب والكراسات: لا ليس بعد، لكني أذهب لمكتبة الجامعة كل يوم إلى أن يتم قبولي.. ادعُ لي يا سيد

(رازي) أنا خائفة من أنهم لن يقبلوا بي!

(رازي) مبتسمًا: لا تقلقي أنا واثق من أنهم لن يرفضوا طالبة مجتهدة مثلك.

(حنين) بسعادة: شكرًا لك!

(رازي): هل أتيتِ سيرًا على أقدامكِ؟

(حنين) مشيرة خلفها: نعم! فالجامعة قريبة جدًا من هنا.

فُتح باب المنزل وخرجت (صباح) وعندما شاهدت (حنين)

و(رازي) واقفين يتحدثان تبسمت وقالت: أهلًا (رازي)..

(حنين)؟ متى عدتِ؟

(حنين): للتوِّ يا أمي.. لمَ تحملين حقيبتكِ معكِ؟ هل أنت خارجة؟

(صباح) وهي تسير نحوهما: نعم. سوف أذهب مع (رازي) لمشوار قريب

(حنين) بتوسل: خذاني معكما!

(رازي) بتردد: حسنـ..

(صباح) مقاطعة: لا.. لديكِ مهام أريد منكِ إنجازها في المنزل.

(حنين) بتساؤل: مهام ماذا؟

(صباح): لا تناقشيني وادخلي!

(حنين) رافعة أكتافها وهي تهمُّ بالدخول: حاضر يا أمي! إلى اللقاء سيد (رازي)!

لوَّح (رازي) لها باسمًا بيده حتى دخلت وأغلقت الباب خلفها..

(صباح) سائرة نحو السيارة: لنذهب.. سوف أرشدك للطريق.

بعد أن قطع الاثنان مسافة استغرقت ربع ساعة تقريبًا وصلا لأرض

مسوَّرة توقف (رازي) عند بوابتها الكبيرة ليخرج لهما رجل تعرف على (صباح) في الحال وقال: صباح الخير سيدة (صباح).

(صباح): أهلًا (باسم).. نريد الدخول لو سمحت.

(باسم) موجهًا نظره لـ (رازي): الدخول فقط لأفراد العائلة والمصرَّحِ لهم وأنتِ تعرفين ذلك.

(صباح): هذا السيد (رازي) زوج الراحلة السيدة (مريم).

(باسم) بتحرج: العفو يا سيدي فأنا لم أقابلك من قبل.. تفضل!

فتح الحارس البوابة وأشار لهما بالدخول فتحرك (رازي) بالسيارة دخولًا لوسط مقبرة العائلة. كان المكان كبيرًا جدًّا والأشجار والخضرة وبساتين الزهور منتشرة في كل مكان وكأنهما دخلا غابة وليس مقبرة.

(رازي) يجول بنظره خلال قيادته: مكان جميل وغريب..

(صباح): لِمَ تقول ذلك؟

(رازي): مقبرة القرية التي عشت فيها لم تكن سوى أرضٍ ترابية وكل قبر فيها مُيِّز بحجر أو صخرة كشاهدة بسيطة فقط!

(صباح): هذه المقبرة تاريخها طويل وقد أسَّسَها الجد الأكبر للسيدة (مريم).. وقد خصصت لأفراد عائلته وذويهم فقط..

(رازي) وهو مستمر بالتقدم بالسيارة لوسط المقبرة: وهل في الموت أفضلية وخصوصية؟

(صباح): لا أعرف لكن هكذا هو الحال!

(رازي): أين أتوجه الآن؟

(صباح) مشيرة بسبابتها أمامها: توقف هنا.

أوقف (رازي) السيارة ليشاهد في الأفق مجموعة من الأنصبة الحجرية الكبيرة كالتوابيت استقر كل منها على بعد كبير من الآخر وكل نصب صمم بطريقة مختلفة وزرع من حوله نباتات وورود ذوات ألوان متعددة.

(صباح) محركة سبابتها المرفوعة لأحد الأضرحة: هذا هو قبر السيدة (مريم).. سأكون بانتظارك هنا.

(رازي): ألن ترافقيني؟

(صباح) منزلة رأسها: لا.. لا أقوى بعد.. وقد لا أجد تلك القوة قريبًا.



أمسك (رازي) مقود السيارة بكلتا يديه ولم يترجل منها وبقي يحدق بقبر (مريم)..

لاحظت (صباح) تردده وملامحه القلقة فوضعت يدها على إحدى قبضتيه وقالت بنبرة مطمئنة: ستفرح بزيارتك..

التفت نحوها وتبسم بابتسامة صغيرة ونزل من السيارة وسار متوجهًا لقبر (مريم)..

وقف (رازي) عند قبر زوجته الراحلة مخرجًا فصَّ القلادة من وراء قميصه وهو يقول باسمًا: ما زلت محتفظًا بها..

مد يده ماسحًا بكفِّه سطح ضريحها الصخري الذي اجتمعت فوقه مجموعة من باقات الورود الجافة وقال: في المرة القادمة سأحضر لكِ أزهارًا جديدة..

جلس أمام القبر مقرفصًا ولم يقل شيئًا بل أخذ يعبث ببعض أهداب الأعشاب أمامه وحوله حتى حط طائر صغير على رأسه وغرَّد قليلًا قبل أن يحلق مبتعدًا مما دفعه لتأمله باسمًا وهو يحلق صعودًا نحو الغيوم إلى أن وقعت عيناه على قرص الشمس الساطع فرفع كفه

أمام وجهه ليحميه من أشعتها الثاقبة. وقف (رازي) وقرر الرحيل بعد أن أمضى وقته في مراقبة قبر (مريم) بصمت مع إطلاق بعض التنهدات من وقت لآخر، وقبل أن يخطو أول خطوة تجاه السيارة رفع القلادة الفضية ليتأملها فانكسر ضوء من أشعة الشمس على سطح فصها إلى عينه مباشرة وكانت ردة فعله لما حدث غريبة فقد بدأ بالصراخ تجاه القبر قائلًا:

«هل كانت هذه خطتك منذ البداية؟! هل تقربتِ مني فقط كي تؤمّني شخصًا ليرعى ابنك بعد موتك؟! كنتِ تعرفين أن رحيلك قريب ومحتوم فقررتِ البحث عن شخص ساذج كي يرث عبأك أليس كذلك؟! أنت لم تحبيني قط! أمي كان معها حق في كل ما قالته عنكِ! جاوبيني!!»

ركل (رازي) الضريح الصخري بقوة مما أدى لكسر أصبع قدمه لكنه لم يشعر بالألم وقتها واستمر بالصراخ قائلًا: أنا أكرهك!! .. أكرهك!!

سار (رازي) عائدًا نحو السيارة وهو يعرج وفتح بابها وركب وأغلق الباب بقوة وهو يتنفس بثقل و(صباح) تراقبه بهدوء وقبل



أن يدير المحرك قالت له:

«كل منغصات الحياة يمكن تجاهلها بعقولنا إلا إذا كان مصدرها شخص سكن ذلك العقل..»

(رازي) مديرًا المحرك وبنبرة غاضبة: لا المواقف ولا الظروف تُظهر أسوأ ما فينا.. بل أشخاص.. وبالأخص من نقربهم خَطَأً منا.. ولا أحد يسكن عقلي!

(صباح): لم أكن أتحدث عنك يا سيد (رازي)..

أمضى الاثنان طريق العودة نحو منزل (صباح) وسط المدينة دون حديث حتى توقفت السيارة عند بابها فقالت: هل ستكون بخير؟

(رازي) موجهًا نظره لقدمه وقد هدأ قليلًا لكنه لا يزال مستاء: نعم.. إنه مجرد ألم بسيط..

تبسمت (صباح) ثم وضعت يدها على مقبض الباب وفتحته وقبل ترجلها قالت: كل ألم يزول ويُنسى مهما كان كبيرًا في بدايته.. المهم ألا يترك ندبة تذكرنا به مدى الحياة..

تحرك (رازي) مباشرة بعد ما أغلقت (صباح) الباب ولم يودعها بكلمة..



بعد وصوله للقصر شاهد أحد الخدم العاملين يقف عند الباب الرئيس من الخارج على غير العادة وبعد نزوله من السيارة جرى الخادم وعلى وجهه ارتسمت علامات القلق الشديد فبادره (رازي) بالسؤال: ما الأمر؟ ما بك مرتبكًا هكذا؟

(الخادم): المعذرة يا سيدي لكن هاتف المنزل لم يهدأ منذ خروجك!

(رازي): لماذا؟! ما الذي حدث؟!

(الخادم): لا أعرف.. أشخاص كثيرون اتصلوا يسألون عنك وجميعهم كانوا في حالة ارتباك وجزع وبعضهم صرخ فيَّ عندما أخبرتهم بأنك لست موجودًا!

(رازي) وقلقه يتصاعد: أشخاص؟ أي أشخاص؟!

(الخادم): لم يعرّف أيٌّ منهم بنفسه لكني تعرفت على صوت أحدهم.

(رازي) بعصبية: من؟! أخبرني من؟!

(الخادم): المحامي الذي كان يزور السيدة (مريم)!

(رازي): تقصد السيد (حازم)؟!



(الخادم): نعم نعم هو!

جرى (رازي) ودخل القصر بسرعة وتوجه على الفور للمكتب وقبل أن يرفع سماعة الهاتف للاتصال بالمحامي رن جرسه فتوقفت يده فوق السماعة لثوانٍ وقلبه ينبض قلقًا وتوترًا مما سوف يتلقاه من خبر لا محالة أنه سيئ.. أخذ نفسًا عميقًا وقبض السماعة ورفعها عند أذنه وقال بنبرة هادئة متوجسة: نعم..

«المصنع احترق بالكامل..»

كانت هذه العبارة التي قالها المحامي لـ (رازي) وأشعرته بدوارٍ في رأسه وضعف مباغت في ركبتيه مما دفعه للجلوس وهو يشعر بالغثيان..

(حازم) من الطرف الآخر للمكالمة: سيد (رازي).. هل سمعتني.. المصنع..

(رازي) مقاطعًا وهو يمسح عرق جبينه: نعم سمعتك..

(حازم): لقد حدث الأمر فجأة، وما أن بلغني النبأ حتى توجهت مباشرة إلى هناك.. لم يبقَ سوى الرماد والركام.. فرق الإطفاء لم تلحق أن تنقذ شيئًا والمؤشرات تؤكد أنه من فعل فاعل والتحقيق جارٍ لكشف ملابسات الحادث..

(رازي): هل أصيب أحد في الحريق؟

(حازم): لا، الحمد لله الجميع خرجوا سالمين.. لا تقلق سأهتم بكل الإجراءات وسنحصل على تعويض من شركة التأمين.

(رازي) فاركًا وجهه بكفه: حسنًا سأنتظر منك اتصالًا آخر عند حدوث أي تطور

(حازم): لا شك، سوف أمرج بك غدًا أول الصباح قبل توجهي لمركز الشرطة لبحث المستجدات ولآخذ بعض الأوراق التي سأحتاجها معي منك.

(رازي): سأكون بانتظارك.

اجتمع الاثنان صباح اليوم التالي كما كان الاتفاق واستهل (حازم) الحديث بقول: لقد اطّلعت على آخر مجريات التحقيق مساء الأمس والمحققون شبه متيقنين من أن الحريق بفعل فاعل لكنهم ينتظرون تقريرًا من الإطفاء.

(رازي): هل هناك مشتبه بهم؟

(حازم): لقد سألوني السؤال ذاته وقد ترددت كثيرًا في ذكر اسم السيد (مالك) بحكم أنه تعرض للفصل قبل الحادث بفترة وجيزة بالإضافة لما حدث من صدام يوم توزيع التركة فكل المؤشرات تشير إلى أنه هو من أحرق المصنع لكن..

(رازي) مقاطعًا: لكن ماذا؟ أنا أيضًا أشك به.

(حازم): سنطرح اسمه حالما تتضح الصورة لنا أكثر..

(رازي): وهل هذا سيعيد شيئًا مما فقدناه؟

(حازم): بغض النظر عن ذلك هذا إجراء لا بد أن نتخذه ونشوه عنه لفريق التحقيق عاجلًا أم آجلًا.. هل جهّزت لي الأوراق التي طلبتها؟

سحب (رازي) مقبض الدرج وأخرج ملفًّا منه ووضعه على سطح المكتب وقال: هذه كل الأوراق التي معي الخاصة بالمصنع.. البقية كانت في مكتب (مالك) وبالتأكيد أصبحت رمادًا الآن!

أخذ المحامي الملف وقال: سوف أتفحص جميع الأوراق وأدرسها جيدًا.. ما رأيك أن نجتمع مرة أخرى في الموعد نفسه غدًا لمناقشة المستجدات؟

(رازي): هل سترحل؟ لقد وصلت للتو!

(حازم): أمامي يوم طويل في متابعة الموضوع وطمأنة العمال الذين فقدوا وظائفهم

(رازي): ما مدى الضرر الذي أصابنا؟

(حازم) زافرًا: كبير.. كبير جدًّا.. المسألة ليست فقط مصنعًا فقدناه.. هناك عقود مبرمة مع التجار لتزويدهم بمنتجات المصنع، وتلك العقود تحمل في طياتها شروطًا جزائية قاسية إذا لم نلبِّ طلباتهم في الوقت المتفق عليه بالإضافة لرواتب الموظفين والعمال التي ستحل قريبًا.

(رازي) بقلق: وكيف سنسدد كل هذا؟

(حازم): لا تقلق.. التأمين سيغطي كل الخسائر.. هذا ليس همي الآن.

(رازي): ما الذي يقلقك إذًا؟

(حازم): لنؤجِّل الحديث للغد كي لا أكون متسرعًا في نقل أية أخبار سيئة لك.

(رازي): حسنًا.. موعدنا غدًا بإذن الله.

خرج المحامي من المكتب وما أن أغلق الباب حتى رنَّ هاتف المكتب فرفع (رازي) السماعة ليجد (صباح) في الطرف الآخر تسأل وتطمئن عليه بعد سماعها بخبر حريق المصنع.



شكرًا لسؤالك.

(رازي): لا تقلقي كل شيء على ما يرام

(صباح): وكيف حال قدمك؟

(رازي) مبتسمًا: متورمة قليلًا..

(صباح): لم تذهب للطبيب أليس كذلك؟

(رازي): لم أجد وقتًا مع كل ما يحدث.

(صباح): سوف أتصل بالدكتور (ناجي) ليأتي في الحال.

(رازي): لا لا.. سأكون بخير!

(صباح): أنا لا أستشيرك.. هل تحتاج شيئًا آخر؟

(رازي): لا.. شكرًا يا (صباح).

(صباح): في أمان الله.

(رازي): أم (حنين)..

(صباح) متعجبة من مناداة (رازي) لها بكنيتها لأول مرة: نعم.. تفضل!

(رازي): أعتذر عما بدر مني بالأمس من فجاجة ووقاحة كنت مستاءً فقط.

(صباح) بنبرة حانية مطمئنة: من يعرف قلبك لن تعكره فلتات لسانك.. أنت بالذات يا (رازي) من المستحيل أن أستاء منك مهما فعلت، فالقدر الذي أحمله لك بقلبي لا يوازيه إلا ما أحمله لابنتي (حنين).. كن بخير..

أنهى (رازي) المكالمة ونهض من مكانه وخرج لبهو القصر بخطوات بطيئة بسبب قدمه المصابة وتوقف أمام مدخل غرفة الطعام يستذكر جلساته الصباحية مع (مريم) على مائدة الإفطار وقاده هذا الحنين للجلوس عند طرف الطاولة الكبيرة حزينًا ومهمومًا. بعد مضي نصف ساعة تقريبًا تناول فيها (رازي) قهوته الصباحية طُرق الباب فجرى أحد الخدم وفتحه ليدخل الدكتور (ناجي) ويسير نحو (رازي) حاملًا حقيبته ويجلس بجانبه قائلًا: صباح الخير سيد (رازي) كيف حالك اليوم؟

(رازي): الحمد لله بخير.

(ناجي) فاتحًا حقيبته: ممَّ تشكو؟ لقد أبلغتني السيدة (صباح) بأنك مريض.

(رازي): لا أبدًا مجرد إصابة بسيطة في قدمي ولم يستدعِ ذلك حضورك لكنها أصرت

(ناجي): هل يمكنني إلقاء نظرة عليها؟

(رازي) يخلع حذاءه: بالطبع..

كشف الطبيب على قدمه وقال: التورم كبير.. أعتقد أن هناك كسرًا لكن لا يمكنني الجزم بدون أخذ أشعة.

(رازي): ألا يمكنك وصف مسكن ما فقط؟

(ناجي): الاحتياط واجب.. بعض الكسور قد تتطور لما هو أسوأ إذا لم تعالج بالشكل الصحيح.. هل يناسبك الذهاب الآن للمستشفى لعمل الأشعة؟

(رازي) : غدًا.. يا دكتور غدًا

(ناجي) وهو ينهض من مكانه حاملًا حقيبته: سأكون بانتظارك لا تتأخر ولا تتهاون في الموضوع.

(رازي): حاضر

مساءً بينما جلس في غرفة الطعام لتناول عشائه سمع رنين الهاتف

فنهض وسار إليه ورفع السماعة وإذا به الموجود في بهو القصر

المحامي (حازم) يقول له: المعذرة على الاتصال في هذا الوقت لكن

الأمر طارئ بعض الشيء.

(رازي): ماذا حدث؟ هل عثرتم على الفاعل؟

(حازم): هل يمكنني الحضور؟ الأمر لا يستدعي التأخير.

(رازي) بقلق: نعم لا بأس سأكون في انتظارك.

لم تمض نصف ساعة حتى كان المحامي و(رازي) مجتمعَين في المكتب

واستهل (حازم) ذلك الاجتماع الطارئ بقول: «لدي سؤال قبل أن

أنقل إليك آخر المستجدات.. من المسؤول عن تجديد وثيقة تأمين

المصنع؟»

(رازي): المدير العام بالطبع!

(حازم): تقصد السيد (مالك)؟

(رازي): سابقًا نعم..

أنزل (حازم) نظره للأسفل واضعًا كفّه على فمه زافرًا نفسًا ساخنًا

بوجه مستاء..



(رازي) بقلق: ما الأمر؟.. ما الذي حدث؟

(حازم): لا أريد أن أكون حامل الأخبار السيئة اليوم لكن وكما يقال المصائب لا تأتي فرادى.

(رازي): ماذا هناك أيضًا غير مصيبة حريق المصنع؟

(حازم): حريق المصنع جرّ معه مشكلات عدة.. أصبح الأمر أشبه بأحجار الدومينو وهي تدفع بعضها بعضًا.

(رازي) بعصبية: لا تتلاعب بالسكين واغرسها بقلبي.. قل ما عندك!

(حازم) مستجمعًا نفسه: بعد مراجعة الأوراق التي قدمتها لي لم أجد أي ورقة تخص التأمين إلا وصلًا قديمًا لأحد الأقساط فتوجهت لمقر الشركة لأستخرج العقد الأصلي لأبدأ بإجراءات المطالبة بالتعويض لكنهم أخبروني بأن دفعات التأمين الشهرية لم تسدد منذ أشهر وحسب قانون الشركة والعقد المبرم بينهم وبين المصنع فإن التأمين يعتبر لاغيًا بعد التأخر عن سداد ثلاثة أقساط وأبلغوني بأنهم أرسلوا أكثر من تنبيه خطّي بخصوص ذلك

وخطاب إلغاء التأمين كذلك تم إرساله وهم بهذا مُعفون قانونيًا من تحمل أي تبعات!

(رازي) وهو مصدوم: لكن قسط التأمين يُخصم من الميزانية كل شهر!

(حازم): من الواضح أن السيد (مالك) كان يستولي على قيمة تلك الأقساط ولا يوردها.

(رازي) بعصبية: كيف يستطيع القيام بذلك في وجود محاسب خاص بهذه الأمور؟!

(حازم): لقد تواصلت مع المحاسب وأفادني بأن السيد (مالك) سحب منه صلاحيات كثيرة من ضمنها سداد أقساط التامين.. لقد سرق الكثير من الأموال الهامشية والتي تراكمت لمبالغ ضخمة نهاية كل شهر.

(رازي) بحسرة: هذا خطئي أنا.. كنت أعلم بسرقاته من أول أسبوع لي في المصنع ولم أتدخل مبكرًا لإيقافه عند حده، لكن لم يخطر ببالي أن تلك السرقات ستضعنا في هذا المأزق!



(حازم): وكما ذكرت لك سابقًا فهناك مديونيات كثيرة على المصنع ونحن مطالبون بسدادها في الحال قبل أن يتقدم أحد بشكوى أو رفع قضية تقود للحجر على ممتلكاتك وبيعها بسعر بخس..

(رازي): ماذا عن السيولة في البنك؟

(حازم): المبلغ المتبقي كسيولة بعد توزيع التركة سيكفي لسداد رواتب العاملين لشهر واحد بالإضافة لسداد نصف المبالغ للتجار فقط، وشركة التأمين لن تدفع لنا فلسًا واحدًا لإعادة بناء المصنع كي نقوم بالتعويض.

(رازي): معنى هذا أنني لا أزال مديونًا حتى بعد تصفية الحساب البنكي.

(حازم): نعم.. هذا هو الوضع المالي الآن يا سيد (رازي) وكان لا بد أن أخبرك بأسرع وقت لأن التجار وبعد خبر حريق المصنع شعروا بالذعر على أموالهم وبعضهم هدد بالمطالبة القانونية.

غطى (رازي) وجهه بكفيه ولم يقل شيئًا..

(حازم): هناك حلٌّ واحد للخروج من هذه الأزمة أو على الأقل التخفيف من وطأتها.

(رازي) مباعدًا يديه: ما هو؟

(حازم): بيع القصر..

(رازي): مستحيل!

(حازم): وليس فقط هذا.. يجب أن تعلن إفلاسك أيضًا!

(رازي): إفلاسي؟

(حازم): نعم.. كي تتملص من عقودك ومسؤوليتك تجاه العمال، لأنك ملزم بدفع رواتبهم شهريًا بحكم العقود المبرمة معهم فتلك العقود بها حزم من الحقوق والمنافع سترهق ميزانيتك المنهارة من الأساس وسوف تستنزفها بالكامل، وأولويتنا الآن هي سداد ديون التجار. يجب أن تبيع كل شيء.. القصر.. السيارة.. الخيول وكل شيء تملكه ذي قيمة وبالكاد ستخرج من هذا المأزق!

(رازي) وهو في حالة من الذهول والصدمة: كيف ينهار كل شيء بهذه السرعة والسهولة؟ أنا لا أفهم!

(حازم) موجهًا نظره للقلادة الفضية على عنق (رازي): هل تركت السيدة (مريم) أي حلي يمكنك بيعه؟

(رازي) مغطيًا فص القلادة بكفه متجهمًا: لا.. لم تترك شيئًا من هذا القبيل.

(حازم): هل تحققت؟ ألم تدخل غرفتها بعد وفاتها؟

(رازي) بغضب ونبرة ساخطة: ماذا تظنني؟!

(حازم) بهدوء: أنا لا أظن أي شيء يا سيد (رازي).. واجبي هو أن أبحث لك عن أي مصدر للمال الآن لتسدد ديونك.

(رازي) بعصبية: لم لا تزال جالسًا إذًا؟! ابحث عن مشترٍ للقصر وسدد كل الديون وقم بتصفية كل شيء!

(حازم) وهو ينهض: أحتاج توكيلًا منك بهذا.. سوف أرسله لك غدًا مع مساعدي.

(رازي): لا! كل عملية بيع سأشرف عليها بنفسي!

(حازم): كما تشاء ولعل هذا أفضل كي ترى كل شيء بعينك.. سأبدأ إذًا بإجراءات إعلان الإفلاس وأستخرج ورقة رسمية بذلك.

في الأيام التي تلت ذلك الاجتماع أنهى المحامي كل الأمور الـ

قال بأنه سيتولاها وقام ببيع القصر بسعر مناسب غطّى ما تبقى من ديون ورواتب عمال المصنع والعاملين والخدم قبل تسريحهم جميعًا وأمهل المشتري (رازي) أسبوعًا واحدًا فقط ليرحل وخلال تسليم (حازم) له آخر ورقة من أوراق المخالصات المالية في مكتبه قال له: وبهذا نكون قد أنهينا كل شيء بعد خصم أتعابي.. هذا هو مجموع ما في حسابك الآن.

(رازي) ناظرًا في الورقة وبتهكم: هذا المبلغ لا يكفي حتى أن أشتري غرفة في أسوأ حي بالمدينة لكنه أفضل من لا شيء.

(حازم): في الواقع بقي أمر واحدٌ لم أدرجه ضمن المصروفات المستعجلة لأنه قابل للإلغاء.

(رازي): عن ماذا تتحدث؟ ماذا بقي؟.. لقد سددنا كل شيء!

(حازم): صحيح لكن من واجبي قبل أن أنهي تعاملي معك بشكل رسمي ونهائي أن أخبرك بأن قسط مدرسة السيد (وحيد) سيحل قريبًا والمبلغ المطلوب ليس بالقليل وأنا أقترح أن تنهي تعاملك معها بنهاية الشهر وتدخله مدرسة عامة مجانية هذا إذا كنت لا تزال ترغب بحضانته لأنه مع وضعك المادي الجديد يحق لك التنازل عن وصايته لغيرك.

(رازي) بهدوء وثقة: هل ما تبقى في حسابي يغطي تكاليف دراسته

لسنة أخرى؟

(حازم): بالكاد.. لكنك ستكون وقتها مفلسًا بالفعل.

(رازي): لا يهم.. سدد تكاليف مدرسته لسنة أخرى.

(حازم): ماذا عن السنة التي تليها؟ والتي ستليها؟ أقترح أن..

(رازي) مقاطعًا: لا أريد أيًا من اقتراحاتك بهذا الخصوص.. اعتبر

هذه آخر مهمة أطلبها منك.

(حازم): حاضر كما تشاء.. المدرسة سيحتاجون عنوانك الجديد

وسوف أقوم بتزويدهم به عندما تستقر في مكان ما.

(رازي): في الوقت الحالي زوِّدهم بعنوان السيدة (صباح).

(حازم): تقصد المنزل بحي ((الشلال الأزرق))؟

(رازي): نعم مؤقتًا فقط حتى أجد سكنًا خاصًا بي.

(حازم): لك ذلك..

نهض المحامي ومد يده نحو (رازي) لمصافحته وهو يقول: كان

شرفًا العمل معك يا سيد (رازي).

(رازي) بعد نهوضه هو الآخر ومصافحته: شكرًا على كل ما قدمته واعذرني على أي إساءة بدرت مني.

تبسم (حازم) وقبض على يد (رازي) وهزها: ليت كل وكلائي بمثل أخلاقك.. وداعًا.

رحل المحامي تاركًا (رازي) مع أفكاره وهمومه الجديدة..

الكنز الثمين

أمضى (رازي) أسبوعه الأخير في القصر بين نومٍ واستيقاظ روتيني دون أي محاولة للبحث عن سكن جديد فهو لم يعد يملك شيئًا بعينه على ذلك وبدأت فكرة العودة للقرية تراوده بقوة كلما اقترب موعد تسليمه. قبل ذلك الموعد المحتوم وتحديدًا بنهاية اليوم الأخير بعد غروب الشمس وخلال جلوسه في الحديقة على كرسيٍّ خشبي صغير هبت ريح باردة تلاعب شعره قليلًا لكنها أثارت في عقله فكرة طرأت بباله فجأة وكأن أحدًا قد همس بها في أذنه، وهي أن يصعد للطابق العلوي ويدخل غرفة (مريم) التي لم يرَها من قبل، خاصة وأن المشتري قد دفع ما دفعه مقابل القصر بالأثاث الذي فيه وخشي (رازي) أن يكون هناك حوائج خاصة في تلك الغرفة ولا يريد لذلك المشتري أن يطلع عليها فنهض من مكانه وتوجه للجناح الذي أقامت فيه زوجته الراحلة واقترب من باب غرفتها ووضع يده فوق المقبض وأداره ببطء.

لم يكن (رازي) مستعدًّا لما شاهده فلم يرَ سوى غرفة فارغة تمامًا عدا

فراشًا بلحاف بسيط ووسادة بيضاء صغيرة دون وجود أي قطعة أثاث أخرى في أي ركن من أركان الغرفة. سار لوسطها بخطوات بطيئة ووجه متعجب ومتسائل. ظن في بادئ الأمر أن هناك من قام بسرقة المكان لكن ومع تفحصه أكثر وجد أنه لا يوجد أثر يدل على ذلك. لمح أن أحد الجدران تميز بنقش مختلف فاقترب منه ليكتشف أنه دولاب مخفى في وسط الجدار يفتح بالضغط.

كبس (رازي) بأنامله درفة الدولاب فاندفعت للخارج محدثةً صريراً خفيفاً كاشفةً عن مجموعة من الأرفف في الأعلى ودرجٍ كبير في الأسفل. مدَّ يده للرف الأول في الأعلى بعد أن أبعد الدرفة أكثر وسحب مجموعة من الأوراق كان من ضمنها تلك الورقة التي مدتها له (مريم) عندما كانا تحت شجرة التوتِ فتبسم ودمعت عيناه عندما تمكن من قراءة محتواها هذه المرة فقد كانت تقريرًا طبيًا يفيد بأن مرضها قد وصل لمرحلة متقدمة وفيها توقيعها بخروجها على مسؤوليتها من المستشفى.

قبض (رازي) يده وألصقها بشفتيه الراجفتين وقال محدثًا نفسه بتأنيب وقهر: «لقد حاولت إخباري منذ البداية.. لم تفكر يومًا

بخداعي لكنها لم تقوَ على الحديث عن مرضها معي كي لا تشعر بالضعف أو الشفقة مني.. وهي بدورها لم تحرجني عندما علمت بأني لا أستطيع القراءة بشكل جيد حينها.. كم كنت أحمق».

وضع (رازي) التقرير في جيب صدره المتألم وفتش في الرف الثاني نزولًا ووجد مدونة صغيرة فتحها من المنتصف فوقعت عيناه على صفحة كتب فيها:

«ربما لم أحسن الاختيار في الماضي أو ربما لم يكن لدي خيار من الأساس لكنني اليوم وجدت من تبتسم روحي لرؤياه وينبض قلبي فرحاً لمجرد سماع صوته. اندملت والتأمت كل جروحي عندما التم كفي بخده وتبخرت أحزاني بالحديث معه وانتهى حداوي.. أي روح نقية تلك التي داوتني من كل عللي؟.. وأي كنز تعثرت به اليوم في سوق القرية الصغير؟.. لن أرحل بدونه.. لن أنتظر شيئاً أريده حتى يأتيني.. سوف أقدم عليه بدون تردد..

سأتنازل عن كل كبرياء تمسكت بها طيلة عمري لأحظى بقربه حتى لو عنى ذلك سخط من حولي.. لم أعد أملك وقتاً أهدره في هذا العالم التعيس.. سيكون جزءاً من حياتي القصيرة وسأكون بداية حياته السعيدة.. أتمنى فقط أن يقبلني مثلما أصبح هو دون طوعي جزءاً مني.. سأخبره بأني أحبُّه حتى وإن كلفني ذلك خسارته..»

منتصف الليل..

المنزل فوق التلة..

أغلق (رازي) المدوَّنة التي اتضح له أنها مذكرات (مريم) الخاصة وامتنع عن قراءة المزيد احترامًا لها ولخصوصيتها لكن تلك الصفحة التي قرأها أشعلت في جوفه سؤالًا أحرق قلبه بعد ما تيقن من حبها الخالص له وقال محدثًا نفسه:

«ما الذي جعلها تتراجع عن قرارها الاعترافَ بحبي؟.. لمَ بدَّلت رأيها بعد ما كانت عازمة على ذلك؟»

إعاد (رازي) المذكرات مكانها وتفحص الرف الأخير ولم يجد فيه شيئًا سوى بعض أدوات التجميل والأمشاط وزجاجة نصف مملوءة من عطرها المفضل الذي تعطرت به ليلة زفافها عليه وكل صباح ومساء من بعدها وهي معه، وكان متعجبًا من قلة حوائجها وبساطتها فقام بسحب مقبض الدرج الكبير أسفل الدولاب ليرى أنه قد حوى جميع ملابسها فسحب لباسًا منه وقبض عليه بيديه وألصقه بوجهه مستنشقًا ما علق به من رائحتها وعبيرها، وفي تلك اللحظة انهار صرح صموده ونزل على ركبتيه باكيًا أمام ذلك الدولاب المفتوح في الجدار المصمت ولم يتوقف حتى أدركه التعب واستلقى على الأرض محتضنًا لباسها المبلل بدموعه وغط في نوم عميق.

استيقظ على صوت طرق جرس باب القصر فنهض بثقل وتكاسل وخلال نهوضه أحسَّ بألم شديد في قدمه وتذكر أنه لم يراجع الطبيب كما وعده قبل أسبوع لأن الألم قد زال تدريجيًا منذ ذلك اليوم لكنه عاد فجأة وبقوة أكثر من السابق، فبدأ يعرج خارج الغرفة نزولًا للبهو حتى وصل للباب الرئيس وفتحه ليجد رجلًا سمينًا يقف

أمامه يدخن سيجارًا سميكًا وخلفه وقف مجموعة من الرجال وقال: «ما الذي تفعله هنا؟.. ألم يخبرك المحامي بأني سأستلم القصر اليوم؟»

تعرف (رازي) على الرجل السمين والذي كان المشتري الذي ابتاع القصر وقال: «بلى بلى سوف أرحل لا تقلق..»

نفخ الرجل السمين سحابة من دخان سيجارته تجاه (رازي) وقال: توقعت أن أجد السيد (حازم) هنا ليسلمني المفاتيح بعد إخلاء المكان.. هذا كان الاتفاق.

(رازي) وهو يتنفس بثقل: المفاتيح معي سوف أسلمها أنا لك.. فقط أحتاج بعض..

عبس الرجل السمين وقال متسائلًا: ما بك؟ هل أنت مريض؟ هل سنواجه مشكلات في استلام العقار؟

(رازي) مستندًا لدرفة الباب للحفاظ على توازنه وبنبرة متعبة: لا لا.. أنا مرهق قليلًا فقط. سأجمع بعض الحاجيات الخاصة في الغرفة بالأعلى وأخرج في الحال!

استدار (رازي) ومع استدارته دارت الدنيا حوله وسقط أرضًا مغشيًا عليه..

أفاق بعدها ليلًا في غرفة على سرير أبيض والمحامي يجلس على كرسي بجانب سريره فاستنتج أنه في المستشفى بسبب الأجهزة والمغذيات الموصولة به فقال: ماذا حدث؟

(حازم) واضعًا كفه على ذراع (رازي): لا تجزع لقد أصبت بالحمى فيما يبدو.. لقد اتصل السيد (عنبر) وأخبرني بأنك فقدت الوعي!

(رازي) باستغراب: (عنبر) من؟

(حازم): المالك الجديد للمنزل.

(رازي) مستذكرًا بشيء من التوتر: لقد نسيت بعض الحوائج المهمة هناك وأريد استعادتها قبل أن ينتقل للقصر!

(حازم) مطمئنًا: لا تقلق.. لقد أقنعت السيد (عنبر) بأن يؤجل موعد انتقاله للقصر إلى الأسبوع القادم..

(رازي): ومتى سأخرج من هنا؟

(حازم): لا أعرف لقد رحل الطبيب قبل استيقاظك بقليل ولم يخبرني بشيء.

(رازي): لا أستطيع البقاء هنا أكثر.

(حازم): لا تهتم بشأن التكاليف.. سأتحمل أنا كل شيء.. فقط استعد عافيتك

(رازي): لم أقصد ذلك لكن شكرًا.

(حازم): هل وجدت سكنًا جديدًا؟

(رازي) ومعالم وجهه تتغير للحزن: لا، ليس بعد.

(حازم): هل تريد مني أن أساعدك بهذا الشأن؟

(رازي) زافرًا بنبرة مستسلمة: لا.. لقد قررت أن أعود للقريه في الوقت الحالي

(حازم): ماذا عن السيد (وحيد)؟

(رازي): ألم تدفع رسوم مدرسته؟

(حازم): بلى لكن..

(رازي): لن يحتاج لي ولوجودي إلا بعد مرور عام وإلى ذلك الوقت سوف أتدبر تكاليف دراسته للعام المقبل.

(حازم): مدرسة السيد (وحيد) تصرف طلابها مرة كل عام لمدة شهر.

(رازي): نعم أعرف.

(حازم): وهل تعرف أن هذا الموعد لم يتبقَّ عليه سوى عدة أسابيع؟

(رازي): ماذا؟

(حازم): نعم.. ألم تخبرك السيدة (صباح) بذلك؟

(رازي): لا لم يخبرني أحد بشيء!

(حازم): ها أنا أخبرك الآن.. يجب أن تكون مستعدًا لاستقباله وإبقائه معك لمدة شهر بعدها يمكنك إعادته لمدرسته والذهاب حيث تشاء.

وضع (رازي) كفه على وجهه وبدأ يفرك جبينه بأطراف أصابعه..

(حازم): إذا كنت لا تستطيع أن تتحمل مسؤوليته بعد ما حدث يمكنني..

(رازي) مقاطعًا: لا تقلق بهذا الشأن سأكون جاهزًا وقتها.. من في العادة يذهب ويحضره؟

(حازم): في السابق كان (جابر) هو من يتولى تلك المهمة لكن أنا من سيتولاها هذه المرة.

(رازي): حسنًا.. كرمًا لا أمرًا أحضره لي عند منزل السيدة (صباح).

(حازم): حاضر.. سيكون تواصلي معك من خلالها.. هل هذا يناسبك؟

(رازي): لا خيار آخر لي.. سأعرج بها يوميًا كي أتفقد أي اتصالات ترد منك.

(حازم) ناهضًا من مكانه: اتفقنا إذًا.. هل تريد مني أن أحضر لك شيئًا من القصر؟ لقد قلت بأنك تركت بعض الحاجيات هناك.

(رازي): لا تشغل بالك.. بمجرد خروجي من هنا سأذهب وآخذ ما أريد وأرحل في الحال وسأترك المفاتيح تحت سجادة المدخل.

(حازم) وهو يهم بالرحيل: اتفقنا

رحل المحامي وأغلق الباب خلفه، لكن لم يمض وقت طويل حتى دخل الدكتور (ناجي) ومعه ممرضة مرافقة له تحمل معها صينية معدنية استقرت فوقها مجموعة من الحقن وقال: كيف حالك اليوم يا سيد (رازي)؟ أخيرًا قررت زيارتنا؟

(رازي) بتحرج: أعرف أني أهملت نفسي لكنني مررت بأسبوع صعب!

(د. ناجي) ممسكًا إحدى الحقن من على الصينية: إهمالك تسبب بالتهاب في العظم وهذا سبب الحمى والإغماءة التي أصابتك لكن على أي حال كنت محظوظًا والأسوأ لم يقع وأنت بخير الآن.

(رازي): متى يمكنني المغادرة؟

(د. ناجي) وهو يحقن (رازي) في ذراعه بالسرنجة: الالتهاب الذي أصبت به إذا انتشر أكثر فستكون حياتك في خطر لذا سأبقيك ليومين تحت الملاحظة حتى تزول الحمى وأتيقن من أن جسدك قد تخلص من أي رواسب ووقتها يمكنك الرحيل.

(رازي): شكرًا يا دكتور.

(د. ناجي) حاقنًا (رازي) بحقنة أخرى: اهتم بنفسك أكثر خاصة في الأسابيع القادمة فقدمك لم تتعافَ بالكامل بعد.

(رازي): حاضر

(د. ناجي) للممرضة قبل أن يخرج: يجب أن تقاس درجة حرارته كل ست ساعات مع الاستمرار بأخذ الحقن.

حنت الممرضة رأسها قائلةً: حاضر يا دكتور.

خرج (رازي) من المستشفى بعد ثلاثة أيام لأن أعراض الحمى كانت تذهب وتعود ولم تزل بالكامل ومع ذلك كان الطبيب مترددًا في السماح له بالخروج، لكن (رازي) أكّد له أنه سيتبع جميع نصائحه وسيتجنب الإهمال بصحته وسيتناول الأدوية المصروفة له بانتظام دون التعرض لأي من مسببات التعب والإرهاق. عند مدخل الطوارئ وبعد توقيعه على أوراق خروجه واستلامه كيس الأدوية المصروف له وقف (رازي) يفكر في وجهته التالية وكيف سيصل إليها بدون وسيلة مواصلات أو مال ليستأجر سيارة أو حتى حافلة لتقله. وبعد تفكير لم يدم طويلًا انتهى به المطاف بالبدء بالمشيء بالرغم من أن قدمه المصابة لم تُشفَ بعد بالكامل.

خلال سيره تحت حر الشمس حاملًا كيس الأدوية بيد ونازعًا ما تبقى من ضمادات ذراعه باليد الأخرى لمح (رازي) أنه مقبل على سوق كبير فتوجه نحوه وسار بين محلاته ودكاكينه المختلفة ومع سيره لمح محلًا لبيع وشراء المصوغات والحلي فوضع يده على فص القلادة الفضية وتأمل لوحة المحل لثوانٍ ثم تقدم للأمام ودفع بابه ليرن جرس نحاسي معلق في طرف الباب العلوي ويخرج له رجل

مسن يضع نظارة بعدسات دائرية سميكة كقعور الأكواب وقال مرحبًا: أهلًا وسهلًا.. بماذا يمكنني أن أخدمك؟

ارتبك (رازي) وقال وهو يهم بالخروج: لا شيء، شكرًا!

استوقفه صاحب المحل قائلًا: انتظر!

توقف (رازي) بينما خرج الصائغ العجوز من وراء طاولة العرض وسار نحوه حتى توقف أمامه ومدَّ يده وتفحص القلادة الفضية بكفِّه وإبهامه وقال: يمكنك الحصول على مبلغ جيد مقابل هذه القطعة حتى وإن كانت من الفضة الرخيصة.

(رازي) مبعدًا فص القلادة عن متناول الصائغ: لا، شكرًا.. لا نية لي ببيعها.

(الصائغ): سأمنحك سعرًا مجزيًا.

(رازي): أخبرتك بأن لا نية لي ببيعها.

(الصائغ): أتيت للشراء إذًا؟

(رازي): ولا هذا.. أنا لا أملك أي مال.

(الصائغ) ممسكًا فص القلادة مرة أخرى بيده: هذا سبب كاف

لبيع تلك القلادة الفضية.. ما فائدة الحلي وبطوننا جائعة؟ سوف أعطيك ضعفي قيمتها إحسانًا مني.

(رازي) مبعدًا يد الصائغ مجددًا: أنا ممتن لعرضك السخي لكني لا أستطيع بيعها.

(الصائغ): كل شيء يمكن أن يباع ويشترى وكل شيء له قيمة وثمن..

(رازي): إلا هذه القلادة..

(الصائغ): ارهنها عندي إذًا!

(رازي) بتعجب: أرهنها؟

(الصائغ): نعم.. ستبقى معي ولن أتصرف بها مقابل مبلغ من المال سوف أعطيك إياه وعند إرجاعك هذا المبلغ يمكنك أن تستعيد قلادتك.. ما رأيك؟

(رازي): وإذا لم أتمكن من السداد؟

(الصائغ): تصبح القلادة لي بالطبع!

لوح (رازي) بيده نافيًا وقال بنبرة رافضة بشدة وملامح تشير برغبته في الرحيل: لا لا.. لن أفرط بها.

(الصائغ) يضع يده على كتفه ويثنيه عن الرحيل: اسمع عرضي الآخر.

(رازي): ماذا تريد؟

(الصائغ): أنا بحاجة لمن يعاونني هنا.. ما رأيك بأن تعمل معي؟

(رازي): تقصد أعمل «عندك»..

(الصائغ): عندي أو معي لا فرق.. ما قولك؟

(رازي) متفحصًا المحل الصغير بنظره: لا يبدو أنك تحتاج إلى أي مساعدة.

(الصائغ): هل تظن أني سوف أوظف شخصًا من باب الإحسان؟ هل تريد العمل أم لا؟

(رازي): ألم تعرض عليّ ضعفي قيمة القلادة من باب «الإحسان» أم أن إحسانك يعتمد على رغباتك؟

مد الصائغ يده في جيبه وهو يتذمر قائلًا: «أنت شخص مزعج ومتحذلق!»

أخرج العجوز مبلغًا من المال وأمسك يد (رازي) وقلَب كفه



ووضعه عليه قائلًا: وهذا راتب شهر مقدم كي تعرف أني جاد في حديثي شريطة أن تبدأ عملك صباح الغد.

لم يأخذ (رازي) المال بل وضعه على سطح طاولة العرض الزجاجية بجانبه وقال بنبرة مرتابة: في العادة طالب العمل هو من يلح بالسؤال وليس العكس!.. ما سر إصرارك هذا؟

(الصائغ) زافرًا وقد بدأ صبره ينفد: اعتبر أني أستغل حاجتك إذا كان هذا سيطمئنك! لا ترفض هذه الفرصة فلن أبقي يدي ممدودة لك لوقتٍ طويل.. خذ المال وضعه في جيبك وعد غدًا لتبدأ يومك الأول وكفَّ عن الجدال!

أخذ رازي المال بالرغم من عدم ارتياحه لكن حاجته كانت أقوى منه واتفق مع الصائغ أنه سيحضر اليوم التالي تمام الثامنة صباحًا لمزاولة عمله..

بعد خروجه من المحل اشترى (رازي) حقيبة كبيرة استقلَّ بعدها سيارة أجرة وتوجه مباشرة للقصر وطلب من السائق أن ينتظره، ولم يمضِ وقت طويل على دخوله حتى خرج مرة أخرى حاملًا الحقيبة وقد وضع فيها جميع الحاجيات التي وجدها في دولاب

(مريم) بالإضافة لملابسه وحاجياته الخاصة ثم اقترب من السائق وقال له: «هل يمكنك أن تساعدني في حمل شيء آخر؟ قدمي مصابة ولا أظن أني قادر على إنزاله وحدي»

ترجل السائق من السيارة وهو يقول: نعم بالطبع.. ماذا تريد أن تنقل؟

(رازي): فراشًا..

(السائق): فراشًا؟

(رازي): نعم فراشًا ولحافًا ووسادة.

(السائق) باستغراب: حسنًا.. أين أجدها؟

(رازي): تعال معي وسأريك!

أنزل الاثنان الحاجيات من الطابق العلوي ثم طلب (رازي) من السائق أن يربط الفراش فوق سيارته ووضع الوسادة الملفوفة باللحاف في المقاعد الخلفية ففعل ثم قال: «هل هناك شيء آخر تريد مني أن أنقله لك؟»

(رازي): لا، شكرًا.. هذا فقط ما أحتاجه..



(السائق): ماذا عن الحقيبة؟.. هل تريد مني وضعها في مؤخرة السيارة؟

(رازي) رافعًا الحقيبة عند صدره: لا.. ستبقى معي!

(السائق): كما تشاء.. أين تريد الذهاب الآن؟

ركب رازي السيارة وطلب من السائق أخذه لحي ((الشلال الأزرق)) حيث كانت (صباح) تقيم وبعد وصوله عند عتبة بابها أنزل جميع الأغراض ودفع له أجرته وشكره على مساعدته وبعد رحيله طرق الباب ففتحت له (حنين) وقالت مبتهجة: سيد (رازي)؟! لم أرك منذ زمن طويل! أين كنت؟!

(رازي): كنت مشغولًا بعض الشيء.. هل والدتك هنا؟

(حنين): لقد خرجت للسوق.. تفضل بالدخول!

(رازي): مشيرًا للحقيبة والفراش على قارعة الطريق: لا، شكرًا يا (حنين).. أريد فقط ترك هذه الحاجيات عندكم لفترة.

أطلت (حنين) برأسها عبر الباب ثم قالت: ما هذه الأشياء؟

(رازي): مجرد ذكريات بسيطة من القصر.

(حنين): بالطبع.. سوف أضعها في مكان آمن لا تقلق.

(رازي) وهو يهم بالرحيل: أنا ممتن لكِ.

(حنين) تستوقفه قائلة: إلى أين؟!

(رازي): سأبحث عن مكان لأقيم فيه لقد حصلت على عمل في السوق اليوم

(حنين): هذا خبر رائع! لمَ لا تبحث عن منزل هنا وتصبح جارًا لنا؟!

(رازي) مبتسمًا بحزن: سأرى..

بالطبع أدرك (رازي) وقتها أن راتبه الجديد لن يمكّنه من الحصول على شقة في هذا الحي فكيف بمنزل، لذا قرر التوجه إلى الأحياء المتواضعة حيث يمكنه إيجاد غرفة بسيطة يستطيع تحمل تكاليفها ولم يجد ضالته إلا في شقّة مشتركة مع أشخاص آخرين كان سعرها مناسبًا لدخله الجديد. تلك الغرفة كانت تقع في مجمّع سكني كبير اعتاد تأجير شققه على مجموعات من الناس بشكل يومي، وكان المكان يضج بالناس طيلة اليوم ودورات مياهه مشتركة كذلك

والخصوصية شبه معدومة في ذلك المبنى لكنه كان الخيار الوحيد والأمثل له وقتها. أمضى (رازي) ليلته الأولى على سريره المعدني المتهالك يتقلب ولم تغفُ عينه إلا قبل موعد عمله بساعات قليلة، استيقظ بعدها وانتظر طابورًا طويلًا حتى تمكن من استخدام المغسلة لغسل وجهه فقط والتوجه لعمله عند الصائغ في السوق.

لم يستطع (رازي) استخدام سيارات الأجرة بالتنقل لأن كلفتها ستستنزف ميزانيته فاضطر لانتظار الحافلة العمومية التي أنزلته في محطة تبعد عن السوق مسافة قطعها مشيًا بعشر دقائق، وبعد وصوله ودخوله المحل رن الجرس النحاسي فوق رأسه تبعه خلع الصائغ العجوز لنظارته من وراء طاولة العرض وهو ينظر في ساعة معصمه ويقول: «ظننت أنك لن تحضر.. لقد تأخرت كثيرًا»

(رازي): المعذرة.. لن أكرر ذلك أعدك.

أشار العجوز لـ (رازي) بالاقتراب منه وعندما فعل قال له: سوف تجلس بجانبي وتراقبني وأنا أعمل فقط.

(رازي): لم أفهم.

(الصائغ): ما الذي لم تفهم؟ راقبني فقط.. وأنا أبيع وأشتري.. أصلح وأسبك المصوغات.

(رازي): لكن هذا ليس عملًا.. هل تريد مني تنظيف المحل مثلًا؟

(الصائغ): لا.. لا تقم بشيء أبدًا سوى مراقبتي وبصمت.

(رازي): ماذا لو كان عندي سؤال؟

(الصائغ) وهو يربت بكفّه على مقعد بجانبه: الأسئلة قبل أوانها مضيعة للوقت.. هيا اجلس وابدأ عملك!

جلس (رازي) والحيرة على وجهه لكنه لم يناقش ونفذ ما أمره به بالحرف..

تدبير وتبذير

أوقات العمل في محل الصائغ غالبًا لم تكن مزدحمة كثيرًا بالزبائن لكنه قضى معظم يومه بين أدواته يذيب المعادن النفيسة ويصنع الكثير من المصوغات المختلفة و(رازي) يراقبه بصمت كما أمره، ومن وقت لآخر يطلب منه إحضار أداة معينة أو قطعة من أحد الأدراج وكان يفعل ذلك بالإشارة فقط ولو أخطأ في إحضار ما يريد عبر له عن ذلك بعبوس وجهه أو بإشارة من إصبعه بالنفي.

بقي (رازي) على هذا الحال ما يقارب أسبوعًا، وفي أحد الأيام رنّ الجرس النحاسي معلنًا دخول زبون جديد فأومأ الصائغ العجوز له بأن ينهض ويستقبل الزبون ففعل لكنه عندما وصل لمقدمة المحل فوجئ بأن الزبون لم يكن سوى (صباح) برفقة (حنين) والتي تبسمت له وقالت: وأخيرًا وجدناك!

(رازي) وهو متفاجئ: السيدة (صباح).. ماذا تفعلين هنا؟

(حنين) ضاحكة: نحن نبحث عنك منذ عدة أيام.. منذ أن أخبرت

أمي بأنك وجدت عملًا في السوق ونحن نأتي إلى هنا كل يوم ونتجول بين الدكاكين إلى أن تتورم أقدامنا

(صباح) بنبرة مؤنّبة: لمَ رحلت؟

(رازي) بتحرج: كنت أنوي العودة لكنني انشغلت قليلًا.

(صباح): حجتك المتكررة هذه لم تعد تقنعني.. هل وجدت مسكنًا؟

(رازي): نعم.

(صباح): أين؟

(الصائغ) مقاطعًا من الخلف من وراء المنضدة: تفضلي يا سيدتي لمَ تقفين عند المدخل؟

(صباح) للصائغ باسمة: شكرًا يا عم نحن نتجول فقط..

(الصائغ): هل تبحثين عن شيء للآنسة الصغيرة؟ لدي الكثير من الأشياء الجميلة في الداخل!

(صباح): لا لا، شكرًا.. سوف نعود لاحقًا.

(الصائغ): على الرحب والسعة في أي وقت!

(صباح) لـ (رازي) بصوت مسموع له فقط: المكان ليس مناسبًا للحديث سوف أنتظرك على الغداء اليوم وإياك ألا تحضر!

(رازي) واضعًا كفه خلف رأسه: عملي ينتهي عصرًا!

(صباح) تهم بالرحيل: سيكون غداؤنا متأخرًا اليوم إذًا..

رحلت الاثنتان تاركتين (رازي) يقف عند المدخل سارحًا حتى قطع العجوز سرحانه بنهره: لم أنت واقف هكذا؟! هيا عد وأكمل عملك!

(رازي): حاضر.

بعد انتهاء يوم عمله استقل (رازي) حافلة أخذته لحي ((الشلال الأزرق)) وأكمل طريقه بعدها سيرًا على قدميه إلى أن وصل لمنزل (صباح) قبل المغرب بساعة وطرق الباب.

فتحت له (حنين) وقالت مبتهجة: أخيرًا حضرت! تفضل! أمي بانتظارك!

تناول (رازي) معهما وجبة الغداء المتأخرة وجلسا بعدها في غرفة المعيشة يحتسيان الشاي بينما قدمت لهما (حنين) قطعًا من الكعك وهي تقول: هذه من صنعي.. أعطني رأيك!

(رازي) ممسكًا صحن الكعك الصغير باسمًا: هذه ليست أول

مرة أتناول فيها طبخك يا (حنين) وأعرف جيدًا كم تجيدين خبز الكعك.

(حنين): جرِّبها هذه المرة وأخبرني بالفرق.

قطع (رازي) بالشوكة قطعة صغيرة من الكعكة وتناولها ثم قال: هذه ألذُّ بكثير مما كنتِ تعدّينه بالسابق.. هل هي وصفة جديدة؟

(حنين) مبتهجة من إطراء (رازي): لا أبدًا لم أغير شيئًا! أعددتها بالطريقة نفسها لكن الطعم اختلف ولا أعرف لماذا!

(رازي) متناولًا قطعة أخرى: إنها لذيذة جدًّا.

(حنين): بالهناء والعافية!

(صباح) وهي تراقب (رازي) يأكل الكعك: مشاعرنا المكنوزة في دواخلنا تظهر وتتجلى في أعمالنا حتى وإن أبينا عليها ذلك..

مدت (حنين) لأمها طبقًا لكنها أشارت لها بأنها مكتفية وتريد منها الرحيل وتركها مع (رازي) وحدهما..

خرجت (حنين) وتزامن خروجها مع انتهاء (رازي) من تناول كعكته ووضع الطبق الفارغ فوق الطاولة أمامه وهو يقول: أنا سعيد برؤيتكما مجددًا..

(صباح): لمَ تتهرّب منا إذاً؟

(رازي) بنبرة نافية ومبررة: أنا؟ لا أبدًا أنا فقط..

(صباح) مقاطعة: ألا تعتبرنا عائلتك؟ هل بدر منا شيء يدفعك لتحاشينا؟

(رازي): لا تسيئي فهمي يا (صباح) لكني..

(صباح) مقاطعة مرة أخرى: اسمعني يا (رازي) السيدة (مريم) لم تكن الرابط الوحيد الذي يربطنا بك فنحن نحبك ونعتز بك كفرد من عائلتنا ويحز في خاطرنا أنك لا تلجأ إلينا أو تشاركنا همومك.

(رازي): ليس لدي هموم، حتى وإن كنت أعاني من بعض المصاعب فليس من الذوق أن أقحمكما فيها.

(صباح): بل من المحزن ألا تفعل.. ثم إن معاناتك هي معاناتي.. ألم أخبرك من قبل بأنك في مقام ابنتي (حنين)؟

(رازي): بلى لكن..

(صباح): لا يوجد «لكن».. هل صحيح أنك دخلت المستشفى؟

(رازي): نعم.. تعب عابر فقط!

(صباح): أين تقيم الآن؟

(رازي) محاولًا تجنّب الإجابة: في مكان قريب من السوق.

(صباح): أريد زيارتك في منزلك.

(رازي): أحب ذلك، لكن المكان ليس مؤهلًا لاستقبال الضيوف سامحيني.

(صباح): أنا لا أتحدث عن منزلك الحالي بل الجديد!

(رازي) باستغراب: الجديد؟

(صباح) تنهض وتشير له بأن يتبعها: نعم.. تعال معي.

خرج الاثنان للشارع وسارا بضع خطوات للمنزل الملاصق ووقفا أمام بابه لتخرج (صباح) مفاتيحَ من جيبها وتمدها لـ (رازي) قائلة: خذ..

(رازي) آخذًا المفاتيح بوجه متعجب: ما هذا؟

(صباح): مفاتيح منزلك الجديد. هيا افتح الباب!

(رازي) محاولًا إعادة المفاتيح لها: لا، لا أستطيع أن أقبل.

(صباح): هل ترفض هديتي يا (رازي)؟

(رازي): هذه ليست هدية.. هذا معروف لن أستطيع أبدًا أن أرده!

(صباح): لا تحزِنّي بهذا الكلام، وإذا كنت فعلًا تريد أن ترد معروفي كما تقول فاقبل بأن تكون جارًا لنا.

(رازي) موجهًا نظره للمنزل: لكن.. لكن هذا كثير.. ولا حق لي في المنزل.. هذا منزل (حنين)!.

(صباح) مبتسمة: المنزل شاغر.. ولا تتحجج بـ (حنين) لأنك تعرف أنها تقيم معي منذ أول يوم أتينا فيه إلى هنا..

(رازي) معيدًا نظره نحوها: يمكنك تأجيره والاستفادة من ماله.

(صباح): هناك أمور أهم من المال يا بني.. وأنا المستفيدة لو وافقت صدقني.

قبض (رازي) على المفاتيح منزلًا رأسه قائلًا: لا أعرف ماذا أقول!

(صباح) ممازحة: قل «موافق» فقط.

(رازي) مبتسمًا: موافق.. شكرًا يا سيدة (صباح).

(صباح) باسمة: بدون «سيدة»..

خلال يومين انتقل (رازي) لمنزله الجديد الذي لم يكن مجهّزًا بالكامل

ونقل معه حقيبته وفراش (مريم) الذي استخدمه للنوم في إحدى الغرف بالطابق العلوي، وبالرغم من محاولات (صباح) إقناعه بأن تشتري له بعض قطع الأثاث إلا أنه رفض وأخبرها بأنه سيقوم بتجهيز المنزل بنفسه تدريجيًا من راتبه ومع ذلك أصرَّت وجهزت له المطبخ بالكامل وعللت ذلك بأنها هدية منزله منها ومن (حنين)، فلم يستطع رفضها. انطوت الأيام وتحولت لأسابيع قضاها (رازي) نهارًا في محل الصائغ وفي المساء يعود ليجد (صباح) وقد أعدَّت له وجبته الوحيدة في اليوم تاركة إياها على الطاولة الصغيرة في المطبخ يتناولها ويتوجه بعدها للنوم على فراش (مريم) حتى الصباح، ومن وقت لآخر يزور جارته مساءً بعد تناول طعامه خاصة في نهاية الأسبوع ويجلس معهما ليتسامروا قليلًا وفي إحدى تلك اللقاءات قالت له (صباح): كيف وجدت الطعام اليوم؟

(رازي): لذيذًا كالعادة.. أنا أتعبك كثيرًا معي يا (صباح).

(صباح): أخبرتك بأن لا تردد مثل هذا الكلام..

(رازي): أعرف لكني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في العبء الذي أتسبب به لكما.

(صباح): أنت تصر على أن توجع قلبي يا (رازي).

(رازي): حسنًا لن أثير الموضوع مرة أخرى.

(صباح): أنا لدي موضوع أريد الحديث معك فيه اليوم.

(رازي) باهتمام: تفضلي.

(صباح): لم أكن أريد أن أخبرك في وقت أبكر لأني أعرف أنك سوف ترهق نفسك بالتفكير حتى يحين الموعد لكنه حان ويجب أن تستعد له.

(رازي): عن ماذا تتحدثين أنا لا أفهم.

(صباح): السيد (وحيد) سيصل غدًا إلى هنا.. لقد تواصل معي السيد (حازم) وقال بأنه سيوصله غدًا أول الصباح إلى هنا.. هذا هو موعد إجازته السنوية وكنت أتابع وضعه مع مدرسته الأسابيع الماضية..

(رازي) عاجزًا عن إخفاء صدمته: غدًا؟

(صباح): نعم وقد علمت منهم بأن رسوم دراسته للعام المقبل قد تم دفعها مقدمًا وهذا ما وضعك في هذا المأزق المادي أليس كذلك؟

(رازي) بتوتر: عن ماذا تتحدثين؟

(صباح) مبتسمة: لا شيء يا بني لا شيء..

بدا على وجه (رازي) القلق بعد سماعه خبر حضور (وحيد) لكنه لم يعبر عما كان يجول بخاطره لـ (صباح) التي استدركت بعد رؤيتها توتره وقالت: لا تقلق.. سوف أقدم لك مخرجًا من تلك الدوامة.

(رازي): ماذا تقصدين؟

(صباح): أعرف أنك تخشى مواجهة صعوبة تقبُّلِه لك ونقل خبر وفاة أمه له وكيف ستتعامل معه خلال الشهر الذي سيقضيه هنا..

(رازي): لقد قرأتِ أفكاري.. ماذا يجب أن أفعل؟ مما سمعته عنه أنه لا ينسجم مع أحد سوى (مريم) وقد لا أتمكن من أن أوفر له الحياة التي اعتاد عليها.

(صباح): سيبقى السيد (وحيد) معي أنا و(حنين) فهو لم يعد رافضًا لصحبتنا بل يحبها ويستأنس بنا.. كل ما أريده منك هو زيارته من وقت لآخر كي يألفك.

(رازي): وإذا لم يتقبلني؟

(صباح) مخرجة ورقة من جيبها: هذه هي الرسالة التي تركتها (مريم) في وصيتها وطلبت من المحامي أن يقرأها له.

(رازي): وماذا تفعل معك؟

(صباح): سلمها لي السيد (حازم) وطلب مني القيام بتلك المهمة.

(رازي): وما هو محتواها؟

(صباح) وهي تمد الورقة: لا أعرف فلم أفتحها ولم أطّلع على مضمونها وأريدك أنت أن تتولى هذه المهمة.

(رازي) آخذًا الورقة: هل أقرؤها له فور وصوله؟

(صباح): القرار لك.. اختر الوقت الذي تراه مناسبًا لقراءة محتواها له.

(رازي): أنا لا أعرف مضمونها كي أختار الموعد الملائم!

(صباح): فقط أنصت لقلبك وستعرف.

(رازي) معيدًا الورقة لها: أبقيها معك حتى يحين ذلك الوقت أرجوك.

(صباح) آخذة الورقة منه: حسنًا.. سأحتفظ بها معي.

(رازي) ناهضًا من مكانه: متى سيصل؟

(صباح) ناهضة من الكرسي: أول الصباح.. تمام الثامنة.

(رازي): سوف أكون هنا قبلها.

(صباح): سننتظرك أنا و(حنين) لتناول الإفطار في السابعة.. ليس لديك عمل غدًا أليس كذلك؟

(رازي): لا.. الصائغ يمنحني يوم الجمعة إجازة.

(صباح): جيد.. هذا سيعطيك وقتًا كافيًا للجلوس مع (وحيد) والتعرف عليه

(رازي) بشيء من التوتر: نعم.. سأحاول.

(صباح) مستنشقة الهواء حولها: أمر غريب.

(رازي): ماذا؟

(صباح): أشعر وكأن السيدة (مريم) حولنا.

(رازي) مبتسمًا بحزن: يبدو أن بعضَ عطرها التصق بي.

(صباح) بتعجب: لا أفهم.

(رازي): أنا محرج لإخباركِ بذلك، لكني ومنذ رحيل (مريم)

أصبحت أجبر نفسي على النوم وأجبرها على الاستيقاظ والنهوض من الفراش كل يوم، ولم أجد الراحة إلا بعد ما بدأت برش بعضٍ عطرها فوق وسادتي حين أشتاق إليها.. أعرف أنه تصرف غريب لكنه يساعدني كثيرًا كي أنام بسهولة.

وضعت (صباح) كفها على خد (رازي) وقالت بحزن: لا شيء غريب فيما تفعله.. نحن نشتاق بقدر ما أحببنا وأشد أنواع الشوق هو الذي لن يتبعه لقاء.. تصبح على سعادة تستحقها يا بني!

خرج (رازي) وعاد لمنزله وأمضى تلك الليلة يتقلب في فراشه بعد ما هجره النوم مما دفعه لإخراج مذكرات (مريم) من حقيبته والإمساك بها بين يديه دون فتحها والتحدث مع نفسه قائلًا: «كنتِ مستعدة للرحيل لكنكِ لم تفكري هل من حولكِ كانوا مستعدين أيضًا..»

أعاد المذكرة لمكانها دون فتحها ولم يحظَ إلا بساعاتٍ قليلة من النوم قضاها معانقًا وسادة زوجته المعطرة بعطرها الذي أحضره معه من القصر..

استيقظ (رازي) من نومه متأخرًا فنهض مفزوعًا من فراشه عندما

انتبه إلى أن ساعة الحائط اشارت للتاسعة فقام من مضجعه على عجالة ونزل في الحال للطابق السفلي خارجًا من المنزل ومتوجهًا لمنزل (صباح) ليطرق الباب بطرقات متتابعة حتى فُتح له ليرى (حنين) تستقبله بسرور قائلة: سيد (رازي)؟ أخيرًا قررت الحضور؟

(رازي) بكلام متلعثم: لقد سرقني النوم.. كنت أريد الحضور باكرًا لكن..

(حنين) مشيرة له بالدخول: هذا ما توقعته أمي.. تفضل فهي تنتظرك في الداخل.

بعد أن أخذ خطوة للداخل وأغلقت (حنين) الباب خلفه توقف مكانه وقال بتوتر: هل...؟

(حنين): نعم.. السيد (وحيد) معها في المطبخ يتناول إفطاره!

(رازي) زافرًا: حسنًا.

(حنين): ما بك يا سيد (رازي)؟ ألست متحمسًا لمقابلة السيد الصغير؟

(رازي): بل متوترٌ هو التعبير الأصح.. أخشى ألا يحبني!

(حنين) باسمة: السيد (وحيد) لا يعرف الكره.. إما إن يحبك أو يصدَّ عنك

(رازي): ماذا لو صدَّ عني؟

(حنين) واضعة كفها على ظهر (رازي): لا تفكر كثيرًا..

دخل الاثنان للمطبخ وشاهدا الصبي يجلس عند المائدة وحقيبته الصغيرة بجانبه يتناول بعض الشوفان و(صباح) تمسح على رأسه وتتأمله باسمة. بقي (رازي) يحدق به مبهورًا ومتعجبًا لشدة الشبه بينه وبين (مريم) فقد اكتسب منها معظم ملامحها.. عينيها، شفتيها، أنفها وحتى رسمة حاجبيها، وخلال سرحان (رازي) بمحياه وهو يتناول طبق الشوفان انتبه الفتى له فما كان منه إلا أن رمى ملعقته واحتضن (صباح) وعيناه الجزعتان مرتكزتان على (رازي).

(صباح) مخاطبة الصبي المحتضن لصدرها: لا تخف هذا صديقنا.. اذهب وسلِّم عليه.

(رازي): لا تجبريه.. أنا متفهم عدم رغبته في ذلك.

بعد ما قال (رازي) هذا الكلام فك (وحيد) عناقها وسار نحوه

ووقف أمامه رافعًا رأسه الصغير يتمعن في ذلك الرجل الغريب بوجهٍ قلق ومتوتر، وخلال وقوفه أخذ (وحيد) نفسًا عميقًا أتبعه بزفرة ألحقها باندفاعة نحو (رازي) وعانق سيقانه. رفع (رازي) يديه للأعلى بسبب تفاجئه مما حدث واستغرابه من تصرف الصبي وهذا الاستغراب شاركته فيه (حنين) وأمها، واستمر هذا الموقف حتى قال (رازي) لـ (صباح): ماذا أفعل؟

(صباح): احمله بين ذراعيك!

(رازي): هل أنت واثقة؟

(صباح) تهز رأسها باسمة بالتأييد: نعم..

وضع (رازي) كفيه تحت إبطي الفتى الصغير ورفعه للأعلى وما أن استقر بين ذراعيه حتى انقض (وحيد) وعانق عنقه متشبثًا فيها بقوة بأعين مغمضة.

(رازي) موجهًا حديثه لـ (صباح) بوجه متعجب: ما الذي يحدث؟

(حنين): أعتقد أنه لم يصدّك كما كنت تتوقع!

(صباح) مبتسمة بحزن: قلب الفتى الطاهر يراك بوضوح ويعرف أنك مصدر أمان له..

وضع (رازي) كفه على ظهر (وحيد) مطبطبًا عليه وقال: لا أعرف ماذا أقول.. لكن شكرًا لأنك قبلت بي.

رفع (وحيد) رأسه ووجه نظره لفص القلادة الفضية المتدلي على صدره ثم قال: «أمي..»

(رازي) لـ (صباح): هل أخبره؟

(صباح): لا تستعجل.. امنحه وقتًا أكثر قبل أن يعلم بالأمر.

أمضى الجميع بقية يومهم في غرفة المعيشة وقضوا معظمه جالسين على الأريكة ينصتون لـ (وحيد) الذي وقف أمامهم وبدأ بالحديث فجأة بحماس عن الأشياء التي تعلمها طيلة العام والأصدقاء الجدد الذين تعرف عليهم وعن معلماته، وكان يجيد تقليد صوت وحركات كل شخص يتحدث عنه ببراعة شديدة أضحكت الجميع تارة وبهرتهم تارة أخرى، وكان (رازي) مستغربًا من طلاقته في الكلام مع (صباح) و(حنين) وتجاوبه مع جميع استفساراتهما لكن عندما يقوم هو بسؤاله عن أمر ما ينزل الفتى رأسه ويدخل في حالة من الصمت الخجول لا يخرج منها إلا بعد أن يوجه له سؤال آخر من (صباح) أو ابنتها، فاعتقد (رازي) أنه خائف منه أو لا يرغب

بالحديث معه لكن ذلك الاعتقاد تبدد عندما نهض للذهاب لدورة المياه فحدث ما لم يكن في حسبانه فقد اندفع (وحيد) نحوه وعانق فخذه وتمسك به بطريقة غريبة أوحت بأنه لا يريد منه الرحيل، وتطلب الأمر تدخل (صباح) لتحرير (رازي) من قبضته كي يستطيع دخول الحمام وطيلة فترة غيابه بقي (وحيد) صامتًا جالسًا على الأريكة إلى أن عاد (رازي) ليقف مرة أخرى ويستأنف حديثه بالحماس السابق نفسه. عند اقتراب الظهر وجهت (صباح) ابنتها بالبدء في إعداد الغداء فقالت (حنين) لـ (وحيد) بعد ما أمسكت يده: ما رأيك أن تأتي لمساعدتي بالمطبخ كما كنا نفعل في السابق؟

وجّه الفتى نظره بأعين خائفة نحو (رازي) الذي قال له باسمًا: اذهب سأكون هنا بانتظارك..

تفلت (وحيد) من قبضة (حنين) وجرى نحو (رازي) وقفز عليه وعانقه بقوة وبدأ يئن وكأن ألمًا قد أصابه..

أشارت (صباح) لابنتها بالرحيل والبدء بإعداد الطعام ثم قالت لـ (وحيد) خلال عناقه المحموم لـ (رازي) بعد ما وضعت يدها على ظهره: ما بك يا بني؟

تشبث الصبي بـ (رازي) أكثر وبدأ يصدر أصواتًا كالزمجرة الغاضبة عندما أحس بأن (صباح) تحاول إبعاده عنه فرفعت كفها من عليه وقالت لـ (رازي): لا تستأ مما يقوم به فهو..

(رازي) مقاطعًا محتضنًا بذراعه الصبي: من قال بأني مستاء؟ على العكس تمامًا أنا سعيد بتعلقه بي.

(صباح): لكن ذلك مع مرور الوقت قد يصبح عائقًا لك!

(رازي): ماذا تقصدين؟

(صباح): لا أعرف ماذا أقول لك لكن السيد (وحيد) يكون أحيانًا عاطفيًا بعض الشيء ومشاعره المتقلبة قد تسبب لك الانزعاج.

(رازي): لا تقلقي.

(صباح): ماذا تنوي القيام به الآن؟

(رازي): أفكر بأن لا أحرمه من إجازته السنوية

(صباح): لم أفهم ما تعنيه..

(رازي): أفكر بطلب إجازة غدًا من الصائغ والسفر مع (وحيد)!

(صباح): إلى أين؟

(رازي): إلى قريتي.. لقد اشتقت لأمي والأجواء هناك جميلة في هذا الوقت من العام وستعجب (وحيد) وأمي لديها الكثير من الحيوانات التي سيسعد بها.

(صباح): هل ترغب مني في مصاحبتك؟

(رازي) مستغربًا: لا.. لماذا تريدين ذلك؟

(صباح): أريد أن أطمئن عليكما..

(رازي) وهو يهز بدن (وحيد) بساعده باسمًا: سنتدبر أمورنا.. أليس كذلك يا (وحيد)؟

كومة الأغصان

مع حلول المساء وبعد تناول وجبة العشاء قرر (رازي) العودة لمنزله وبالرغم من اقتراح (صباح) أن يترك (وحيد) ليبيت معها إلا أن تمسك الصبي به لم يترك لهما مجالًا ليتخذا ذلك القرار، فاصطحبه (رازي) معه وما أن فتح الباب حتى هرول الفتى داخل المنزل شبه الفارغ وبدأ يجري في أركانه دخولًا وخروجًا من كل غرفة دون توقف و(رازي) يراقبه باسمًا ممسكًا حقيبة (وحيد) بيده ولم يحاول منعه أو إيقافه عن اللعب والجري بحرية في المكان، وعندما قرر الخلود للنوم لم ينادِ عليه بل اكتفى بصعود السلالم ليلحق الآخر به ويتخطاه صعودًا للطابق العلوي وهو يقول: موعد النوم!

(رازي) يصعد السلالم ببطء مراقبًا الفتى الذي وصل قبله ضاحكًا: نعم موعد النوم!

فتح (رازي) باب غرفته ليدخل (وحيد) مباشرة ويتجول فيها بينما قام هو بالإمساك بإبريق أبقاه بجانب فراشه على الأرض وسكب

بعض الماء في كأس زجاجي ليتناول دواءه وقبل أن يقوم بذلك وقف (وحيد) أمامه رافعًا كفّيه محركًا أصابعه في إشارة منه لرغبته في الشرب، فتبسم (رازي) ومد له الكأس وبقي يمسح على رأسه خلال شربه للماء. أعاد الصبي الكأس الفارغ ومده لـ (رازي) وقال: شكرًا.

(رازي) يسكب كأسًا آخر من الماء: هل تريد المزيد؟

هزّ الفتى رأسه بالنفي وبقي يراقب (رازي) يتناول حبتين من دوائه ويحرك عنقه للخلف بحركة سريعة أتبعها بشرب نصف كأس الماء فقال الفتى: أنت مريض؟

(رازي) باسمًا وهو يجلس بجانبي الفراش واضعًا الكأس جانبًا: لا

(وحيد) ضاحكًا بحماس: مريض مثل أمي!

(رازي) بحزن اعتراه فجأة: نعم.

انقض الفتى عليه ليسقط الاثنان على الفراش وتستقر رؤوسهما على الوسادة المعطرة بعطر (مريم) ووجهاهما مقابلان بعضهما لبعض لتنتاب (رازي) حالة من الحزن المؤلم وهو يحدق بملامح ذلك الفتى

التي ذكرته بزوجته الراحلة خاصة أنَّ عبيرها قد أحاط بهما وكأنها كانت معهما. لاحظ (وحيد) ذلك الحزن في عينَيْ (رازي) فمد يده وغطى إحداهما وقال: وقت النوم...؟

(رازي) بنبرة مختنقة بالعبرات: نعم وقت النوم.

مع أول الصباح استيقظ (رازي) كعادته قبل موعد عمله بساعتين ووجد أن (وحيد) لا يزال نائمًا بجانبه فنهض وبدأ روتينه اليومي من اغتسال وإعداد لإفطار سريع قبل أن يخرج، ولم يضع بباله وجود شخص جديد يقيم معه وكان في نيته أن يعطي الصغير وقتًا أطول للنوم والراحة حتى ينجز كل أعماله المنزلية الصباحية لكن اكتشف خطأه عندما سمع الصبي وهو جالس في المطبخ يحتسي قهوته بعد تناول دوائه يصرخ بقوة من الطابق العلوي الذي جرى نحوه بهلع متوجهًا لغرفة النوم مباشرة فاتحًا بابها ليرى (وحيد) محتضنًا الوسادة يبكي بصوت مرتفع وما أن رآه حتى رمى بها جانبًا ونهض مهرولًا تجاهه معانقًا سيقانه مطبقًا عليها بكل قوته ومستمرًّا بالبكاء بخليط من البكاء والعويل. استلزم الأمر من (رازي) بعض الوقت حتى تمكن من تهدئة وطمأنة الفتى المفزوع وتقديم بعض الإفطار

له، حمله بعدها على صدره وخرج من المنزل بعد ما جمع ملابسها

وبعض الحاجيات في حقيبته وحملها مستقلًا الحافلة متوجهًا لمقر

عمله في السوق.

دخل محل الصائغ حاملًا الصبي فتحرك الجرس النحاسي المعلق

عند طرف الباب العلوي ليرفع (وحيد) رأسه من على كتف

(رازي) ويقول مشيرًا بأصبعه للجرس: عصفور!

(الصائغ): من هذا الصغير الذي تحمله؟ ابنك؟

(رازي) متجاهلًا سؤال الصائغ العجوز: أريد إجازة!

(الصائغ) معيدًا نظره لقطعة حلي كان يصلحها وبنبرة متهكمة:

إجازة؟ ما الحكاية؟ تدخل عليّ حاملًا فتى وحقيبة وتقول بأنك

تريد إجازة.. هل ظهرت لك أسرة فجأة؟ لا أستطيع منحك يوم

إجازة.. ادخل وزاول عملك وأبقِ الصبي بعيدًا عني!

(رازي): ومن قال بأني أريد يومًا؟ سوف أغيب لمدة شهر كامل!

(الصائغ) بتجهم: لو خرجت من هنا فلن يكون لك وظيفة تعود

لها!

(رازي): حسنًا.. أعطني أجري المتأخر إذًا.

(الصائغ) بغضب: ليس لديك شيء عندي!!

لم يرد (رازي) أو يجادل الصائغ الغاضب واستدار وخرج من المحل وسار على قارعة الطريق وخلال سيره قال (وحيد) وذقنه مسندة على كتف (رازي) وعيناه تحدقان بباب المحل وهما يبتعدان عنه: رجل سيئ..

(رازي): رجل مسكين وليس سيئًا..

لم يتوقف (رازي) عن السير حتى وصل لمحطة القطار التي كانت قريبة من السوق وابتاع تذكرتين ببعضٍ ما تبقى معه من مال وجلس مع الصبي على مقاعد الانتظار بعد ما وضع الحقيبة أمامه.

في كل مرة يتوقف فيها قطار عند المحطة ويطلق نفير صفارته العالي كان (وحيد) يغطي أذنيه بكفّيه ويغمض عينيه فقال له (رازي): هل الصوت مزعج؟

(وحيد) بأعين مغمضة بعد ما رفع كفّيه عن أذنيه: صوت الصراخ..

(رازي) بتعجب: الصراخ؟

فتح الصبي عينيه وبدأ يراقب المسافرين يترجلون من القطار ويتأملهم بخليط من الاندهاش والاهتمام ولم يرد على (رازي) الذي قال له: هل تريد أن تركب؟

هز الصبي رأسه باسمًا بالموافقة وعيناه لا تزالان تراقبان الناس..

(رازي): هل هذه أول مرة تركب فيها القطار؟

هز الصبي رأسه مجددًا وهو لا يزال يبتسم بوجه متحمس..

(رازي) يشاركه النظر للمسافرين: أنا كنت متوترًا أول مرة لكنها خففت عني وطمأنتني بحبها لي.

أدار (وحيد) نظره نحو (رازي) وشدّه الحزن على وجهه وقال: هل كنت مع أمك؟

(رازي) سارحًا أمامه: نعم.. كانت أمي وأختي وصديقتي..

(وحيد) بتعجب: كيف؟

(رازي) ناهضًا من مكانه بعد ما حمل الحقيبة: هيا.. قطارنا يقترب.

قفز الصغير من على الكرسي محاولًا النظر لكنه لم يرَ شيئًا نهاية السكة وقال: أين؟! أين؟!

وضع (رازي) الحقيبة أرضًا وحمل الصبي على كتفيه وقال له: هل ترى تلك السحابة من الدخان؟ هذا هو قطارنا!

(وحيد): لمَ هو يحترق؟

(رازي) ضاحكًا: ربما يحترق شوقًا لمقابلتك!

(وحيد) متأملًا القطار المقترب منهم وبعينين متسعتين عجبًا: حقًا؟!

(رازي) وهو ينزله أرضًا: نعم.. لمَ لا؟

ركب الاثنان وتوجها لمقعديهما بعربة الدرجة الثانية وجلس (وحيد) في المقعد المجاور للنافذة مكملًا تأمله للمسافرين بينما وضع (رازي) الحقيبة في المكان المخصص فوقهما وجلس بجانبه يراقبه بصمت.

تحرك القطار نحو وجهته بعد أن أطلق نفير بوقه لكن هذه المرة لم يتأثر (وحيد) من صوته ولم يبدِ أي انزعاج منه وبعد مضي عدة ساعات من التحديق بالمناظر الخلابة التي تجاوزها القطار خلال رحلته. تلاعب النعاس بأجفان الصبي فوضع (رازي) كفه عند

خده وأنزل رأسه على حجر. ليغط الصغير في نوم عميق مباشرة وأسند هو رأسه للخلف متفكرًا ومستذكرًا رحلته الأولى بالقطار مع (مريم) حتى أغمض هو الآخر عينيه ونام بعد مرور مسؤول التذاكر وتحققه من تذاكرهما.

وصل القطار أول المساء وبدأ المسافرون بالترجل من عرباتهم فاستيقظ (رازي) بسبب الجلبة التي أحدثوها حوله خلال نزولهم وحملهم لأمتعتهم، وما أن فتح عينيه حتى وجههما نحو (وحيد) الذي كان لا يزال نائمًا في حضنه فحرّك رأسه برفق وحمله على كتفه وشد حقيبته من الرف العلوي وحملها ونزل هو الآخر للمحطة وبدأ يسير ويجول بنظره بحثًا عن وسيلة نقل توصله لقريته، لكن وبسبب الوقت المتأخر وقلة النشاط في تلك المحطة لم يتمكن من ذلك فقرر عدم البقاء والسير مشيًا خاصة وأن المسافة لم تكن بعيدة لكن رحلته القصيرة تلك كانت شاقة بسبب حمولته.

بعد ما يقارب ساعة من المشي المتواصل وصل (رازي) لمدخل القرية وبالرغم من التعب الذي أحس به استأنف سيره نحو مزرعة أهله ووصل عند باب منزلهم الصغير وطرقه بعد ما وضع الحقيبة

الثقيلة على الأرض. بقي منتظرًا أمه تفتح له لكنها لم تفعل ولم ير من النافذة الجانبية أي أثر لاستيقاظها أو إشعالها لمصدر ضوء، فكرر الطرق عدة مرات حتى فقد الأمل واستسلم لفكرة أنها غارقة في النوم وقرر التوجه للزريبة والمبيت فيها حتى الصباح لأنها تملك جدرانًا وسقفًا والجو مناسب للبقاء في الخارج فقد كان عليلًا تعوم من خلاله بعض النسائم الباردة. حمل (رازي) الحقيبة ورفع جسم (وحيد) النائم وثبته أكثر ومشى بخطوات متعبة للجهة الخلفية من المنزل حتى وصل لبوابة الحظيرة التي دفعها برفق بقدمه كي لا تُحدث صريرًا يوقظ الصبي النائم، لكنه وقبل أن يخطو خطوة للداخل فوجئ برؤية أمه مستلقية على جنبها فوق الأرض الترابية.

تملك (رازي) شعور بالخوف والقلق في بادئ الأمر لكنه وبعد ما دخل لوسط الحظيرة انتبه لحركة صدرها نزولًا وصعودًا فعلم أنها فقط نائمة بجانب قبر أبيه فقرر الخروج وعدم إزعاجها وسار نحو باب الخروج وقبل أن يخطو خارج المكان سمعها تقول له: «لقد عدت..»

استدار (رازي) ليرى أمه وقد وقفت متكئة على عصا تحدق به بعينين ساخطتين..

(رازي): كيف حالك يا أمي؟

ثبتت الأم بعصاها على الأرض وتقدمت نحوه وتجاوزته متوجهة لمنزلها دون حتى النظر إليه فلحق بها ووقف خلفها وهي تخرج مفتاح المنزل من جيب صدرها وأخذ يتمعن بها بكل شوق لكنه لم يتجرأ أن يتحدث معها، فبادرته وهي تدخل المفتاح في القفل وتديره وقالت: من هذا الصبي الذي تحمله معك؟

(رازي): ابن (مريم)..

دفعت الأم الباب ودخلت لوسط المنزل وهي تقول: هل عينتك مربية عندها؟ هل هذا هو المستقبل الذي هجرتنا لأجله؟ خادم وضيع عند امرأة انتهازية..

(رازي): لقد ماتت.. فلا تتحدثي عنها بسوء..

(الأم) تشعل سراجًا بعلبة كبريت: لا تخبرني بما يجب أن أقوله، وموتها لن يغير رأيي فيها.

وجه (رازي) نظره لباب غرفته وقال: هل غرفتي مفتوحة؟

(الأم) تجلس على الكرسي الخشبي: أنا لم أقترب منها منذ هروبك.

توجه (رازي) نحو غرفته ودخل إليها ووضع (وحيد) على فراشه وحنيته على الأرض بجانبه وخرج لأمه وأغلق الباب خلفه. وقف عند السراج المنير وأسند ظهره للجدار وقال: لمَ كل هذا التحامل عليّ يا أمي؟ أنا آخر من بقي لكِ في هذه الدنيا.. لمَ ترفضين مسامحتي؟

(الأم) تبتسم وبنبرة متهكمة وهي تشير للقلادة الفضية حول عنقه: أنا من تغيرت؟ انظر لنفسك.. تلبس الحلي كالنساء وترعى الأطفال مثلهنّ.. ما الأعمال الأخرى التي دفعتك تلك العزباء للقيام بها قبل هلاكها بحيث مسختك بهذا الشكل؟

(رازي): أنا لم آتِ هنا للحديث عن (مريم).. أريدك أن تنتقلي للعيش معي.

(الأم): أخبرتك سابقًا بأني لن أبرح مكاني..

(رازي): ما الذي يبقيكِ هنا؟ غضبك مني ليس سببًا كافيًا لتبقي بعيدة عني!

(الأم): أنا لست غاضبة منك بقدر غضبي من نفسي لأني لم أستطع تربيتك.

(رازي): تقصدين لم تستطيعي كسر عزيمتي لأكون خادمًا عندك!

(الأم) ضاحكة: وماذا تظن نفسك الآن؟ ألست خادمًا لسيدك الصغير.. خادمًا لابن المرأة التي خطفتك مني؟

(رازي) بعصبية: لست خادمًا عند أحد! لقد تزوجتها!

سكتت الأم عندما سمعت من ابنها ذلك الكلام وبتلك النبرة وبعد لحظات من الصمت قالت بغضب مكبوت: هي من تزوجتك وليس العكس! الآن تيقنت من أنها تزوجتك لأنها كانت تعرف بدنوِّ أجلها وأرادت أن تشتري لطفلها أبًا بدلًا من الذي هجرها وتخلى عنه.. أنت لست سوى خادم مأجور مثل بقية الخدم الذين خدموها.. استيقظ من وهمك!

(رازي): كنت أعتقد ذلك أيضًا.. لكني تيقنت من أن الحقيقة عكس ذلك.

(الأم): تقصد خدعت وأوهمت نفسك بتلك الحقيقة.. أي عاقل سيرى ما أراه.. دعني أخبرك شيئًا يا صغيري عن مكر النساء.. لن تستطيع أبدًا تصور أو تخيل ما يمكننا القيام به للوصول لمبتغانا.. النساء يعرفن النساء وتلك المرأة من لقاء بسيط معها علمت بأنها أخبث من أي امرأة قابلتها في حياتي، وما آلت إليه الأمور الآن ودخولك عليّ وهذا الطفل على كتفك يؤكد لي ما كنت واثقة منه منذ

البداية.. لقد خدعتك.. وأي شيء رأيته قبل أو بعد هلاكها ليس إلا جزءًا من خطتها التي نسجت خيوطها بعناية لتقع في شباكها!

(رازي): لمَ تزرعين الشك في قلبي مجددًا بعد أن وصلت للراحة؟

(الأم): أنت من طرق بابي ومن يطرق الباب سيجد الجواب كما يقال.. واجه الحقيقة ولا تهرب منها كما هربت من حياتك هنا!

شعر (رازي) بالضيق من حديث أمه فأخرج من جيبه حبتين من دوائه وتناولهما بدون ماء وقال: وما الذي تريدين مني فعله الآن؟ أتخلى عنه كي أجلس بجانبك؟

(الأم) بقلق: ما الذي تناولته للتو؟

(رازي) ممسكًا قُلَّة ماء فخارية مستقرة في الزاوية: لا شيء..

نهضت الأم من مكانها وسارت نحوه وقلقها يتصاعد: ما بك يا بني؟ ممَّ تشكو؟

رفع (رازي) فوهة القُلَّة عند فمه محدثًا صوت بَقْبَقَةٍ متصلًا خلال شربه..

(رازي) معيدًا القُلَّة مكانها ماسحًا فمه بكمه: هذه مجرد مقويات بسيطة.

(الأم): مقويات؟ ومنذ متى تحتاج أن تتناول مثل هذه الأشياء؟

سحب (رازي) كرسيًا وجلس عليه ومظاهر التعب والإرهاق تتزايد على ملامحه: أخبريني الآن.. هل ستعودين معي أم لا؟

عندما شاهدت الأم ابنها بتلك الحالة رقّ قلبها وقالت: لا أستطيع الرحيل يا بني لا أستطيع.. ولن أجبرك على البقاء معي.

(رازي): وأنا كذلك لا أستطيع تركك هنا وحدك.

(الأم): لمَ يتوجب عليك الرحيل؟ ابق معي.. أنت وذلك الصبي.

(رازي) داعكًا جبينه بأصابعه: لدي الكثير من الأمور العالقة.

(الأم): مثل ماذا؟

صمت (رازي) متفكرًا في سؤال أمه وأدرك أنه بالفعل لم يعد هناك شيء يربطه بالمدينة فكل شيء جناه قد تبدد، والمرأة التي ترك قريته لأجلها قد رحلت ولم يعد هناك سبب حقيقي يبقيه هناك سوى (وحيد) والذي يمكنه الانتقال للعيش معه بجوار أمه، لكنّه في الوقت نفسه لم يرد له حياة مثل التي عاشها، بل أراد أن يمنحه فرصة أكبر ليحظى بمستقبل أفضل كما كانت رغبة أمه.

لاحظت أم (رازي) الحيرة على وجه ابنها فقالت: اسمع.. سأمنحك

سنة أخرى بعيدًا عني، وإذا كنت لا تزال مصرًّا على البقاء في المدينة بعد انقضائها فسوف أنتقل للعيش معك هناك.. ما رأيك؟

(رازي): ولِمَ لا تأتين معي من الآن؟

(الأم) مبتسمة بحزن: ادع الله يا بني أن تكون هذه السنة كافية لتوديع الأرض التي عشت فيها حياتي وأجمل أيام عمري وأقنع نفسي بالرحيل عنها..

(رازي): سنة واحدة فقط وسأعود لأخذكِ معي

(الأم): سنة واحدة فقط..

أمضى (رازي) شهر إجازة (وحيد) معه ومع أمه وكانت تلك الأيام من أسعد أيامهم جميعًا. كانوا يستيقظون كل صباح قبل طلوع الشمس ويقضون الساعات الأولى من النهار في إطعام بهائم المزرعة وجمع البيض وحلب البقرة وحصد بعض خيرات الأرض ليعدّوا منها إفطارهم، ويبدؤون بعدها برنامجهم الذي يستهلونه بالتوجه للسوق والتجول فيه، وكان الشيء المفضل لدى (وحيد) من تلك الجولة هو عندما يمرون ببائع البوظة ومراقبته لشجار أم (رازي) اليومي مع بائعة الخضار. في نهاية كل نهار يحتطب (رازي)

من الغابة مصطحبًا (وحيد) معه وخلال إحدى تلك الجولات حكى له كيف التقى بأمه أول مرة عند شجرة التوت وأخبره أيضًا بأنه أحبها وتزوجها لكن الغريب في الأمر أن (وحيد) لم يسأله عن أمه أو مكانها الآن واكتفى بالإنصات لقصصه عنها بسعادة.

مع غروب الشمس يجتمع الثلاثة عند الموقد وسط المنزل بعد أن تعد أم (رازي) لهم العشاء الذي يتكون غالبًا من حساء الخضار أو البطاطا مع بعض الخبز، يتناولونه وهم يجلسون حول النار يتسامرون ويتبادلون القصص والحكايات وكان (وحيد) بارعًا في سرد ذكرياته ومغامراته في المدرسة بطريقة جذابة وممتعة خاصة لأم (رازي). قبل انقضاء الشهر بيومين وفي إحدى الليالي خلال اجتماعهم عند نار الموقد وبعد خلود الصبي للنوم على حجر (رازي) أخبر الابن أمه بأنه يتوجب عليهم الرحيل غدًا لأن موعد عودة (وحيد) لمدرسته قد حل، وبالرغم من معرفتها سلفًا بالموعد إلا أن الخبر كان له وقع كبير عليها وأثار حزنها مما دفعه لمحاولة إقناعها مجددًا للرحيل معهما بقول: ما زال بإمكانك مرافقتنا يا أمي..

(الأم) بحزن: صدقني أن هذا جلُّ ما أتمنى لكن جذوري لا تزال مغروسة في هذه الأرض وأحتاج وقتًا أطول لاقتلاعها.

(رازي): سنة كما اتفقنا.. أليس كذلك؟

(الأم): بلى يا بني.. سنة واحدة فقط.

قبل بزوغ الشمس استيقظ (رازي) وجمع حاجياته وملابسه وخرج من غرفته تاركًا (وحيد) نائمًا على فراشه وذهب للخارج بحثًا عن أمه التي تكون عادةً في الحظيرة وعند دخوله شاهدها تجلس عند قبر أبيه والدجاجات تتجول حولها تنقر الأرض. دنا منها وجلس بجانبها يراقب معها قبر أبيه بصمت ثم رفع ذراعه ووضعه على كتفها واحتضنها بقوة ولم يقل شيئًا. بعد عدة دقائق فك (رازي) عناق أمه ونهض وخرج من المكان ولم يتبادلا أي حديث بل اكتفيا بوداعٍ صامت مشحون بالكثير من التنهيدات.

مساء ذلك اليوم وصل (رازي) مع (وحيد) لمنزلهما في حي ((الشلال الأزرق))، وقبل دخولهما عرّجا بـ (صباح) وابنتها اللتين سعدتا جدًا برؤيتهما وعبّرتا عن شوقهما إليهما وافتقادهما الشديد لهما لدرجة أنهما طلبتا منهما البقاء والمبيت معهما حتى موعد رحيل (وحيد)، لكن (رازي) آثر النوم في فراشه ووعدهما بأنه سوف يعود في صباح اليوم التالي لتناول الإفطار معهما وبالفعل هذا ما حدث.

(صباح) وهي تسكب بعض القهوة لـ (رازي): كيف كانت رحلتكما؟

(رازي) مبتسمًا: لمَ لا تسألين (وحيد)؟

(وحيد) وهو يقضم قطعة من الخبز: سعادة كبيرة!

(حنين) ضاحكة: أين ذهبتما؟

(وحيد): عند جدتي!

(صباح): كيف حالها؟

(رازي) رافعًا كوب قهوته محتسيًا رشفة منها: بخير.. لكن تمنيت لو عادت معنا

(حنين): ولِمَ لم تفعل؟

(رازي) معيدًا الكوب على سطح الطاولة: ترك القرية ليس بالأمر الهيّن عليها.

(صباح): أتفهم شعورها.

(رازي): لكنها وعدتني بأنها ستفعل السنة القادمة.

(صباح): جميل.. ماذا تنوي فعله الآن؟

(رازي): أول شيء يجب على القيام به هو الذهاب للمستشفى.

(صباح) بقلق: لماذا؟ هل تشكو من شيء؟

(رازي): لا أبدًا، لكن دوائي نفد مني بعد مضي أسبوعين ونحن هناك، وأذكر أن الطبيب أخبرني بأن لا أتوقف عن تناوله حتى يخبرني بذلك.

(حنين): وهل سيؤثر ذلك عليك؟ أقصد عدم تناوله في الفترة الماضية؟

(رازي): لا أعتقد فأنا لم أشعر بالتعب مرة واحدة منذ توقفي عن أخذه حتى إن قدمي تحسنت بالكامل ولم تعد تؤلمني خلال المشي عدا شعورًا بسيطًا بالخدر في أصابعي لكن من باب الاحتياط سوف أعرج بالدكتور (ناجي) لأطمئن.

(صباح): هل ستصطحب (وحيد) معك؟

(رازي): ما رأيك يا (وحيد)؟ هل يمكنك البقاء هنا مع خالتك حتى أعود؟

(وحيد) دون أن يلتفت إليه: نعم! سأبقى! هنا!

(حنين) بخليط من البهجة والاستغراب: هذه أول مرة يوافق فيها على البقاء وحده!

(رازي) مبتسمًا: الفضل يعود لأمي.. فهي من عاونته في سبيل [illegible] عندما اشترطت عليه ذلك لأخذه لجمع البيض معها، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يمانع.

(صباح): إذًا سنكون هنا بانتظارك على الغداء عندما تعود.

(رازي) باسمًا: حسنًا.

خرج (رازي) واستقل سيارة أجرة وطلب من السائق التوجه للمستشفى لكن وفي منتصف الطريق وخلال مرورهما بالسوق لمح محل الصائغ من النافذة فطلب منه التوقف والانتظار قليلًا. ترجل (رازي) من السيارة وسار نحو المحل ودفع الباب ليرن الجرس النحاسي الصغير لافتًا انتباه الصائغ العجوز الذي ما أن رآه حتى قال: «لقد عدت.. جيد.. تعال واجلس بجانبي لنبدأ العمل».

(رازي): أخبرتك سابقًا بأني سأترك العمل ولا نية لي بالعودة.

(الصائغ): وماذا عن كل التدريب الذي تلقيته؟

(رازي): أي تدريب؟ أنا لم أقم بشي ذي نفع طيلة الفترة التي قضيتها معك.

(الصائغ) مخرجًا بعض الحلي من الدرج: تعال.. اقترب مني.



سار (رازي) ووقف أمام طاولة العرض التي جلس خلفها الصائغ وقال: ماذا تريد؟

(الصائغ) واضعًا مجموعة من قطع المصوغات على سطح الطاولة الزجاجي رافعًا إحداها أمام نظر (رازي): كم عيارًا من الذهب هذه؟

(رازي): ثمانية عشر قيراطًا.

(الصائغ) رافعًا قطعة أخرى: وهذه؟

(رازي) ممسكًا القطعة ممعنًا النظر فيها لثوانٍ: ستة عشر قيراطًا

(الصائغ) رافعًا قطعة أخرى: ماذا عن هذه؟

(رازي): هذا نحاس وليس ذهبًا.. ما الغرض من هذه الأسئلة؟

(الصائغ) باحثًا بين القطع: لا تستعجل..

رفع الصائغ قطعة أخرى وقال: وهذه القطعة من الفضة كم قيراطًا تعتقد أنها تزن؟

(رازي): هذا ذهب أبيض وليس فضّة.. ما بك هل فقدت مهارتك في التعرف على المعادن؟

(الصائغ) معيدًا القطعة لمكانها: لا، لكني أريد أن أوضح لك المهارة التي اكتسبتها أنت من خلال بقائك معي ومراقبتك لي وأنا أعمل.. أنت الآن تحظى بمهارة لا يملكها كثير من صائغي المدينة.

(رازي): لا أفهم.. ماذا تريد أن تقول؟

(الصائغ): لمَ عدت؟ تريد بقية أجرك؟

(رازي): لا لم يعد يهمني ذلك.

(الصائغ): قررت أخيرًا بيع القلادة إذًا؟

(رازي): أخبرتك مرارًا بأني لن أبيعها فلمَ لا تكف عن السؤال؟

(الصائغ): في اليوم الأول الذي دخلت فيه المحل لم تكن تملك القدرة على تقييم تلك القلادة لذا فمهما قدمت لك من ثمن مقابلًا لها ستظن أني أغشك، لكنك الآن تملك الخبرة الكافية لتقييمها.. قيمّها لي.. لو أن أحدًا عرض عليك شراءها.. فكم تعطيه ثمنًا مقابلًا لها؟

(رازي) ممسكًا بالقلادة مقلبًا فصها بين أصابعه: ليس بالكثير.. في الحقيقة قد لا أهتم بشرائها من الأساس فصناعتها ليست بتلك

الجودة والفضة المصنوعة منها ليست خالصة بل مجرد قشر طليت به.

(الصائغ): ومع ذلك رفضت بيعها ولا تزال ترفضه مهما عرضت عليك من مال مقابلًا لها.

(رازي): وهذا هو سبب قدومي اليوم.. مع مرور كل يوم في هذا المحل أكتشف أن تلك القلادة لا تستحق مساعيك المستميتة للحصول عليها لذا أتيت لأعرف الإجابة.. إنها مجرد قطعة من الفضة وقيمتها لا تستحق كل ما فعلته!

(الصائغ): قيمتها المادية ليست ما أصبو إليه لكن قيمتها المعنوية تعني لي الكثير.. كنت أريد أن أستعيدها لأثبت لنفسي المبدأ الذي آمنت به طيلة حياتي والذي أوصلني لما أنا عليه اليوم، لكنك خذلت توقعاتي وحطَّمت كل ما أومن به.

(رازي): ماذا تقصد بأنك كنت تريد استعادتها؟ هل ملكتها من قبل؟

(الصائغ): اسمع يا (رازي) سأكون صريحًا معك.. أنا لم أوظفك

عندي في البداية لحاجتي لشخص يعاونني وأعتقد أنك اكتشفت ذلك بعد فترة قصيرة.

(رازي): نعم وبررت ذلك بأنك تريد الإحسان لي.

(الصائغ): في الواقع أنا لست بهذا الكرم.. كنت وما زلت أطمح في الحصول على تلك القلادة وأبقيتك بجانبي لأتحين أي فرصة أجدها لشرائها منك وفي كل مرة أفشل.

(رازي): وأظنك الآن قد قررت أخيرًا إخباري بالسبب..

جلس الصائغ العجوز على كرسيه الخشبي خلف طاولة العرض وكأن هموم الدنيا قد حطت رحالها فوق ظهره وزفر زفرة مشبعة بالحزن والألم وقال:

كنت فقيرًا مثلك بداية عمري.. عشت مع أسرتي عالة عليهم ولم أملك شيئًا من الدنيا إلا حب أهلي وإخوتي لي وقد كنت لا أراه شيئًا يستحق أو ذا قيمة في عالم يسحق ويطحن من لا يملكون المال.. عملت في كل شيء وقبلت بكل وظيفة مهما كانت حقيرة فقط لأجمع المال وفي كل مرة أرى حصيلة تعبي نهاية الشهر أثور ساخطًا وأترك العمل باحثًا عن مصدر أسرع للثراء.

عند دخولي عقدي الرابع من العمر قررت أخيرًا أن أبدأ مشروعي الخاص بعد ما سئمت حياة الفقر والحاجة لكن ذلك تطلب مبلغًا كبيرًا، وبالرغم من أن معاملتي لأهلي كانت سيئة وساخطة عليهم في الغالب بسبب فقرنا إلا أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لجمع المال،

الذي احتجته لتنفيذ مشروعي، وبالفعل باع أبي وأمي جميع مقتنياتهما الثمينة وإخوتي كذلك ومع هذا فحصيلة ما جمعوه لم يكن كافيًا ولم ينقصني غير مبلغ بسيط، وكنت جاحدًا لكل ما فعلوه لأجلي حين قدموا لي الأموال التي جمعوها وثرت فيهم ساخطًا، خاصة عندما رأيت أن أمي لا تزال تتقلد تلك القلادة الفضية ولم تقم ببيعها مع بقية مقتنياتها فقالت لي بأنها لا تستطيع التفريط فيها لأنها ورثتها عن أمها عن جدتها وهي ليست غالية أو ذات قيمة يمكنها أن تحدث فرقًا في حصيلة المبلغ الذي جمعوه لكني وبعنجهية وطيش أحمق أجبرتها على إعطائي القلادة لبيعها رغمًا عنها وهي لم تمانع رغم ألمها للقيام بذلك.

توجهت للصائغ في السوق الذي كان يملك هذا المحل الذي نجلس فيه الآن وعرضت عليه القلادة ليشتريها لكنه رفض لأنها لا تستحق، ومع إصراري اقترح عليّ عرضها في المحل للبيع فقط فلم أتردد بالموافقة وأعطيته القلادة ورحلت.

يومًا بعد يوم كنت أعرِّج بمحل الصائغ لأستفسر عما إذا كانت القلادة قد بيعت لكنه كان يخبرني دومًا بأنها لا تزال مكانها حيث

وضعها لتشتعل نيران الغضب في رأسي الفارغ وأعود للمنزل ساخطًا على أمي وأبي ألومهما بسبب فقرهما والعَوَز الذي وضعاني فيه، ولم أدرك وقتها أني كنت أقطع أوصالهما بكلامي الجارح إلى أن سقطت أمي يومًا خلال صراخي عليها ولم تقف بعدها

وفقدت القدرة على الحركة والنطق وسلبت منها الرغبة في الحياة بالكامل، لينقلب علي إخوتي ويقوموا بطردي من المنزل متجاهلين رفض أبي لاقتناعهم بأني السبب فيما حدث لها وكانوا محقين فيما فعلوا واعتقدوا، ولأول مرة أحس بالغربة والوحشة بدونهم فلم أعرف قيمتهم إلا عندما أجبرت على العيش بعيدًا عنهم لذا حاولت بشتى السبل إرضاءهم وقمت بإعادة جميع الأموال التي جمعوها لي لكن دون جدوى ورفضوا أخذ فلسٍ واحدٍ مني فقررت الذهاب للصائغ لاسترداد القلادة الفضية وإرجاعها لأمي علها تعيد لها وهج روحها الذي انطفأ.

أدركت أني تأخرت في ذلك القرار عندما دخلت المحل ولم أ[illegible] القلادة مكانها والصائغ يستقبلني باسمًا وهو يقول: «لن تصدق ما حدث اليوم!»

أخبرني بأن رجلًا ثريًا دخل مع ابنته الصغيرة واشترى القلادة بمبلغ كبير لأنها تعلقت بها ولم يرفض الثمن المبالغ فيه الذي طلبه الصائغ منه فقط ليسعد ابنته. أصبت بالخيبة الشديدة وطلبت من الصائغ أن يدلني على منزل هذا الرجل لكنه قال بأنه لا يعرف عنه شيئًا فبكيت منهارًا أمامه مما دفعه لسؤالي عن سبب حزني فأخبرته بكل شيء.

قدم لي الصائغ وقتها حلًّا بدا لي في بادئ الأمر أنه حل مناسب، وهو أن يقوم بصناعة قلادة مماثلة مقابل مبلغ زهيد فوافقت في الحال وبعد عدة أيام عدت له وأخذت القلادة التي صاغها لي وكانت بالفعل مطابقة تمامًا لقلادة أمي ففرحت كثيرًا بها وجريت مسرعًا لمنزلنا لأقدمها لها ودخلت عليها بعد محاولات مستميتة لأن إخوتي كانوا رافضين أن أقابلها لكن رؤيتهم للقلادة جعلتهم يسمحون لي بالدخول. جلست عند قدميها وأخرجت القلادة من جيبي ووضعتها في يدها المشلولة وقلت: «خذي يا أمي.. هذه قلادتك العزيزة عليك.. اغفري لي وسامحيني..»

لم تظهر أمي أي ردة فعل سوى بعض الدموع التي نزلت من عينيها

فظننت أنها دموع الفرح لأنها استعادت قلادتها ولم أكن أعرف أنها علمت بأنها لم تكن الأصلية وأصيبت بصدمة شديدة لمحاولتي خداعها وكانت تلك القشة الأخيرة التي كسرتها وكسرت معها تمسكها بالحياة.

(رازي) متأثرًا من حديث الصائغ العجوز الذي توقف عن سرد قصته ليمسح دموعه: وماذا حدث بعد ذلك؟

(الصائغ): عقب انتهاء عزاء أمي انضم أبي إلى إخوتي في رفضهم وجودي وتبرؤوا مني بالكامل وقبل رحيلي رمى القلادة المزيفة بوجهي وقال: «أنت فاشل ولن تحقق شيئًا في حياتك ولن تجد السعادة وراحة البال ما حييت.. ارحل عن وجهي.. لا أريد رؤيتك مرة أخرى..» .. عدت للصائغ لأني كنت أريد أن أصب جام غضبي ولومي على أحد وأقنعت نفسي بأن سبب وفاة أمي هو عدم إجادته صنع نسخة مطابقة للقلادة لكن الرجل كان حاذقًا ولم يتصادم معي وتركني حتى انتهيت من ثورة غضبي ثم قال: «ما رأيك أن تثبت لهم أنهم على خطأ؟»

ذلك الصائغ كان يعلم بأني كنت أحمل في صدري سخطًا على

العالم ورغبة ملحة لإثبات نفسي واعتقادي بأن المال هو المصدر الوحيد للسعادة الحقيقية وكل شيء سواه مجرد مسكنات رخيصة نخدع أنفسنا بها ولكنني لم أجد الطريق المناسب الذي يمكنني السير والجري فيه بكل قوتي لأثبت صحة كلامي، فقام هو بفتح ذلك الطريق أمامي وطلب مني أن أعطيه كل الأموال التي جمعتها لمشروعي مقابل أن أكون شريكًا له في المحل وأن يعلمني أصول الصنعة وعندما سألته عن سبب قيامه بذلك والمصلحة التي سيجنيها من ورائها قال: «لأني أومن بما تؤمن به وأرى نفسي فيك».

(رازي): وهل وجدت السعادة كما توقعت؟

(الصائغ) مستأنفًا حديثه: تعلمت المهنة وأتقنتها وأمضيت حياتي كلها بين المعادن والأحجار النفيسة والغالية وملكت منها ما لا يقدر بمال واشتريت نصيب الصائغ من المحل بعد ما قرر التقاعد عن العمل لكبر سنه، وأصبحت من الأثرياء لكني لم أجد يومًا أغلى وأثمن من الذكريات الجميلة التي جمعتها في حياتي مع أهلي وإخوتي.. ذكريات لم أعرف قيمتها في وقتها أو حتى عندما خسرتها، لكن مع تقدمي بالعمر وعزوفي عن الزواج لانشغالي بجمع المال

تبددت قيمته في عيني ولم يبقَ لي شيء في الدنيا يثير بهجتي مهما كان غاليًا، حتى دخلت عليّ ذلك اليوم ورأيت قلادة أمي على عنقك..

فيض من الذكريات الجميلة والمؤلمة ضربني وقتها وتعلمت درسًا قاسيًا حاول جميع من حولي تعليمي إياه لكنني لم أنصت.. تلك القلادة هي أجمل ذكرى في حياتي وقد فرّطت بها جهلًا وطمعًا مني ومعها فرطت بسعادتي التي لم أستعدها منذ ذلك اليوم مهما جمعت من أموال.. فرطت بسعادة لم أرها للبحث عن سعادة لم أجدها.. حماقة ما بعدها حماقة..

(رازي): وأنت تريد مني أن أقع في الخطأ ذاته..

(الصائغ) يهز رأسه بالنفي باسمًا: لا.. لا حق لي بها الآن.. أدركت ذلك!

أخرج الصائغ ورقة من درجه وبدأ يكتب كلامًا لم يكن ظاهرًا لـ (رازي) وبعد انتهائه نهض وترك الورقة فوق سطح طاولة العرض ورفع قبعته المعلقة من على الحائط ووضعها على رأسه وفتح الباب وهمّ بالخروج..

(رازي): إلى أين؟ هل أغلق المحل؟

الصائغ وظهره مدار له وعيناه تتأملان السوق: المحل بما فيه ملكك يا (رازي).. لقد كتبت تنازلًا كاملًا لك.. تصرف به كما تشاء.

(رازي): أنت منفعل الآن وتصرفك غير مدروس.

(الصائغ) يأخذ نفسًا عميقًا ويزفره بقوة: هذا قد يكون أفضل قرار أتخذه في حياتي.. لم أعد راغبًا في قضاء ما تبقى منها هنا.. في هذا القفص الذهبي.. أنا راحل بلا عودة.. لا تنتظرني.

رحل الصائغ ولم يره (رازي) مجددًا بعدها..

بعد رحيل الصائغ أغلق (رازي) المحل وركب سيارة الأجرة التي كانت لا تزال بانتظاره وتوجه مباشرة للمستشفى وجلس مع الدكتور (ناجي) بعد إجرائه لبعض الفحوصات.

(د. ناجي) مقلبًا ملف (رازي): قلت بأنك توقفت عن تناول الدواء قبل أسبوعين؟

(رازي): نعم.. لم أستطع الحصول على المزيد منه في القرية.

زفر الدكتور (ناجي) وعيناه تتفحصان صور الأشعة..

(رازي): هل أحتاج المزيد؟ أنا أشعر بتحسن كبير الآن.

(د. ناجي) واضعًا الملف جانبًا: يجب أن نبتر ساقك في أسرع وقت!

(رازي) وهو مصدوم: تبتر ساقي؟! لماذا؟!

(د. ناجي): توقفك عن تناول المضاد سمح للالتهاب بالانتشار أكثر وإذا تأخرنا فسيتسلل لبقية جسمك وعندها سيكون قد فات الأوان.. لا وقت لنضيعه أكثر.. سوف تبيت الليلة عندنا ونجري العملية أول الصباح.

(رازي): لكـ.. لكن لا أستطيع الآن..

(د. ناجي) بغضب: لا تستطيع ماذا؟! ألا تدرك أن حياتك في خطر؟!

(رازي): هل يمكن تأجيل العملية لبضعة أيام فقط؟

(د. ناجي): أنت لا تدرك حجم الضرر الذي ألحقته بنفسك فحتى هذه العملية هي محاولة ذات مخاطرة عالية ونسبة نجاحها مرهونة بسرعة تحركنا وأنا لن أتحمل مسؤولية إخراجك من هنا.

(رازي): سأوقع على أي أوراق تريدها لإعفائك من أي مسؤولية.

(د. ناجي): هذا ما كانت تقوله السيدة (مريم) في آخر مرة خرجت

من هنا على قدميها.. لا تكن أحمق يا سيد (رازي) وتهدر حياتك مثلها.

(رازي): نحن لسنا بحمقى.. هناك ما هو أهم!

(د. ناجي): أهم من حياتك؟

(رازي): نعم.. وعد قطعته ولن أتخاذل في الإيفاء به حتى لو كان ثمن ذلك حياتي!

(د. ناجي): ما هذا الهراء الذي أسمعه؟ أرجوك لا تضعني في هذا الموقف الصعب مرة أخرى.

(رازي) باسمًا: أنا لن ألومك على شيء.. أحضر لي الأوراق لأوقعها فقط!

خرج (رازي) من المستشفى وتوجه مباشرة للمحامي (حازم) وجلس معه ودار معه نقاش سريع..

(حازم): كيف حالك، سيد (رازي)؟ هل تحسنت أمورك؟

(رازي): الحمد لله.

(حازم): بماذا يمكنني أن أخدمك؟

(رازي): لدي استفسار قانوني.

(حازم): تفضل.

(رازي): في حال وفاتي.. هل يمكنني نقل وصاية (وحيد) للسيدة (صباح)؟

(حازم): نظريًا نعم لكن قانونيًا لا.

(رازي): لم أفهم.

(حازم): غالبًا وصاية السيد (وحيد) ستنتقل للدولة حتى نتثبت من أنه لا يوجد له أقرباء دم يرغبون في تبنيه وفي حال عدم وجود ذلك الخيار سوف يتم نقله لدار الأيتام ويمكن للسيدة (صباح) التقدم بطلب تبنٍّ رسمي هناك.

(رازي): وطلبها هذا يمكن أن يرفض.. صحيح؟

(حازم): نعم.. فالقرار سيكون للجنة مختصة بتلك الأمور.

(رازي): شكرًا.

(حازم): ما الأمر؟ هل هناك مشكلة ما؟ يمكنني المساعدة.

(رازي) يهم بالنهوض: لا أبدًا.. كان ذلك مجرد تساؤل يدور في خلدي وأردت الاطمئنان فقط.

عاد (رازي) لمنزل (صباح) وكان في استقباله (وحيد) الذي عانقه بكل حماس وسعادة وجلس الجميع وتناولوا وجبة الغداء التي أعدتها (حنين) وكانت وليمة كبيرة بمناسبة قبولها في الجامعة أخيرًا عقب انتظار طويل، وبعد انتهائهم طلب (رازي) منها أخذ الصبي واللعب معه في غرفة أخرى لرغبته الحديث مع أمها وحدهما. بعد أن اختلى الاثنان وحدهما في غرفة المعيشة قالت (صباح): «كيف كان يومك؟»

(رازي): جيدًا.

(صباح): ماذا قال الطبيب؟ هل كل شيء على ما يرام؟

(رازي): نعم الحمد لله.. أريد أن أصارحك بموضوع مهم لكن من الضروري أن يبقى سرًّا بيننا.

(صباح) بقلق: تفضل.. تعرف أنه يمكنك الوثوق بي.

حكى (رازي) لها ما حدث مع الصائغ وأخبرها أيضًا أنه ينوي بيع المحل بمحتوياته وإيداع المال الذي سيحصل عليه مقابله في حسابها وأن يبقى عندها حتى يبلغ (وحيد) سن الرشد وتقوم بتسليمه له.

(صباح) باستغراب: ولمَ لا تحتفظ أنت بالمال.. أنت الوصي عليه!

(رازي): لأن (وحيد) قد لا يبقى تحت وصايتي طويلًا.

(صباح): لن أوافق على شيء مما تقول دون أن تشرح لي ما يحدث.

شرح (رازي) لها حقيقة مرضه وأنه سيخضع لعملية خطرة قد لا ينجو منها وهذا سيعرض (وحيد) للتبني وهو يريد أن يضمن أن ذلك لن يحدث، ويريد أيضًا أن يؤمن له مستقبله دون أن يحتاج لأحد.

(صباح) بخليط من الحزن الشديد والخوف على (رازي): سوف تتجاوز الأمر وتخرج بالسلامة.. لا تفكر بتلك الطريقة.

(رازي): شيء آخر أريد أن أطلبه منكِ.

(صباح) وصدرها يضيق أكثر بهذا الحوار: ما هو؟

(رازي): الرسالة التي تركتها (مريم) لـ (وحيد).. ما زالت معكِ أليس كذلك؟

(صباح): بلى.. محتفظة بها.. هل تريدها؟

(رازي): لا.. لن أجد القوة لفتحها وقراءتها عليه.. هل يمكنك القيام بذلك عني؟

(صباح): أنت تطلب مني الكثير!

(رازي): أعرف.. سامحيني.. أرجوك حققي لي رغبتي.

(صباح) ودموعها تنهمر: أنا لم أرفض، لكن ماذا عن (وحيد)؟ هل سيبقى معي أم سيرحل لمدرسته بعد غدٍ أم ماذا؟

(رازي): لا تقلقي بهذا الشأن.. سأخبرك بكل التفاصيل الآن..

خلال أسبوع باع (رازي) محل الصائغ وأودع قيمته في حساب (صباح) البنكي وذهب للمستشفى ليقرر الدكتور (ناجي) موعد عمليته صباح اليوم التالي. ليلة العملية حضرت (صباح) برفقة ابنتها و(وحيد) الذي لم يرحل لمدرسته لغرفة (رازي) وبقوا معه يتسامرون ويضحكون حتى انقضاء موعد الزيارة وقبل رحيلهم طلب (رازي) منها ترك (وحيد) معه ليبيت معه وأن تأتي صباحًا قبل دخوله غرفة العمليات لتأخذه.

(صباح) بحزن شديد وهي تضع باقة من زهور البنفسج أحضرتها معها على طرف السرير: وسأعيده إلى حضنك بعد خروجك سالمًا.

(رازي) مبتسمًا: لا تنسي اتفاقنا إذا لم يحدث ذلك.

(حنين): لقد تحدثت مع الدكتور (ناجي) وقد طمأنني بأن كل شيء يسير على ما يرام وأن المرض لم يتجاوز ساقك.

(رازي) ممازحًا (حنين): سأثق بكلام طبيبتنا المستقبلية!

(حنين) ماسحة دموعها: ستكون بخير لا تقلق.

أشار (رازي) لـ (وحيد) بالاقتراب منه والاستلقاء بجانبه على السرير..

تبسمت (صباح) وأمسكت بيد ابنتها وسارت بها لخارج الغرفة..

(وحيد) ورأسه على صدر (رازي): مريض؟

(رازي) ماسحًا على ظهره: قليلًا..

(وحيد): مثل أمي؟

(رازي): أمك أكثر شجاعة مني.

(وحيد): خائف؟

(رازي): لا.. هل أنت خائف؟

رفع (وحيد) رأسه ووجه عينيه لعيني (رازي) وحدق بهما لثوانٍ ثم قال: أين كنزي؟

(رازي) متعجبًا: أي كنز؟

(وحيد): خالتي صباح أخبرتني بأن أمي تركت لي كنزًا.. أين هو؟

(رازي): متى أخبرتك بذلك؟

(وحيد): قرأت الخريطة لي اليوم.. تقول بأن أمي كتبتها.

(رازي): وماذا قالت لك أيضًا؟

(وحيد): تقول بأنها رحلت وتركت لي كنزًا عظيمًا وجدته تحت شجرة التوت.. أين هو؟

تبسم (رازي) بالرغم من دموعه التي بدأت تنهمر وخلع قلادته الفضية وقلدها (وحيد) وقال: هذا هو كنزك.. حافظ عليه ولا تتخلَّ عنه أبدًا.

(وحيد) ماسحًا على فص القلادة: إنه جميل! يشبه أمي!

(رازي) ماسحًا دموعه: نعم.. جميل مثل أمك.

(وحيد) واضعًا كفَّه على وجه (رازي): وقت النوم؟

(رازي) باسمًا وهو يجهش بالبكاء: نعم وقت النوم.

مد (وحيد) يده في جيبه مخرجًا قنينة عطر أمه ومدها تجاه (رازي)

وقال: لا تنس أمي!

أخذ (رازي) القنينة ودموعه تنساب من محاجره وبخ عطرها على وسادته وصدره الذي توسّده (وحيد) وأغمض عينيه بعد ما أخذ نفسًا عميقًا من أريجه..

في القرية وبينما كانت أم (رازي) تحلب بقرتها سمعت صوتًا ينادي عليها من خلفها فالتفتت وراءها لتشاهد في الأفق البعيد (وحيد) يجري تجاهها ضاحكًا يتقلد القلادة الفضية التي كان يلبسها ابنها ومن خلفه تسير سيدة وفتاة شابة متَّشِحتان بالسواد وعلى وجهيهما علامات الحزن الشديد، وقبل أن يصل الصبي لها خرج وهج قوي من فص القلادة انتشر وميضه وغطّى المكان كله.

أين كنا وإلى أين نحن راحلون..؟

ينقشع الوهج الأبيض القوي كاشفًا عن امرأة بشعر مربوط بعقدة غزا الشيب معظم خصلاته وهي تغلق كتابًا وتلقي نظرة على عنوانه.. تبسمت ووضعته بجانب شمعة بيضاء نصف ذائبة فوق طاولة صغيرة كانت أمامها في مكانٍ شبه مظلم.

صرير فتح باب في قمة مجموعة من السلالم بالقرب من السيدة ذات الشعر الفضي يتبعه دبيب خطواتٍ لشخص ينزل ببطء وحذر، ومع نزوله يزداد الضوء قليلًا في المكان حتى تظهر فتاة تحمل في يدها شمعة مماثلة لتلك التي على الطاولة وتقول للسيدة بعد ما رأتها جالسة على أريكتها الجلدية: «لمَ أنت في هذه الظلمة يا سيدتي؟»

تبسمت السيدة وقالت: مختلية بنفسي لا أكثر... لمَ أنت هنا يا (بسمة)؟

(بسمة): لقد تأخرتِ في العودة للقصر وبدأنا بالقلق عليكِ!

وجهت السيدة نظرها للكتب المتراكمة بعضها فوق بعض على

الطاولة الصغيرة أمامها وحملت الكتاب الذي وضعته للتو وقالت: نعم.. أظن أني نسيت نفسي مرة أخرى.. كتاب آخر يستنزفني.. حياة أخرى تعصف بي.. ولا نهاية لهذه الدوامة..»

(بسمة) ونظرها يتوجه للكتاب بين يدي السيدة: ما بك يا سيدة (هياء) تبدين تائهة؟

(هياء) سارحة في رفوف الكتب الشاهقة أمامها والتي أنيرت بنور لهب الشمعة المتراقص: لم أعد أعرف نفسي.. الشخوص تتماهى وتتداخل أمامي حتى بت أجهل من أنا فيهم..

تقدمت الفتاة بضع خطوات تجاه (هياء) وقالت بقلق: هل أستدعي الطبيب؟

(هياء) محتضنة الكتاب: عودي للقصر وأعدي لي حمامًا ساخنًا قبل النوم وأنا سألحق بكِ.

(بسمة) وهي تهم بالرحيل: حاضر.

(هياء): اتركي لي الشمعة عند بداية السلم..

(بسمة) منزلة الشمعة: أمرك.

ثبتت الفتاة الشمعة المشتعلة على سطح الدرجة الأولى من السُّلّم

بعد ما أذابت بعضَها فوقه ورحلت..

نهضت (هياء) من على الأريكة الجلدية وأعادت الكتاب الذي كان بين يديها على قمة الكتب المصفوفة فوق الطاولة، وألقت نظرةً على عنوانه قبل أن ترحل.. «القلادة الفضية».. رفعت أطراف ردائها الحريري الطويل ونفخت لهب الشمعة نصف الذائبة وسارت نحو الشمعة المثبتة عند بداية السلالم بأقدامها الحافية وحملتها وصعدت للأعلى..

خرجت (هياء) من منزل (أمين) وكان الوقت قد اقترب من منتصف الليل وعبرت الشارع المؤدي لقصرها وعند وصولها استقبلها الحراس مرحبين وفتحوا لها البوابة فقد اعتادوا على جولاتها المتكررة في أوقات متفرقة بين المنزلين. بعد تجاوزها للسور وحديقة القصر وصلت للمدخل حيث كان في انتظارها خادمتها الخاصة (بسمة) مع مجموعة أخرى من العاملين.

(بسمة) تأخذ الشمعة من يدها: حمّامُك جاهز يا سيدتي.

(هياء) لـ (بسمة) وهي تتقدم لوسط القصر ومن خلفها بقية

العاملين: أعدّوا لي طعام العشاء وأرسلوه لغرفتي وأنتِ تعالي معي.

(بسمة) مشيرة للبقية بالتفرق لإعداد العشاء: أمرك يا سيدة (هياء).

صعدت (هياء) للطابق العلوي ودخلت غرفتها لتسبقها (بسمة) بخطوات متسارعة وتفتح لها باب دورة المياه. دخلت حمامها الواسع الذي توسطه حوض حجري كبير تصاعدت منه الأبخرة ووقفت فوقه ورفعت كيسًا قماشيًّا حوى أوراق زهرة البنفسج المجففة وأفرغت محتواه فيه ثم نزعت رداءها ورفعت ساقها ووضعت قدمها على سطح الماء الساخن وانسلّت داخله. جلست (هياء) وسط الحوض محتضنة ركبتيها بينما قامت (بسمة) بتحميمها وسكب الماء فوق رأسها ودعك أكتافها وذراعيها بإسفنجة ناعمة، جلست بعدها عند طرف الحوض وبدأت بصب بعض الزيت على قمة رأسها وفركه بأصابعها حملت بعدها مشطًا خشبيًّا وأخذت تمشط شعرها الفضي ابتداءً من غرتها مرورًا بقمة رأسها إلى أسفل ظهرها وكرّرت العملية عدة مرات دون توقف.

(هياء) بأعين مغمضة ونبرة مرتاحة: كنت أحتاج هذا.. أصاب بالصداع كثيرًا هذه الأيام خاصة عند انتهائي من القراءة.

(بسمة) وهي تمرر المشط على رأسها: لمَ لا تبحثين لكِ عن هواية أخرى يا سيدتي؟ لقد رأيتك تعزفين بعض الآلات الموسيقية من قبل.. لمَ لا تعودين لممارسة ذلك.. كنتِ مبدعة بنسج الألحان.

(هياء): القراءة شغفٌ يأخذك لشغف والتخلي عنها ليس بالأمر الهين.. ثم إن القراءة بالنسبة لي ليست مجرد هواية.. بل حياة..

(بسمة): تعلقك بها يذكرني بتعلق الأم بأطفالها أو عاشق بمعشوقه.. كمن لا يريد البقاء وحده فيفني نفسه لغيره.

(هياء): الوحدة رفيقتي والخيال واقعي.. بعض الكتب تستحق أن تحب وتعشق أكثر من بعض البشر..

(بسمة): الواقع لا يمكن الهروب منه.. في النهاية سنعود لأرضه مهما كان خيالنا واسعًا.

(هياء): لا يوجد شيء اسمه خيال واسع لأن الخيال بلا حدود..

(بسمة): لكنه يستهلككِ بشكل كبير.. لم يعد لكِ وقت للقيام بأي شيء آخر.

(هياء): أعرف أني غارقة في ضَياعٍ مُوحَشٍ وأعيش في لَهْوٍ وشتات بين تلك الصفحات.. لكن.. ما أجمله من ضياع.

(بسمة) تسكب بعض الماء الساخن على رأسها: الكتب ربما تكون حياة أخرى لكنها ليست بديلًا عن حياتنا الحقيقية..

(هياء) بنصف ابتسامة: لقد قيلت لي هذه العبارة من قبل.

(بسمة): حقًا؟ ممن؟

(هياء): من الذي أدخلني هذا العالم..

(بسمة): كيف كان كتابكِ اليوم؟

(هياء) وهي تقف: كغيره..

(بسمة) تنهض من مكانها وتسحب منشفة قطنية بيضاء وتغطي بها جسد (هياء): هل كان عن الحب مثل معظم الكتب هذه الأيام؟

(هياء) ترفع قدمها وتخرج من الحوض: أغلب من يكتبون في الحب لم يجربوه قط.. العواطف بوصلة معطوبة لا تقود لساحل أو مرفأ.

(بسمة) مغطِّية رأس سيدتها بمنشفة أخرى: عن ماذا كان إذًا؟

(هياء) تقف أمام المرآة الملبدة ببخار الماء: كغيره مؤخرًا..

(بسمة) تقف وراءها قائلة: ماذا تقصدين؟

(هياء) مراقبة انعكاس صورتها المعكرة بضباب الماء الساخن على

سطح المرآة: أظن أني بدأت أفقد شغف القراءة.. أعتقد أن شبح الاعتياد قد أصابها أيضًا.. التعود مهلكة الشغف والعادة عدوة الإبداع..

(بسمة): لكنكِ قلتِ بأن القراءة بالنسبة لكِ حياة..

(هياء) تبدأ بالسير نحو باب الخروج لغرفتها: حتى الحياة يمكن أن نفقد بريقها وشغفنا للعيش فيها.. الجميع عاجلًا أم آجلًا يصلون لحظتهم الأخيرة مهما طالت رحلتهم..

(بسمة) سائرة خلفها: ذكرني ذلك يا سيدتي بحديث أمي عندما كانت تحاول إقناعي بالزواج.. قالت لي إن أعمارنا تتوقف من وقت لآخر ويجب علينا أن نبحث عمن يجدد الحياة فينا.. هذا رأي أمي على الأقل.

(هياء) فاتحة دولاب ملابسها: وأين نجد هذا المجدد؟

(بسمة) تمد يدها وسط الدولاب مخرجة منامة قطنية: هل تريدين رأيي أم رأي أمي؟

(هياء) مشيرة بيدها بأنها لا تريد تلك المنامة: لنسمع رأي الأكبر سنًا؟

(بسمة) معيدة المنامة ومخرجة أخرى حريرية بلونٍ مختلف: بالنسبة لها الزواج هو أفضل وسيلة لتجديد الحياة وإذا لم يتحقق ذلك فسيكون بإنجاب الأطفال..

(هياء) رامية المنشفة البيضاء المغطية لجسدها لابسة المنامة الحريرية: ألا تتفقين معها؟

(بسمة) ملتقطة المنشفة من على الأرض: بالطبع لا. أنا لدي رأي مختلف تمامًا.

سارت (هياء) نحو مرآة كبيرة استقرت فوق مجموعة من الأدراج الصغيرة وجلست على كرسي قصير بلا ظهر أمامها وقالت: لنسمع لرأي الأكبر عقلًا إذًا.

وقفت (بسمة) خلفها وأزالت المنشفة من على رأسها بعد ما سحبت مشطًا برأس عريض وأسنان متعددة من أحد الأدراج أسفل المرآة وبدأت تصفف شعر (هياء) الفضي، وبوجه متفكر ونبرة خالطها شيءٌ من الحيرة والتردد: أعتقد أن حياتنا تتجدد بأشخاص فعلًا لكن ليس كما وصفت أمي..

(هياء) ترفع قنينة عطر نصف مملوءة مراقبة انعكاسها في المرآة:

كيف إذًا؟

(بسمة) متأملة خصلات شعر (هياء) خلال تمرير أسنان المشط

عبرها:

«هناك أشخاص ننتظرهم وهناك من ينتظروننا.. بعضهم نراهم

ونشاهدهم كل يوم ونعلم يقينًا أو نشعر ونحس بقوة أن سعادتنا

معهم ومع ذلك لا نقدم ولا نتقدم بخطوة واحدة تجاههم.. لأننا

نفضل الانتظار.. ننتظر أن يقدموا هم على تلك الخطوة قبلنا..

وغالبًا يفعلون.. لكن ليس باتجاهنا.. بل باتجاه شخصٍ آخر لم يكن

في الأصل ينتظرهم..

(هياء) موجهة نظرها لانعكاس (بسمة) في المرآة: لقد حصرتِ

السعادة في قالب ضيق..

(بسمة) وهي مستمرة في تمشيط شعر (هياء) والتمعن فيه باسمة:

تظنين أني أتحدث عن الحب؟

(هياء) لابسة خاتمًا بفص أسود: عن ماذا تتحدثين إذًا؟

(بسمة) واضعة المشط أمام المرآة: عن شيء أكبر من ذلك بكثير.. عن مجموعة من المشاعر والأحاسيس لا تتحقق أبدًا للواقفين على قارعة الطريق متفرجين.. للذين يخشون الخسارة وهم لم يجنوا شيئًا من الأساس.. يرون في الإقدام مخاطرة لا تستحق العناء.. يشلهم وهم الكبرياء ويتيهون في سرابه ويفضلون لهيب العزلة والوحدة على نار وحرقة السعي والمحاولة..

(هياء): كلامك هذا ذكرني بالكتاب الذي قرأته اليوم.. إجابات متخفية كأسئلة.. متاهة ذات طريق واحد وعدة مخارج..

(بسمة) ممرّرة أصابعها في شعر (هياء) المسدل على ظهرها: وهل وجدتِ ضالتك به؟

(هياء) زافرة: مشكلتي هي أني لا أعرف ما هي ضالتي.. أشعر فقط بالفراغ وأجهل بماذا يجب عليّ أن أملأه به ومصيبتي الجديدة هي أن تلك الكتب التي منحتني سعادة لحظية باتت تفاقم إحساسي بذلك الخواء وتوسع دائرته وتزيد من عمقه.. حفرة سوداء عميقة وقعت فيها وكلما حاولت الخروج منها زلّت قدمي أكثر ولا أستطيع الخروج..

(بسمة) واضعة كفيها على ظهر (هياء): ربما يجدر بكِ التوقف قليلًا عن القراءة.. فترة وجيزة كي تستعيدي شغفك بها.. هناك أمور أخرى يمكنها منحك الإحساس ذاته

(هياء): مخذولة من واقعي ولا أجد مهربًا ألجأ إليه سوى خيالي..

(بسمة): مهما هربنا منه لا بد أن نواجهه في النهاية.

(هياء): منذ متى وأنتِ تعملين عندي؟

(بسمة) مستذكرة: ثلاث سنوات تقريبًا..

(هياء): ألم تتساءلي ماذا حل بمن كانت تشغل مكانك قبلك؟

(بسمة) تسير نحو السرير الكبير خلفهما رافعة اللحاف: افترضت أنها استقالت أو أنكِ قمتِ بطردها لسبب ما فقد رأيتك تسرّحين الكثير ممن يعملون بالقصر لأسباب عديدة

(هياء) ناهضة من مكانها: لا.. لم أطردها ولم تستقِل..

(بسمة) تقلب الوسادة وتضرب عليها بكفها: ماذا حل بها إذًا؟

(هياء) وهي تدخل تحت اللحاف وتتوسد الوسادة: كأنها لم تكن..

(بسمة) مغطية سيدتها باللحاف: لم أفهم؟

(هياء) مغمضة عينيها: أغلقي الأنوار قبل خروجك.

(بسمة): والعشاء؟ سوف يصل بعد قليل!

(هياء) بعينين مغمضتين: ليس اليوم.. ليس اليوم..

قـرطسـة الغطـرسـة

شاب في منتصف العشرين من العمر يلبس بدلة سوداء وقفازات بيضاء يسير وسط قصرٍ كبير عبر ممر طويل فُرش بسجادة حمراء خيط على جوانبها نقوش مذهبة يمسك بقبضتيه جوانب صينية فضية استقر فوقها قدح فخاري مليء بالقهوة السوداء تصاعدت منه الأبخرة واستقرت بجانبه قطعتان صغيرتان من كعك الفستق.

يصل لنهاية الممر ويقف أمام باب خشبي كبير صدر من ورائه نغمات عزف آلة وترية. يأخذ الشاب نفسًا عميقًا ويزفره وكأنه يستعد لمواجهة ثم يقوم ببسط كفه الأيسر ليوازن الصينية فوقه وبقبضته اليمنى يطرق الباب طرقتين خفيفتين بالكاد تسمعان. يتوقف العزف وبعد هدوء استمر لثوانٍ يسمع الشاب المتوتر صوتًا يأذن له بالدخول.

أدار المقبض بيده الراجفة ودفع درفة الباب داخلًا لغرفة واسعة بسقف عالٍ تغطى أحد جدرانها بالرفوف المملوءة بالكتب وجدار آخر كان من الزجاج أطلَّ على حديقة كبيرة زرعت بسجادة ملونة

من الزهور النادرة. توسطت المكان أريكة صنعت من الجلد المدبوغ استقرت أمامها طاولة مستطيلة بأرجل قصيرة من خشب شجرة الكرز. فوق تلك الأريكة جلست سيدة مرتدية فستانًا كحليًّا بياقة بيضاء كبياض الخصلات التي تخللت معظم شعرها الأسود الطويل المسدل على كتفيها. أمسكت السيدة بين أحضانها عودًا صنع من العاج وخشب الأبنوس وقالت بوجه متجهم للشاب المتوتر عند المدخل: «لمَ قاطعتني؟»

ارتجف الشاب وكاد يوقع ما بيده لولا أنه استعان بيمينه وأمسك بالصينية من مقابضها مرة أخرى وقال بصوتٍ مشبع بالرهبة: «إنها التاسعة يا سيدة (هياء) وحان موعد قهوتك..»

وضعت (هياء) ريشة العود عند أنفه ثم أمسكت بقبضتها زنده ووضعته جانبًا قائلة: «ضع الصينية أمامي..»

تقدم الشاب المرتبك بخطوات متسارعة نحو الطاولة المستطيلة وأنزل الصينية الفضية على سطحها بطريقة أحدثت صوتًا خفيفًا. رمقته (هياء) بنظرة حادة فرفع الشاب كفّه إلى صدره وأنزل رأسه قائلًا: أعتذر!

رفعت (هياء) قدح القهوة وأخذت رشفة منه واضعةً ساقًا على ساق تتأمل نور الشمس النافذ من الجدار الزجاجي وقالت: هل من جديد اليوم؟

(الشاب): لا.. نعم..

(هياء) دون أن تحيد بنظرها زافرة بتململ: يبدو أنه سيكون يومًا تعيسًا كالعادة.

(الشاب) مستجمعًا أفكاره وبكلمات متقطعة: عمدة الحي أتى أول الصباح يريد مقابلتكِ وأخبرته بأني سأحدد له موعدًا بعد ما أستأذنكِ..

(هياء) آخذة رشفة أخرى من قهوتها: يريد أن أتبرع ببعض المال كالعادة لترميم حيه المتهالك!

(الشاب): وكذلك تقديم الإعانة لفقراء الحي.

(هياء): وما شأني بهم؟ ألا يكفي أني قمت بتوظيف بعضهم في القصر بالرغم من عدم كفاءتهم وأنت خير دليل على ذلك؟

(الشاب): نحن ممتنون يا سيدتي لكرمك.

(هياء): أخبره بأني لا أريد مقابلته.

(الشاب): حاضر!

(هياء): من غيره أتى للتسول؟

(الشاب) بتحرج: مديرة المدرسة في حيِّنا أرسلت..

(هياء) مقاطعة: ماذا تريد تلك الحمقاء؟ ألم تأخذ جبايتها السنوية مني قبل أسبوع؟

(الشاب) بارتباك: لا أعرف يا سيدتي.. أرسلت رسالة مغلقة استلمها الحراس اليوم عند البوابة.

(هياء) واضعة قدح القهوة على الصينية رافعة قطعة الكعك بين سبابتها وإبهامها: وأين هي تلك الرسالة؟

مد الشاب كفه في جيبه مخرجًا ظرفًا أبيض مختومًا ببعض نقاط الشمع الأحمر ووضعه على الطاولة الخشبية أمامها..

قضمت (هياء) جزءًا من كعكة الفستق وبدأت تلوكها وهي تنظر للرسالة..

(الشاب): هل أفتحها وأقرؤها عليكِ يا سيدتي؟

(هياء): لا.. إنها تريد المزيد من المال في الغالب.. ارم الرسالة في

القمامة.

(الشاب) حاملًا الرسالة: حاضر.

(هياء) ممسكة بكوب القهوة مرة أخرى: هل هناك شيء آخر؟

(الشاب): نعم.. السيد (نديم) يريد مقابلتكِ أيضًا.

(هياء) تبتسم وتنهض سائرة نحو الجدار الزجاجي حاملة قهوتها

معها: (نديم).. الشخص الوحيد الذي أثق به من بينكم.. أين هو

الآن؟

هرع الشاب جريًا ليسبقها نحو الباب في الجدار الزجاجي وهو

يقول: في البهو ينتظر الإذن للدخول..

خرجت (هياء) من الباب الذي فتحه الشاب أمامها وجلست على

كرسيٍّ مصنوع من أغصان الخيزران مواجهة لحديقة القصر الكبيرة

وقالت: لا تتركه ينتظر أكثر.. اسمح له بالدخول.

(الشاب) حانيًا رأسه قبل أن ينصرف: أمرك!

جلست (هياء) متأملة جمال الطبيعة أمامها منصتة لزقزقة العصافير

المنتشرة حولها وأكملت احتساء قهوتها بهدوء..

بعد فترة قصيرة سمعت نقرات خفيفة على سطح الباب الزجاجي خلفها تبعه دخول الشاب ومن خلفه رجل في منتصف الثلاثين يحمل معه مدونة كبيرة ولما رأته (هياء) تبسمت وبقيت تراقبه حتى جلس أمامها ثم قالت للشاب: أحضر للسيد (نديم) قهوته.

(نديم): لقد تناولتها في بهو القصر يا سيدة (هياء)، شكرًا!

(هياء) واضعة ساقًا على ساق: اتركنا وحدنا.

خرج الشاب وأغلق الباب الزجاجي خلفه..

(هياء) واضعة كوب القهوة في حجرها: لم أرَكَ منذ مدة طويلة!

(نديم): المعذرة يا سيدة (هياء) الإشراف على أعمالك يستهلك وقتي كله وبالكاد أجد وقتًا مرة في الأسبوع لأقدم تقريري لكِ.

(هياء): دعك من العمل الآن.. كيف حال أسرتك؟

(نديم): بخير.. زوجتي ستضع مولودنا الثالث قريبًا.

(هياء): جميل.. تهنئتي لك ولها.

(نديم): شكرًا.. سوف آخذها لوالدتها خارج المدينة بعد يومين لأنها تريد أن تلد عندها.

(هياء): هل تحتاج إجازة؟

(نديم): لا.. يمكنني أن أوصلها وأعود بسرعة.

(هياء): ولِمَ كل تلك المعاناة؟ ابق معها يومًا أو يومين أو حتى أسبوعًا إلى أن تلد.

(نديم): سيبقى معها الطفلان وهذا كافٍ لا نحتاج أن نزاحم أهلها أكثر في منزلهم.

(هياء): كم أعمار ابنيك الآن؟

(نديم): ابني الصغير سبع سنوات، وأخته الكبرى عشر سنوات.

(هياء) مرتشفة من قهوتها موجهة نظرها للحديقة: السنوات تجري بسرعة.. أذكر اليوم الذي أخبرتني فيه بقرار زواجك وكأنه بالأمس.

(نديم): وكنتِ كريمة معي ومنحتني هدية مالية كبيرة.

(هياء): أنت تستحق أكثر مقابل ما تقدمه لي.

(نديم): لا أقوم سوى بعملي.

(هياء): أنت تمنحني الاطمئنان والإحساس بالأمان على ممتلكاتي وهذا أمر لا يقدر بمال.

(نديم): ممتن لثقتك يا سيدة (هياء).

وضعت (هياء) أصابعها على جبينها وأغمضت عينيها..

(نديم) بقلق: ما بك يا سيدة (هياء)؟

(هياء): أعاني من بعض الصداع فقط.

(نديم): حاولي أن لا تجهدي نفسك.

(هياء) بتهكم: عن أي جهدٍ تتحدث؟ لو بذلت جهدًا أقل فقد يتوقف الدم في عروقي.. أنا مترفة ولا أعاني من أية مشكلَات حقيقية تجهدني.

(نديم): الإجهاد له مسببات كثيرة وليست محصورة في حركة الجسد.

(هياء) باسمة: وما الذي يجهدك أنت غير طلباتي المتكررة؟

(نديم) يبادلها الابتسام قائلًا: طلباتكِ لا تجهدني يا سيدة (هياء).

(هياء): ماذا إذًا؟

(نديم) مديراً نظره للحديقة: في الحقيقة لا يوجد، وإن وجد فأنا لا أعطيه الكثير من التفكير.. أفضل التفكير في مسببات راحتي

وسعادتي على إجهادي وتعبي.

(هياء): حسنًا سوف أعيد صياغة سؤالي.. ما هي مصادر السعادة والراحة في حياتك؟

(نديم) دون تردد: أسرتي.. زوجتي وطفلاي..

(هياء) مبتسمة: متى علمت بحبك لها؟

(نديم) عاقدًا أصابعه: حين أصبحت أول شيء يخطر ببالي عندما أستيقظ وآخر ما يداعب خيالي عندما أغفو.. وقتها علمت أن حياتي لن تكتمل إلا بقربها وبقائها معي للأبد.

(هياء): سأطلعك على سر لم أصارح به أحدًا من قبل.

(نديم) باهتمام: سر ماذا يا سيدة (هياء)؟

(هياء): أن لا أحد يبقى معي وقتًا طويلًا..

(نديم): ماذا تقصدين؟

(هياء) موجهة نظرها لمجموعة من زهور البنفسج في بستان القصر: لا أعرف.. مؤخرًا بدأت أفكر كثيرًا بهذا الموضوع وكلما تعمقت فيه شعرت بالضياع أكثر..

(نديم) : اعذريني يا سيدة (هياء) إذا لم أفهم معنى حديثك.

(هياء): سأعطيك مثالًا.. قبل أن أخلد للنوم بالأمس كان آخر شخص رأيته هو (بسمة).. خادمتي الخاصة منذ ثلاثة أعوام وأراها كل يوم تقريبًا وهي التي كانت تهتم بكل أموري الخاصة.. هل قابلتها من قبل؟

(نديم): في الحقيقة لا.. لكن أنا لا أعرف جميع العاملين هنا وهذا ليس بالأمر الغريب.

(هياء): الغريب هو أني عندما استيقظت اليوم وسألت عنها لم يعرفها أو يسمع بها أحد من قبل هنا وكانوا ينظرون إليّ وكأني مجنونة..

(نديم): أمر غريب بالفعل.

(هياء): وهذه ليست أول مرة يظهر أو يختفي فيها أشخاص من حياتي فجأة دون أثر وكأني خلقتهم في مخيلتي وتعاملت معهم وحدي فقط.

(نديم): لا أقصد أي إهانة ولكن..

(هياء): ماذا؟

(نديم): تلك المكتبة في المنزل الصغير المجاور للقصر..

(هياء): ما بها؟

(نديم): أنت تقضين فيها جزءًا كبيرًا من يومك.. ربما لها علاقة بالموضوع!

(هياء): تقصد أني بدأت أفقد عقلي؟

(نديم): أقصد أنك بدأت تخلطين بين واقعك وخيالك..

(هياء): تريد حقًّا معرفة ما أشعر به؟ أحس بأني أطلت البقاء في مكانٍ كان يجب أن أرحل عنه منذ زمن طويل.. هل تفهم ما أعني؟

(نديم): أفهمك تمامًا.. أحيانًا نكون معلقين بخيط رفيع بشيء نريد مفارقته لكن وبالرغم من ضعفه يبقى مقيدًا لنا ومقوضًا لحركتنا ولا نستطيع التحرر منه.

(هياء): أتحرر من ماذا وإلى أين؟ أنا لا أرى طريقًا أمامي!

(نديم): ربما يكون خلفك..

نظرت (هياء) له بوجه متعجب ولم تعلق على كلامه وهو بدوره لم

يقل شيئًا آخر وبقي صامتًا لعدة دقائق نهض بعدها ووقف حاملًا مدونته فقالت له: إلى أين؟

(نديم): هل تحتاجين مني شيئًا آخر؟

(هياء): لا، ولكني كنت مستمتعة بالحديث معك!

(نديم): يمكنني البقاء لمدة أطول لو رغبت..

(هياء) بشيء من الضيق: لا لا.. عد لزوجتك وطفليك فهم أحوج مني لك الآن

(نديم): هل أنت مستاءة مني يا سيدة (هياء)؟

(هياء) بابتسامة مصطنعة: ولِمَ أستاء؟ اذهب الآن وسأكون بانتظارك عندما تعود.. لا تتأخر..

(نديم) وهو يهم بالرحيل: حاضر.

خرج (نديم) تاركًا (هياء) تهز ساقها للأعلى والأسفل وهي سارحة في حديقة القصر..

في مساء ذلك اليوم خرجت (هياء) كعادتها للتوجه إلى منزل (أمين) لقراءة بعض الكتب وعند وصولها للبهو نازلةً من غرفتها

استوقفتها إحدى الخادمات وقالت: متى أعد لكِ العشاء اليوم يا سيدة (هياء)؟

(هياء): هل أنت جديدة هنا؟

(الخادمة): لا يا سيدتي!

(هياء): لمَ تسألين إذًا؟ أين (بسمة)؟ هي تعرف مواعيدي!

(الخادمة) باستغراب: (بسمة) من؟

(هياء) مستذكرة: انسي الأمر.. لن أعود قبل منتصف الليل.

(الخادمة): حاضر سنكون بانتظارك.

خرجت (هياء) من القصر وسارت حتى وصلت للبوابة ليفتح لها الحراس بمجرد رؤيتها وهي مقبلة عليهم وعند مرورها بجانبهم قالت لأحدهم: أنت.. اقترب مني.

اقترب الحارس منها وحنى رأسه قائلًا: أمرك يا سيدة (هياء).

(هياء): منذ متى وأنت تعمل عندي؟

(الحارس) مستغربًا من سؤالها: منذ عشر سنوات تقريبًا!

(هياء): معنى ذلك أنك تذكر (حليمة).

(الحارس): لا.. (حليمة) من؟

(هياء) بخليط من العجب والسخط: كيف تقول بأنك تعمل عندي لعشر سنوات وأنت لا تذكر شخصًا كان يرافقني في كل مكان؟!

(الحارس) بتحرج ورهبة: أعتذر يا سيدتي ربما نسيت!

(هياء): نسيت؟! هل أنت أحمق!

اقترب رئيس الحراس منها عندما رأى ثورة غضبها وقال: ما المشكلة يا سيدتي هل اقترف خطأ ما؟

(هياء) صارخة فيه: أي نوع من الحراس تقوم بتعيينهم هنا؟!

(رئيس الحراس): أخبريني فقط بما فعل وسأعاقبه بنفسي!

(هياء) ملوحة بيدها في وجهه مستأنفة سيرها عبر الشارع نحو منزل (أمين): كلكم حمقى ولا فائدة منكم!

وقفت (هياء) عند باب منزل (أمين) وأخرجت المفتاح من جيبها وهي تحدث نفسها متذمرة: يظنون أني فقدت عقلي ويريدون التسلي بي!

دخلت المنزل المظلم وتوجهت للركن الذي كان (أمين) يعد فيه

قهوته وأخرجت علبة ثقاب ومجموعة من الشموع وأشعلت واحدة منها ووضعت البقية في جيبها. حملت الشمعة وأنارت بها طريقها لمدخل السرداب وفتحت الباب ونزلت السلالم بخطوات حذرة حتى وصلت للمكتبة وسارت نحو الأريكة الجلدية وثبتت الشمعة فوق المنضدة المقابلة لها. أخرجت شمعة أخرى من جيبها وأشعلتها بلهب الشمعة المشتعلة ثم استدارت وبدأت تتجول بين الرفوف حتى وقعت عيناها على كتاب لفت انتباهها بسبب كعبه فقد كان عليه نقوش ذهبية لمعت مع حركة لهب الشمعة فقامت بسحبه بيدها اليمنى وإدارته لتقرأ عنوانه.. «.. الأرجوحة..».

عادت (هياء) للأريكة الجلدية وجلست عليها بعد ما ثبتت الشمعة بجانب الأخرى وفتحت الكتاب ليخرج وهج وميض قوي غطّاها بالكامل..

ضوء وضوضاء

انقشع الضوء وتبدد لتجد (هياء) نفسها في كوخٍ صغير بغرفة واحدة خالية من أي أثاث عدا كرسيًّا أسود صغيرًا في أقصى المكان المقابل للباب الذي جاورته نافذة تُطل على مرجٍ واسع جميل وشجرة كبيرة ي الأفق رأتها عندما تقدمت وأطلت من تلك النافذة. فتحت لباب وخطت للخارج فاستقبلتها ترانيم مجموعة من الأجراس صغيرة المعلقة على شرفة المنزل والتي تراقصت تزامنًا مع ريح ردة ومنعشة هبت في المكان باتجاه تلك الشجرة وكأنها تريد حملها حوها.

ضعت (هياء) كفيها على صدرها متحسسة كنزة زهرية صوفية نت تلبسها وخلال تمعنها بتلك الكنزة أحست بقبعة لم تشعر ها فوق رأسها تطير من عليها عندما اشتد هبوب الرياح. راقبت ياء) تحليق تلك القبعة القشية الصفراء بعيدًا عنها وبينما كانت رحة في تراقصها وسط السماء الزرقاء الصافية سمعت دبيبًا قويًّا عن يمينها وبعد لحظات خرجت مجموعة من الخيول البيضاء

تعدو بسرعة أمامها. خيول برية ذات شعر وذيول طويلة ومنسدلة وأعينها مكتملة السواد بلا بياض لكن أحدها كان مختلفًا.. زهري اللون بقرن أصفر نبت في ناصيته. بعد أن تجاوز قطيع الخيول الطريق المؤدي للشجرة في الأفق وضعت (هياء) قدمها على العتبة الأولى نازلةً من الشرفة لتسمع صياح ديك يأتي من قمة المنزل.

رفعت نظرها نحوه فشاهدت ديكًا أحمر من عرفه لأقدامه ولم يختلف فيه لون عدا ذيله القرمزي. توقف الديك عن الصياح عندما وضعت (هياء) قدمها على العتبة الثانية لترى سربًا من الحمام الأبيض يحلّق مرفرفًا بأجنحته فوق المنزل آتيًا من خلفه متوجهًا نحو الشجرة في الأفق وبعد أن خطّت بقدمها على العتبة الثالثة والأخيرة انتبهت لدراجة هوائية مركونة بجانب المنزل سارت نحوها وركبتها وانطلقت بها نحو تلك الشجرة البعيدة.

مع اقترابها من الشجرة لاحظت أن سرب الحمام قد حط على أرجوحة تدلت من أحد أغصانها الكبيرة وقبل وصولها حلقت جميعها مبتعدة. ركنت (هياء) الدراجة على جذع الشجرة الكبير وراقبت الأرجوحة تتأرجح بحركة خفيفة من أثر طيران سرب

الحمام فجأة. مدت يدها وأمسكت بالمقعد الخشبي المربوط بحبال سميكة بغصن الشجرة وجلست فوقه وبدأت بالتأرجح.

أحست (هياء) بسعادة غامرة تغزو قلبها وهي تنطلق للأمام والخلف والريح تداعب وجهها وشعرها وقدميها الحافيتين بعد ما سقط حذاؤها خلال التأرجح وقالت بصوت مرتفع وابتسامة عريضة وهي تشد الحبال بقبضتيها:

«أستطيع أن أبقى هنا للأبد...!»

ما أن أنهت تلك العبارة حتى أحست بشيء يسقط من الأعلى ويضرب رأسها ليختل توازنها وتقع على قفاها أرضًا. بحثت بنظرها عن الشيء الذي وقع عليها وتسبب في سقوطها فرأت تفاحة حمراء على سطح العشب الأخضر. نهضت من مكانها والتقطت الثمرة وقلبتها في يدها ثم رفعت نظرها للأعلى فلم تر أية ثمار أخرى معلقة على الشجرة وعندما أعادت نظرها للتفاحة فزعت لأنها شاهدت الجواد الزهري ذا القرن الأصفر الذي عبر من أمامها سابقًا مع القطيع عند المنزل يقف أمامها وقريبًا جدًا منها. مدت (هياء) التفاحة له وقربتها من فمه وقالت: «هل تريدها؟»

هز الجواد رأسه وذيله وضرب بحافره الأرض ثم قام بدفع يدها بخطمه للأعلى..

(هياء) مشيرة بسبابتها لنفسها: تريد مني أن آكلها؟

وقف الجواد ينظر إليها ولم يقمْ بأي حركة أخرى سوى هز ذيله..

(هياء) مقربة التفاحة من فمها والسماء تتلبد بغيومٍ سوداء ظهرت فجأة: حسنًا..

أخذت قضمه كبيرة منها ولاكتها بين أسنانها وهي تراقب الجواد يأخذ بضع خطوات للخلف فقالت بفم مملوء: ما بك؟

بلعت اللقمة وما أن فعلت حتى برقت السماء بقوة صاحبها هبوب عاصفة قوية تبعها هطول مطر غزير..

جرى الجواد مبتعدًا تاركًا (هياء) مشتتة ومرتبكة مما يحدث لتجري هي الأخرى عائدة نحو الكوخ للاحتماء من العاصفة..

خلال جريها نحو الكوخ كانت الأجواء تزداد سوءًا والسماء ترعد وتبرق بقوة أكبر اهتزت لها الأرض التي أصبحت طينية زلقة أوقعت (هياء) عدت مرات قبل أن تصل أخيرًا للباب الكوخ

بسحبه وتدحل على عجالة وتغلقه خلفها وهي تتنفس بسرعة.

أسندت (هياء) كفيها على سطح الباب بأعين مغمضة وقالت: «ما الذي حدث للتو؟»

أجابها صوت من خلفها وقال: لا شيء يدوم على حاله..

التفتت وراءها مفزوعة لترى رجلًا متأنقًا يجلس على الكرسي الأسود في آخر المكان يضع ساقًا على ساق، يضع نظارة طبية ونظره لكتاب مفتوح بين يديه والديك الأحمر الذي رآته سابقًا يصيح فوق سطح المنزل ينقر بمنقاره عند أقدامه ويتجول حوله.

(هياء) ملصقة ظهرها للباب: من أنت؟!

أغلق الرجل الكتاب وخلع نظارته ووجه نظره نحوها وقال: لا أحد يبحث عن الشمس عندما تغيب لكن عندما تشرق فلا أحد يستطيع تجاهلها..

عقدت (هياء) حاجبيها بعد ما أمعنت النظر في ملامحه وقالت: لمَ ينتابني شعور بأني رأيتك من قبل؟

(الرجل) ببرود: وبمَ تشعرين أيضًا؟



(هياء) وإحساس بالخوف يعتريها فجأة: بأني لا أريد البقاء هنا أكثر وأريد الرحيل عن هنا بسرعة..

(الرجل) مشيرًا بنظارته: ارحلي إذًا.. لمَ لا تزالين واقفة؟

استدارت (هياء) بعينين متوجستين لم ترفعهما عن الرجل وأمسكت بكلتا يديها مقبض الباب وحاولت أن تديره لكنها لم تستطع فهزته عدة مرات بقوة لكن دون جدوى فقال الرجل: لمَ تريدين الخروج من الباب؟

(هياء) وهي لا تزال قابضة على المقبض: ومن أين سوف أخرج؟!.. هل ترى بابًا آخر؟!

(الرجل) فاتحًا الكتاب مرة أخرى بعد ما وضع نظارته: طريق الخروج ليس «بابًا» دائمًا..

وجهت (هياء) نظرها للنافذة بجانبها وقالت: وأنت؟ ألن تخرج أيضًا؟

(الرجل) وعيناه على صفحات الكتاب وتتحولان للّون الأحمر: ما زلت أسيرًا لهذا الكتاب الشيق ولا أستطيع تركه..



تحركت (هياء) بسرعة وفتحت النافذة ليخرج وميض قوي غطّى المكان بأكمله..

عادت (هياء) لمكتبة (أمين) في سرداب منزله وهي تجلس فوق أريكته الجلدية والكتاب بيدها وقالت: «كانت قراءة سريعة وتحيفة..»

نهضت من مكانها وحملت إحدى الشمعات لتعيد الكتاب لمكانه وبعد ما دفعته في الرف وجهت الشمعة للرفوف المقابلة قائلة: «أحتاج كتابًا آخر ينسيني ذلك الكتاب الغريب..».

خلال تمرير ضوء لهب الشمعة لمجموعة الرفوف تكرر الأمر ذاته معها مرة أخرى وهو لمعان كعب كتاب في الجهة المقابلة من المكتبة وقبل أن تسير نحوه وجّهت لهب الشمعة للكتاب الذي أعادته للتو لترى أن كعبه لم يلمع كالسابق فقالت: «غريبة.. ما معنى هذا؟»

تجاهلت (هياء) الكتاب الذي لمع وسحبت كتابًا قريبًا منها وألقت نظرة على عنوانه.. «العورة التي سترتنا..» تبسمت وقالت: «لمَ أشتاق لكِ يا رؤوم..؟»

أعادت الكتاب مكانه ثم سارت نحو الكتاب ذي الكعب اللامع وسحبته من الرف وهي تقول: «لنرَ قصة هذه الكتب اللامعة..»

عادت به ولم تنظر لعنوانه إلا بعد ما ثبتت الشمعة فوق الطاولة وجلست مستقرة على الأريكة الجلدية. كتب على مقدمة الكتاب بخط بني بارز «.. وليمة الحروف..» .. تعجبت (هياء) من العنوان وعندما مسحت سطحه مبعدة الغبار المتراكم عليه سقطت النقطة من على حرف الخاء والتي لم تكن سوى بعض الغبار المتحجر ليصبح العنوان «.. ونيمة الحروف..»

فتحت الكتاب ليخرج وهج أبيض قوي غطّى المكان بالكامل..

وجدت (هياء) نفسها في مكان مظلم تمامًا وشعرت بخفة في جسدها ولم تكن تسمع شيئًا في بادئ الأمر لكنها بدأت تسمع صوتًا أشبه بالقرمشة الخفيفة من عدة جهات. كان الصوت مزعجًا ومثيرًا للتوتر وشيئًا فشيئًا استقرت عيناها وبدأت تتضح الصورة أمامها وصدمت عندما رأت أنها تقف عند طرف كتاب كبير مفتوح وعلى جوانبه اجتمعت مجموعة من العِثاث، تمسك كل واحدة منها بأذرعها النحيلة طرفًا من الورقة وتقضمها قضمات متتابعة دون

توقف إلا لابتلاع ما جمعته بين فكيها من ورق مفروم بين أسنانها الصغيرة وكأنها سرب من الجراد الشره اجتمع على شجيرة خضراء يانعة. لم تكن (هياء) متشكلة كواحدة منهنّ غير أنها ملكت جناحين يشبهان أجنحتهن وحجمها قد تقلص ليصبح محاكيًا لأحجامهنّ وهذا أثار استغرابها كثيرًا، ففي العادة تتخذ شكل الكائنات التي ستتفاعل معها وتتقمص حياتها بالكامل شكلًا وعملًا. بقيت (هياء) تراقب مجموعات العِثاث وهي منهمكة بأكل أوراق ذلك الكتاب ولم تحاول التدخل أو التحدث مع أي منها حتى توقفت إحداها ورفعت رأسها الصغير ونظرت إليها بأعينها السوداء الواسعة وقالت: «لمَ لا تأكلين؟»

(هياء) بشيء من الارتباك والتوتر: لا، شكرًا لقد أكلت!

(العثة): أكلتِ ماذا؟

(هياء): أكلت.. أكلت بعض الملابس!

(العثة): أنت محظوظة.. الملابس ألذ بكثيرٍ من الورق.. هل كانت مصنوعة من القطن؟



رفعت عثة أخرى رأسها وقالت: قطن؟! أين؟!

(هياء): لا لا! كانت من الحرير.

(العثة) صارخة: الحرير ألذ من القطن!

توقفت بعض العِثاث عن الأكل رافعة رؤوسها موجهة أعينها نحو (هياء) التي شعرت بالجزع من منظر تلك الأعين السوداء كأعين الدمى وهي تحدق بها وقالت: «عدن لتناول الورق لم يعد هناك أية ملابس لقد أكلتها كلها..»

بعد تسمرٍ دام لثوانٍ أنزلت العِثاث رؤوسها واستأنفت تناول أوراق الكتاب..

(هياء) زافرة بارتياح محدثة نفسها: أي مشكلة كدت أوقع نفسي بها!

حاولت (هياء) استكشاف المكان حولها بالتجول بعينيها وبينما كانت تقوم بذلك سمعت عثة تقول: «أحسُّ بالغثيان..»

وجهت (هياء) نظرها لتلك العثة التي توقفت عن الأكل وقالت لها: لِمَ أنت مستمرة بالأكل إذًا؟

(العثة) وهي تعاود قضم الورقة: لا أستطيع التوقف فطعمها لذيذ جدًا لكني أشعر بأن بطني ستنفجر!

(هياء) تنهرها بقوة: توقفي عن الأكل! ستهلكين!

انشق بطن العثة وخرج منها ما يشبه المخاط الأبيض لتسقط على ظهرها بلا حراك. توقفت بقية العِثاث عن الأكل في وقت واحد يتأملن صاحبتهنّ الهالكة لكن ما لبثت أن عادت رؤوسهن الصغيرة وسجدت عند أطراف الورقة واستأنفن تفتيتها والتهامها.

(هياء): ما هذا الجنون؟

صوت يحدثها من الظلمة: هل تريدين حقًا مساعدتهن؟

(هياء) رافعة رأسها في العتمة: من أنت؟

جاوبها الصوت : في أعلى المكان يوجد مصباح.. أشعليه وسرف يتوقفن عن الأكل.

(هياء): أخبرني أولًا من أنت؟! صوتك مألوف!

لم يجب الصوت عليها وعم الهدوء المكان عدا صوت العِثاث وهي تقرمش أطراف الورقة وصوت واحدة أخرى تسقط على ظهرها ببطن مشقوق..

حركت (هياء) أجنحتها الرقيقة ورفرفت صعودًا في ظلام الغرفة الدامس حتى اصطدمت بالسقف ومع إمعانها النظر رأت مصباحًا يتدلى من السقف فتبعته حتى وجدت القابس الموصول به في الجدار لتحلّق نحوه بسرعة وتستقر أسفل منه وتحاول بأذرعها الصغيرة رفعه وبعد جهد جهيد تمكنت من إشعال المصباح الذي بسط نوره في الغرفة كلها، وما أن شاهدت العِثات النور القادم من فوقها حتى توقفت عن الأكل في الحال.

(هياء) واضعة كفها على صدرها متنفسة الصعداء: أخيرًا توقفن..

بدأت العِثات الصغيرة بالتحليق للأعلى تباعًا تجاه المصباح المتوهج و(هياء) تراقبهن بصمت حتى بدأن يصطدمن بسطح المصباح ويحترقن متساقطات على الأرض ميتات واحدة تلو الأخرى. صرخت (هياء) فيهن وحلقت بسرعة تجاه مجموعة منهن لم تصل بعد لسطح المصباح الساخن وحاولت ثنيهن عن الاستمرار لكنهن كنّ مغيبات عن الوعي وأعينهن السوداء تحولت للبياض التام وكأنهن دخلن في حالة من الافتتان الأمر بذلك الوهج ومهما حاولت لن تستطيع منعهن من بلوغ نهايتهن المحتومة. ماتت جميع

لهاث وانتشرت جثثها بأرجلها المتكورة على الأرض و(هياء)
زفوف فوقهن تراقب ذلك المنظر بفزع ليعاود الصوت الحديث
معها:

«أحيانًا يجب أن نحترق كي نستيقظ..»

توهج المصباح وأشع نورًا أبيض قويًا غطّى المكان بالكامل..

انقشع الوهج الأبيض لتجد (هياء) نفسها على الأريكة والكتاب بين
يديها وبعد عدة أنفاس قالت: «ما بها الكتب اليوم غريبة المحتوى؟»

نهضت (هياء) وحملت إحدى الشمعات معها وأعادت الكتاب
لمكانه وبعد ما دفعته في الرف وجهت لهب الشمعة لكعبه ولاحظت
أنه لم يلمع فقالت: «فقد لمعانه هو الآخر..»

سارت مبتعدة عن ذلك الرف وتجولت بين الرفوف محركة لهب
الشمعة بين الكتب المصفوفة حتى وقعت عيناها على كتاب يلمع
في مكان مرتفع وقالت محدثة نفسها بتعجب: «ما الذي يحدث؟ ما
معنى هذا كله؟»

صارعت (هياء) قرار قراءة ذلك الكتاب لأنها لم تحب أن تكون

اختياراتها مقيّدة بذلك اللمعان اللحظي لكنها لم تستطع مقاومة فضولها وقررت إحضار السلم وإلقاء نظرة عليه. صعدت للأعلى حتى وصلت عنده وسحبته بيد بينما أنارت الرفَّ بالشمعة الممسوكة باليد الأخرى والتي قربتها لغلاف الكتاب لقراءة عنوانه:

«.. السقوط من قمة المتعة..»

(هياء) تفتح الكتاب بسبابة يدها الممسكة للشمعة: يبدو مشوقًا..

خرج وهج قويٌّ غطاها بالكامل..

تبدد الوهج الأبيض وتلاشى كاشفًا لـ (هياء) عن نهرٍ جارٍ أمامها وأنها قد جلست على شطِّه وقدماها مغمورتان في مائه البارد. الوقت كان ليلًا لكن المكان أنير بقمر ضخم مكتملٍ توسط السماء بالإضافة لمجموعة من اليراعات المضيئة التي حلّقت بين أغصان أزهار الزنبق الأصفر الطويلة المنتشرة على ضفاف ذلك النهر. الأجواء كانت هادئة والليل ساكنًا فيما عدا معزوفة عزفتها الطبيعة من حولها نسجتها أنغام جنادب الليل المصرصرة ونُقُق الضفادع الصغيرة وصوت عَجيجِ ماء النهر الجاري. وضعت (هياء) سواعدها فوق ركبتيها المثنيتين وأسندت ذقنها فوقهما وهي

تحرك أصابع قدميها في الماء وأخذت تتأمل القمر الكبير وتنصت للأصوات الجميلة المحيطة بها لتدخل حالة من الاسترخاء الغامر قادتها لإغماض عينيها باسمة.

بعد مرور دقائق من ذلك الانسجام التام مع الطبيعة بدأت تسمع صوتًا آخر ضمن الأصوات الأخرى آتيًا من على بعد يسير من يمينها. الصوت كان أشبه بصوت لسعات السياط مما دفعها لفتح عينيها والالتفات نحو مصدره لترى فتاة صغيرة تمسك شبكة لصيد الفراشات وتلوح بها محاولة اصطياد بعض اليراعات المضيئة المنتشرة في المكان. راقبت (هياء) الفتاة وهي تفشل مرارًا وتكرارًا في الإمساك بيراعة واحدة إلى أن رمت بالشبكة على الأرض وداست عليها بقدمها غاضبة. تبسمت (هياء) ونهضت من مكانها وسارت نحو الفتاة وعندما وقفت خلفها قالت: هل تريدين مني مساعدتك؟

(الفتاة) وهي عاقدة ذراعيها وحاجبيها بوجه متجهم دون أن تلتفت نحو (هياء): لا دخل لكِ!

انتبهت (هياء) لبَرطَمان زجاجي بغطاء معدني به مجموعة من

الثقوب عند قدم الفتاة فقالت باسمة: لمَ تريدين أسر تلك الحشرات الجميلة؟ هل تعرفين أنها تموت في الأسر؟

(الفتاة): لا يهمني! أريد أن أصطادها لتصبح ملكي وحدي!

رفعت (هياء) الشبكة من على الأرض وشدّت عصاها وقالت: حسنًا سوف أصطاد لكِ بعضَها لكن عديني بأنكِ ستحررينها قبل أن تموت.

بحركة سريعة حملت الفتاة البَرطَمان وخطفت الشبكة من يدها وجرت مبتعدة عن المكان و(هياء) تراقبها باسمة بخليط من العجب والاستغراب..

خلال وقوف (هياء) لمحت رأس صنارة منتصبًا عند ضفاف النهر من بعيد فقررت السير نحوه وابتسامتها لا تزال على محياها وعند وصولها شاهدت كهلًا جالسًا يصطاد بعض السمك وبجانبه سلة امتلأت بالأسماك الملونة بمختلف الأشكال والأحجام، ولاحظت أن خطاف الصنارة لم يكن في الماء وعلى وجه ذلك الصياد العجوز ارتسمت معالم الحزن الشديد وهو ينظر لسلته المملوءة بالأسماك فقالت له: ما بك يا عم؟ لمَ أنت مستاء؟

(الصياد العجوز) وقبضته مسندة لخده المجعد وعيناه الحزينتان مصبتان على الأسماك المكومة في سلته: كل مرة أرمي بها صنارتي في الماء تعلق سمكة بها..

(هياء) تجلس أمامه بوجه مستغرب: وما المحزن في ذلك؟ هذا أمر يجلب السرور وليس الحزن!

(الصياد العجوز) زافرًا: لا يوجد متعة في ذلك.. الحصول على كل ما تريد وقتما تريد يسلب الحياة معناها.. متعة الصيد هي بالانتظار والصبر مترقبًا لرعشة قصبة الصنارة بين يديك وليس الغنيمة!

(هياء): وهل معنى الحياة يكمن في المشقة والحرمان؟ أنت متكبر على النعمة!

(الصياد العجوز) رافعًا رأسه من فوق قبضته وموجهًا نظره لـ (هياء): كثرة الشيء نقص، والوفرة كالشح نقمة.. ثم إني سئمت أكل الأسماك لكنني أعشق صيدها.

(هياء): أنت كمجموعة العِثاث التي قابلتها قبل قليل.. لا يعرفن معنى الاكتفاء.. يمارسن شيئًا سئمن منه ومع هذا لا يستطعن التوقف..

أخرج الصياد العجوز دودة زهرية اللون من جيبه تلوت على أصبعه حتى غرسها في رأس الخطاف الحاد ثم أمسك بالسنارة ومدها لها وقال: جربي لعل حظكِ أفضل مني..

(هياء) بنبرة ساخرة ومتعجبة: أمرك غريب أيها الكهل.. هاتها!

وقفت (هياء) وشدت بقبضتيها على قصبة الصنارة ورفعتها فوق رأسها ثم وجهتها للأمام بكل قوتها رامية خطافها في الماء..

جلست (هياء) ممسكة الصنارة تراقب سطح الماء..

(الصياد العجوز) بغبطة: كم أحسدك على ثبات الخيط هكذا فهو لا يتحرك إلا مع أمواج النهر فقط!

(هياء) ضاحكة: هذه أول مرة أرى صيادًا يسأم من وفرة الصيد!

(الصياد العجوز) ملتفتًا إليها وبنبرة هادئة وباردة كالثلج: ماذا عنك أنتِ؟ ألم تسأمي بعد؟

(هياء) ونظرها على طرف الخيط الخارج من الماء: من ماذا؟

(الصياد العجوز) وهو مستمر بالتحديق بها: من الاستمرار والمحاولة.

(هياء) بتهكم: اسأل نفسك.. فأنت من يتذمر من الصيد بالصيد!

(الصياد العجوز): أعني ألم تسأمي من البقاء..

(هياء) تجول بنظرها حولها: لا لم أسأم بعد.. المكان جميل وهادئ.

(الصياد العجوز): لا أتحدث عن البقاء هنا..

بدأت مجموعة من اليراعات المضيئة بالتجمع حول (هياء) وحلقت بالقرب منها بشكل كثيف..

(هياء) ملتفتة نحو الصياد وهي تلوح بيدها محاولة إبعاد اليراعات عن وجهها: أين تقصد إذًا؟

(الصياد العجوز) واضعًا سبابته على جبينها دافعًا برفق: أقصد هنا..

خرج وهج قوي من طرف سبابة الصياد العجوز غطى المكان بالكامل..

فتحت (هياء) عينيها بعد انقشاع الوهج واختل توازنها من فوق السلم لتسقط معه على الأرض بقوة وخلال سقوطها التصقت الشمعة المشتعلة التي كانت ممسكة بها بأحد الأرفف وفي ثوانٍ اشتعل جزء من المكتبة وانتشر الدخان وسط هلع (هياء) التي

حاولت إخمادها بسحب السجادة تحت الطاولة الصغيرة بجانب الأريكة الجلدية لتسقط الشمعة الأخرى على الأرض دون أن تنتبه (هياء) لذلك لأنها انشغلت بضرب ألسنة اللهب المشتعلة أمامها ومع مرور الوقت شبت النار خلفها وتصاعدت وحاصرها الدخان الكثيف وأدخلها في نوبة من السعال قادتها للسقوط على ركبتيها والبدء في فقدان الوعي قبل أن ينتشلها أحد الحراس الذين رأوا الدخان من الخارج وهرعوا لنجدتها.

وقف الجميع أمام منزل السيد (أمين) وراقبوه وهو يتحول لكتلة كبيرة من اللهب الأحمر و(هياء) تبكي بحرقة وهي تشاهد أجزاءه تتهاوى واحدًا تلو الآخر بينما تجمهر مجموعة من أهالي الحي بين متفرج ومحاول لإخماد النيران برمي بعض الأتربة والرمال بأيديهم العارية أو سكب دلاء من المياه عليها.

بسطت (هياء) كفيها الملوثتين بالسواد أمام ناظريها لأنها أحست برجفة قوية تنتابهما وفجأة بدأت أناملها بالتحلل من قمتها إلى ما يشبه الغبار الماسي الذي تطاير مع الهواء وبقيت تراقب ما يحدث في ذهول تراقب نفسها تذوب وتضمحل.

مـــوت نـــوتـــة

أجفان ثقيلة تتباعد..

أنفاس منهكة تتصاعد..

سيدة تستيقظ في غرفة صغيرة بنافذة مفتوحة..

ستائر رقيقة من الحرير الأبيض تتحرك برفق مع هبوب النسائم..

شعاع الشمس الدافئ ملأ المكان وحطت بعض أشعته عند أقدام السيدة..

التفتت السيدة يمينًا ويسارًا بعد استيقاظها وتفحصت جوانب تلك الغرفة..

قفص معلق عند النافذة يتقافز فيه عصفور أصفر صغير يغرد بحماس..

مرسم منصوب في أحد الأركان..

حامل لوحات استقرت عليه لوحة زيتية نصف مكتملة..

طاولة خشبية وزع على سطحها مجموعة من الألوان بمختلف أنواعها..

أقلام الرصاص والفحم.. ريش التلوين بعدة أحجام..

معدات التنظيف وإزالة الألوان والبقع..

أصص النباتات الخضراء توزعت في كل مكان إلى جانب توزيع الزهور في فازات ذوات نقوش زاهية..

أبخرة بيضاء تتصاعد من فواحة عطرية فوق منضدة عند الباب..

يستند لتلك المنضدة آلة وترية كُمَّثرية الشكل..

توجه المرأة نظرها لبطنها المنتفخ والذي استقر فوقه كتاب مغلق حشر إبهامها في منتصفه.. تنزل الكتاب وتمعن النظر في لباسها وترى أنه جلباب واسع طويل صنع من قماش ناعم وتلون بمجموعة من رسومات زهرة البنفسج. تضع الكتاب جانبًا على رف كتب قريب منها وتنهض بثقل عن كرسيها الهزاز وتبدأ بالسير نحو اللوحة نصف المكتملة وتتأملها بصمت.

يُفتح الباب ويُطل رجل برأسه ويقول باسمًا: الجميع بانتظارك..

التفتت المرأة تجاهه وبادلته الابتسام وقالت: سألحق بك يا (عرندس)..

(عرندس) ضاحكًا قبل أن يرحل: لا تتأخري!

أعادت المرأة نظرها للوحة ورفعت يدها ماسحة بأناملها على سطح اللوحة متحسسة نتوءات الألوان الجافة رافعة بعدها أصابعها لتمررها في غرة شعرها الطويل وتنزلها في النهاية على بطنها وظلت تمسح بشكل دائري عليه وهي تحدق بتلك اللوحة لأكثر من دقيقة قبل أن تستدير وتتوجه نحو الباب..

خرجت لغرفة مكتظة بالناس وأصوات أحاديثهم الجانبية ملأت المكان وما أن رأوها حتى هللوا مرحِّبين بها ومن ضمن المرحبين كان (عرندس) الذي دنا منها وقال: كل عام وأنتِ لقلبي أقرب..

تبسمت المرأة خلال تلقيها التحايا احتفالًا بيوم ميلادها والتبريكات من الحاضرين الذين نهضوا من أماكنهم وساروا نحوها تباعًا. كان أول المهنئين أمها وأبوها الذي نفخ بعض الدخان من غليونه وقال: متى سأصبح جدًّا؟!

(الأم) ضاحكة: أنا لست مستعجلة مثلك!

تبعتهم خالتها (حليمة) التي مدت لها علبة مغلفة بشريط أحمر وقالت: كل عام وأنتِ بخير..

تنحت (حليمة) كاشفة عن الواقفة خلفها.. أختها الكبرى (فردوس) والتي لفت ذراعيها حولها هامسة في أذنها: كل عام وأنتِ أفضل أخت في الدنيا.. هديتك ستصل لاحقًا بعد ما يرحل الجميع خاصة عمتي (زكية).

وضعت المرأة ظهر كفها على فمها مُخفية ضحكة باغتتها فقبلتها (فردوس) على وجنتها وسارت مبتعدة ليتقدم بعدها زوجان شابان كل منهما يمسك بيد الآخر باسمين يجري حولهما صبي صغير فقالت الزوجة: أنا و(رازي) عدنا خصيصًا من السفر لحضور عيد ميلادك!

(رازي): نعم صحيح.. لم تستطع (مريم) البقاء بعيدًا عن أعزّ صديقاتها في مثل هذا اليوم.

(مريم) ممازحة: وماذا عن صديقك (عرندس)؟ هل كنت ستخذله ولا تجيب دعوته؟!

(رازي) ضاحكًا: لا.. لا، بالطبع لا أستطيع!

(مريم) ممسكة ذراع الصبي الذي سقط بعد أن تعثرت قدمه جراء الدوران السريع حولها: كفى يا (وحيد) توقف عن المشاكسة!

- ممتنة لتشريفكما لي بالحضور..

الباب يطرق بقوة..

سارع (عرندس) وهرول نحو الباب متحمسًا: أنا سأفتحه!

فتح الباب ودخلت سيدة في منتصف الأربعين من عمرها فقال لها مرحبًا: أهلًا عمة (رؤوم) كنا بانتظارك!

(رؤوم) بوجه عابس: هل بدأتم قبل أن أصل؟

ردت عليها سيدة أخرى كانت تجلس على أريكة بالقرب من الباب وقالت غاضبة: وهل كنتِ تظنين أننا سننتظرك؟!

تدخل رجل نحيل كان يجلس بجوارها وقال لها بنبرة مهزوزة ومترددة: اسكتي يا (زكية) ولا تثيري المشكلات!

رفعت (زكية) حقيبتها ولطمت وجهه وهي تقول: اسكت أنت يا (صالح)!

ضحك الجميع وخلال ضحكهم تقدمت المرأة صاحبة الحفل ووقفت في منتصف الغرفة وتبسمت وقالت محدثة الجميع:

«المهد أبيض.. فستان الزفاف أبيض.. والكفن كذلك..

كلها أقمشة معدومة الألوان لكنْ لكل واحد منها معنى مختلف عن الآخر.. معنى نحدده نحن فقط.. بتفاعلنا وانفعالاتنا مع تلك القطعة البسيطة والمألوفة..

نفرح ونحزن.. نسعد ونبتهج.. نبكي ونبتسم..

ليس بسبب تلك الأقمشة بل بما نقرره نحن أن يكون معناها لنا..

نحن من نصنع المشاعر في دواخلنا وليس من هم بيننا وحولنا..

فلمَ لا نختار ما يسعدنا منها فقط ولمَ يهدي بعضنا بعضًا أخبثها؟ لمَ يكذب الناس على غيرهم وعلى أنفسهم؟.. ربما لأن الحقيقة مؤلمة.. أو ربما كما يقال إن للكذب ألوانًا.. ألوانًا زاهية تنسينا مرارة واقعنا..

كنت دومًا باحثة عن الجمال.. في كل شيء حولي ومعي.. بحثت مطولًا عن جمال لا وجود له ولم أكن سأكتفي بغيره.. لذا فرحلتي للبحث عنه باقية ومستمرة ما حييت..

وعندما أجد ذلك الجمال أو جزءًا منه يتبادر إلى ذهني سؤال حين أراه يزول ويفقد بريقه أمام عيني.. لمَ لم يبق ويدم.. لمَ لم يتجدد...؟

وجدت أن الإجابة مستحيلة لأن السؤال خاطئ من الأساس..

الجمال حولنا في كل مكان نحن من نختار رؤيته من عدمها.. كما كانت تقول خالتي (حليمة) دائمًا..

اكتشفت أخطائي وأنا أرسم إحدى لوحاتي غير المنتهية.. وهي أن الجمال ليس زهرة نقطفها بل بستان نزرعه بخيالنا ونسقيه بواقعنا..

مشكلتنا أننا نتعامل مع الخيال ككذبة وليس كمبالغة جميلة للحقيقة.. القناعة فضيلة إلا إذا كانت تسوية وتنازلًا عما نستحق.. وهي السعادة.. السعادة المطلقة والمحررة من قيود المستحيل..

أذكر أني سألت أمي وأنا صغيرة وقلت: «كيف التقيتِ بأبي؟»، وهذا السؤال لم يكن من فراغ بل كان نتيجة المحبة التي رأيتها تزدهر بينهما كل يوم وكنت أريد أن أحظى بتلك السعادة نفسها عندما أقع في الحب أول مرة لكن إجابتها كانت عكس ما توقعت.. أخبرتني أنها عندما كانت تمشي يوماً في الحي النوى كاحلها أمامه فتظاهرت بأنها لا تستطيع الوقوف بعد ما شاهدت اهتمامه وخوفه عليها..

«بدأتِ حياتكِ معه بكذبة؟!».. قلتها وأنا مصدومة..

أجابت بعبارة لم أنسَها أبدًا..: «أكثر علاقات الحب الناجحة تبدأ بكذبة يا ابنتي..»

عارضتها غاضبة وقلت بأنها مخطئة وأخبرتها بأني أحلم بنوعٍ مختلف من الحب فلم تهاودني أو تسايرني بل أجابتني بإجابة شتتتني أكثر وقالت: «كل حلمٍ يتغير عندما يصبح واقعًا.. احلمي يا ابنتي لكن احلمي بواقع جميل وليس بحلم غير واقعي..»

فقدت الأمل وقتها بأن أجد الحب الذي أصبو إليه وبالشكل الذي رسمته في مخيلتي.. حتى وجدت نصفي الآخر وتوءم روحي.. زوجي العزيز (عرندس).. الشخص الوحيد الذي حين أستحضره يغيب عقلي ويطيب خاطري..

وضعت المرأة يدها على بطنها ثم تبسمت وقالت: عندما فقدت مولودي الأول قبل أن أراه ظننت أن الدنيا انتهت ولا مناص أو مهرب من الغرق في بحر دموعي الحزينة على فراقه.. ليس من المفترض أن ندفن أبناءنا.. هم من يجب أن يواروننا الثرى.. لكن هكذا حكمت الأقدار.. قدري أنا بالذات.. أبعدت الجميع عني

ولم أكن أريد أن أمنح الفرح فرصة للعودة لحياتي.. وكأني كنت مستمتعة بعذابي.. عذاب طال زوجي وقادنا لشجارنا الأول.. شجار كان محفوفًا بالحقائق.. الحقائق التي كان من المفترض أن تكون بلسمنا الشافي لكنها لم تكن سوى أشواكٍ نثرت بيننا.. من الصعب جدًا إقناع شخص بأنه على خطأ لكن من السهل جدًا إيقاعه فيه.. كان يراني في وقت لم أرَ فيه نفسي حتى في المرآة.. فالسلبي يعيش حالةً مرضية.. تفكيره مرض.. حديثهُ مرض.. تعابيره مرض.. ونظرتهُ للحياة مرضٌ في مرض.. يُغلِقُ أي نافذةٍ يمكن أن يطلَّ منها التفاؤل يومًا ما.. لذا يجب أن تنفر منه مبتعدًا.. وإلا فإن مرضه سيُسرعُ نحوك معانقًا.. وهذا ما فعله زوجي تمامًا وكنت متفهمة لسخطه عليّ وصدوده عني.. بحثت عن أشخاص ليواسوني لكنهم لم يمنحوني شيئًا غير التعاطف وأنا شاكرة لهم لكن ذلك لم يكن ما احتجته وقتها.. لا تستأ كثيرًا عندما ترى الكثيرين قد حبسوا أنفسهم في الماضي فهذا يعطيك مساحة أوسع للتجول واستكشاف المستقبل دون مزاحمة.. وهذا ما حدث معي عندما فتحت كتابي الأول في عزلتي المظلمة ورأيت نورًا يشع

مبددًا كل أحزاني.. تساءلت مع نفسي المتعافية شيئًا فشيئًا مع كل سطر أتجاوزه وكل صفحة أطويها: كيف لكتابٍ أن يخفف عني؟ أنا لا أشعر بمللٍ كي أتسلى أو مفتقدة لعلمٍ كي أتزود به.. أنا أعيش جحيمًا ناجمًا عن عاصفة من الذكريات المؤلمة ولن تزول بقراءة ورق محبور..

كم كنت مخطئة..

وجدت ضالتي في الكتب.. منحتني الكثير لكنها أخذت مني أكثر.. فهي قد تمنحنا حيوات أخرى لنغوص في جمالها، لكنها قد تسلبنا في غفلة منا حياتنا التي من المفترض أن نعيش لحظاتها بالكامل.. بحلوها ومرها ولا نسمح للحزن يومًا أن يستوطن قلوبنا.. نتعلم من أخطائنا ونزهو بإنجازاتنا.. لا تهربوا من حياتكم بل عانقوها.. الكتب ليست بديلًا عن حياتك الحقيقية لكنها بلا شك من نعمها المهجورة..

أحبكم.. أحبكم جميعًا.. وحياتي لن يكون لها معنى بدونكم..»

وقف الجميع بين باكٍ ومبتسم وتناوبوا على معانقتها وتقبيلها بعد ذلك أكمل الحاضرون الحفل وتناولوا الكعكة التي غرس فيها

ثلاثون شمعة نفختها المرأة في نفسٍ واحد وخلال ساعة رحل الجميع وخلا المكان من الضيوف وبدأ (عرندس) بترتيبه فهمت زوجته بمساعدته لكنه أوقفها وقال: «ارتاحي أنت سأتدبر الأمر بنفسي..»

- لكني لست متعبة.

(عرندس) باسمًا: أعرف لكن أنا سأهتم بكل شيء لا تقلقي.

تبسمت المرأة وقالت: حسنًا.. سأذهب لغرفة المرسم.

دخلت للغرفة لكن ما أن توسطتها حتى سمعت الباب يُطرق فقالت: تفضل..

أدير المقبض وتحركت درفة الباب ليطلَّ (عرندس) برأسه باسمًا وهو يقول: هناك ضيف متأخر يريد السلام عليكِ!

هزت المرأة رأسها متسائلة: من؟ أمك (فاطمة)؟ ظننت أنها مسافرة!

دخل رجل عجوز أصلع لكن شعر رأسه من الخلف كان طويلًا بعض الشيء وسار لوسط الغرفة وهو يفرك لحيته البيضاء الكثيفة ولوح بيده باسمًا بعد ما ضبط نظارة ذات عدسات مربعة على أنفه

بسبابته وقال:

«أهلًا بحفيدتي الحبيبة.. كيف كان يومكِ الأول من عقدكِ الثالث؟»

تبسمت المرأة بسعادة كبيرة عند رؤيته وقالت: «يومي اكتمل الآن بحضورك يا جدي..»

(عرندس) مخاطبًا الرجل ذا اللحية البيضاء من مدخل الغرفة: سأذهب لإكمال ترتيب المكان.. هل تريد مني شيئًا يا عم (أمين)؟

(أمين) رافعًا سبابته ضاحكًا: هل بقي شيء من الكعك؟

(عرندس) مبتسمًا: بالطبع!

(أمين) يربت على كرشه الكبيرة: هل أمك هي من أعدته؟

(عرندس) ضاحكًا: نعم نعم.. لقد أحضرتها قبل سفرها بالأمس!

(أمين) يسير تجاه المرأة المنتشية سعادة لرؤيته وكأنه يتراقص على أنغام موسيقية: أحضر لي قطعتين إذًا!

(عرندس) وهو ممسك بمقبض الباب: هل تريد بعض القهوة معها؟

(أمين) مقهقهًا: قهوة؟!.. بالطبع لا!.. أنت تعرف أن الشاي هو



مشروبي المفضل! لا تخلط بين مشروبي ومشروب زوجتك الفنانة!

(عرندس) ضاحكًا ساحبًا مقبض الباب وهو يهم بالخروج: حاضر يا عم (أمين).

وقف (أمين) أمام المرأة وأخرج بحركة سريعة من جيب صدره مغلفًا ومده لها باسمًا وقال: «كل عام وأنتِ بخير يا مبدعة..»

أخذت المرأة المغلف وأسندت طرفه عند ذقنها وقالت باسمة: ممم.. ما عساه أن يكون؟

(أمين) يقهقه ضاحكًا بضحكة اهتزت لها بطنه الكبيرة: لا تتظاهري بأنك لا تعرفين!

وضعت المرأة المغلف على طرف النافذة وقالت: بلى أعرف.. جميع كتبك التي تهديني إياها ساحرة!

(أمين): كتبي خالية من السحر.. السحر في عينيك وروحك فقط فهي من تشكل وترى كل الجمال الذي تخلقينه..

- تقصد الكذبة الجميلة التي أوهم نفسي بها



(أمين): الجمال هو الجمال مهما كان وأينما حل..

- هل تعلم أنني أتعرض للسخرية أحيانًا بسبب جموح أفكاري..

(أمين) ماسحًا على رأسها: عزيزتي.. أنت مثلي ولستِ مثلهم..

تبسمت المرأة وقالت: تقصد هاربة من واقعي بأحلامي؟

(أمين): أقصد صاحبة خيال.. وخيالك هذا يا عزيزتي هو مصدر سعادتكِ والألوان في حياتكِ.. البعض يملك القدرة على رؤية الجمال والبعض الآخر يملك القدرة على خلقه.. والكثير لا يملك لا هذا ولا ذاك.. وأنتِ وهبتِ الاثنين.. حسُّك وإحساسك الرائع الذي يرسم ويلحن ويحول كل شيء تلمسينه لجمال يخطف الألباب.. تزرعين البهجة والسعادة حيث تحلين ويقطف ثمارها المحظوظون.. من أنعم الله عليهم بصحبتك وحضورك يا أصل الفتنة وأساس الفرح ومصدر كل سعادة..

شعرت المرأة بخجل من كلمات (أمين) وأنزلت رأسها باسمة وقالت: تعرف دائمًا كيف تخدعني بكلماتك يا جدي!

(أمين) ضاحكًا: هذا بسبب الجوع! فأنا أجيد التعبير على معدة خاوية.

همت المرأة بالسير وهي تقول: سوف أستعجل (عوندس) ليحضر لك الكعك.

أمسك (أمين) بمعصمها وقال: لا.. انتظري.

- ماذا؟.. هل تريد شيئًا آخر؟

(أمين) يومئ برأسه تجاه هديته المغلفة ويقول: افتحيها..

تبسمت المرأة وقالت: حاضر.

حملت المغلف وشدت بأسنانها الشريط المربوط به وحلت عقدته وأخرجت كتابًا سميكًا وقالت: أين ستأخذني هذه المرة يا جدي؟

(أمين) يجلس على الكرسي الهزاز عاقدًا أصابعه: أنت من سيحدد ذلك وليس أنا..

همت المرأة بفتح الكتاب لكنها توقفت بوجه متفكر وقالت: رَبّة الإلهام لأفكاري سيدة مائسة تجول في عقلي.. ولا أعرف أين ستأخذني..

(أمين) باسمًا: وهذا أجمل ما في عقلك الجميل.. قراءة ماتعة..

فتحت المرأة الكتاب وبدأت القراءة..

ومضة الوداع..

ويبقى السؤال..

هل يمكن أن نجد السعادة وحدنا ولوحدنا...؟

وأيًا كانت الإجابات العاصفة بعقلي فسأختار منها ما

لا يرهق جسدًا ولا يطلب جهدًا على اعتبار أننا في الغالب

مثاليون في حال ما إذا كان شأن المجتمع هو شأنه.. ولا شأن لي

فيه عدا نقده ونقضه..

إلا أني هذه المرة سأخفض جناح التواضع وسأغلف مشاعري

بحمّى الأنا وسأعترف تواضعًا بأنني المجتمع والمجتمع أنا..

وأن كل ما هو شأنه في الأصل هو شأنٌ لي ومن الواجب قبل

أن يكون حقًّا أن أدافع عنه وأحميه من التآكل بين نفسه ونفسه

فيقضي على كلينا ولا ينتفع أحد.

فلو قلنا إنّ القناعة هي البحث عما نحتاج فالسعادة في

الغالب هي البحث عما نريد..

وبين قانع ومُريد.. يأتي ثالث ليكون أحد أهم بواعث السعادة

الحقيقية والذي يتجسد عادة على هيئة يد سخية أو لسان ندي أو ربما ابتسامة دون مغزى أو فسحة في مجلسٍ دنا لك فيه أحدهم لتكون منه أدنى وأقرب.

فالسعادة لا تبدأ أو تنتهي عند أشخاص ولكنها قد تزدهر أو تذبل بسبب أحدهم..

ولو اعترفنا أن السلبية والتشاؤم والتذمر وغيرها من منغصات السعادة ما هي إلا أسلوب الحياة الوحيد لمن لا حياة لهم أو معهم..

فالإيجابية والأمل والعطاء المنهمر هي أسلوب الحياة الوحيد لمن لا حياة دونهم.

العقل والقلب خصمان لدودان، يفرض كل منهما رأيه على الآخر في حين أنهما يسمحان لك أن تمنح لأحدهما السيادة دون اعتراض .. وما أن تقرر من يكون رأيه محل قرار وامتثال حتى ينشط الآخر لمراده ويعمل لمصلحته.. فإن ساد رأي القلب أخذك العقل إلى مراده وحققه وما أن يسود رأي العقل حتى يوده القلب ويلين إليه فيملأك لنيله شغفًا ودفعًا.



وعلى الرغم من أن رحلة العقل والقلب لتحويل المشاعر إلى أفكار هي رحلة شاقة متلاطمة الوجهات أحدهما سيغرق في نهايتها أو يغطس بنفسه في قاع اليأس لعدم قدرته على المواصلة أو قد يكون ارتأى لنفسه أن يظل متواريًا حتى يحين دوره.. فمن يدري.. لربما احتاجه الطرف الآخر لإسعافه في النهاية..

سيبقى طريق الشعور من القلب إلى العقل الذي يأخذه إلى حيز التطبيق والفعل طريقًا قلما ينجح إلا أن الإبداع الحقيقي لا يظهر إلا بعد إتمام هذه الرحلة والتي يعمل فيها أحد العضوين في مصلحة الآخر كليًا وبلا إرادة تذكر، فإرادته هي ما يريد سيده وعداها لا حزن عليه ولا أسى.

لو أخذنا بقول القائلين المرجحين بسيادة العقل كفرض واجب لا خيار فيه على اعتبار أن العاطفة داء للعقول ومهلكة للقرارات فنقول إن سيادة الموقف هي الأسمى على الإطلاق، وترجيح خير الخيرين لا عيب فيه إلا إذا كان المرء فاقدًا لسلطة نفسه تاركًا تحكمه في يد قلبه وعقله فإن قنع عقله سار إليه وإن قنع قلبه مال له دون وعي منه ولا إرادة، فيفقد مجدافه وتتمزق

أشرعته ما أن يختلفا فيختصما ليرميا الكرة في ملعبك بلا مران منك ولا ممارسة مسبقة لقرار تقنع أنت به أولًا ثم تخضع له عقلك وقلبك، إن الإرادة التي نتحدث عنها ليست قدرة خارقة ولا وصفة سحرية بل هي أسلوب تهذيب إنساني يجلب إليك ما تريده لمجرد أنك تريده ويبعد عنك ما لا تريد لمجرد أنك لا تريده فارضًا بذلك رأيك وقوتك على قلبك وعقلك.

إن كنت من المحظوظين وتعرف أين تكمن سعادتك وتراها أمامك..

فأقدم نحوها ولا تنتظر أو تنظر وراءك..

واقطفها..

فنصل الزمن يُشحذ.. وقطار العمر بسعيه يشتد..

واحم تلك الثمرة من السوس الذي سينخرها ويفسدها..

عفن مصدره بعض البشر المحيطين بك..

من سيقعدونك إذا هممت أن تقوم..

وسيهدمونك وأنتَ تضع اللبنات الأولى ..

سيحبطونك وأنتَ متفائل وسيلومونك إذا تعثرت ..

وهم أنفسهم من سيصفقون لك إذا نجحت ..

وسيقسمون أنهم كانوا واثقين من أنك ستصل ..

سيضحكون من خلفك ويبتسمون أمامك.. وليس لك ..

هؤلاء الناس بالذات ..

تخلص منهم اليوم قبل الغد ..

لتترك مجالًا لسعادتك لأن تنمو وتزدهر ..

بعيدًا عن غيوم أنفسهم المكدرة ..

فأنت تستحق ذلك ..

أسامة المسلم

وميض وهج أبيض قوي يخرج من وسط الكتاب

بين يديك ويشع منيرًا المكان حولك..